عادل حمودة

بنات القمر

تجارب الحب في بلاط السلطة

دار الخيال

بنـــات القـــــمــــر

تجــارب الحب في بلاط السلطة

بنات القمر

تجارب الحب في بلاط السلطة

الطبعة الأولى: أغسطس ١٩٩٦

رقم الإيـــداع: ٥٨٣٠ - ٩٦

الترقيم الدولى: 1- 977-19-9914

تصميم الغلاف: محمد الصباغ

لوحة الغلاف: الفنان عبدالعال

جرافيك: محمد كامل مطاوع

خطوط الغلاف : لمعى فهيم

كمبيوتر : كايرو ميديا

عــادل حــمــودة

بـنـات الـقــمـر

تجارب الحب في بلاط السلطة

مطبوعات دار الخيَّال

من بنات العجمى إلى بنات القمر

تجارب الحب فى بلاط السلطة

عندى قدرة خارقة على أن أبقى فى غرفتى شهرا.. وربما أكثر.. دون أن أشعر بالملل.. دون أن أشعر بالحنين إلى العالم الخارجى.. عالم الزحام والصدام.. الصراع والصداع.

ما الذى أحتاجه مادام معى أصدقاء فى صورة كتب وروايات ليوسف إدريس وفتحى غانم وجابرييل جارسيا ماركيز ولطيفة الزيات وهدى بركات؟!

.... ما الذى أحتاجه مادام معى قهوة وسجائر تكفينى.. وفكرة تشغلنى.. وأوراق صفراء مسطرة باللون الأزرق تتحرق شوقاً.. لقلم حبر أسود.. قادر على إشباعها.. وإضافة ألوان الحياة إليها؟!

.... أنا فى مثل هذا الوقت.. ملك متوج بالمتعة.. وسلطان قادر على التعبير والقول.. وأمير ينام كل ليلة على صدر أوراق دافئة فلماذا أبحث عن فراش آخر؟

والحقيقة.. أن هذا الفراش يجعلك تنسحب من صخب العالم لتستمتع وتستمع إلى موسيقى نفسك.. وموسيقى النفس، موسيقى جميلة، ناعمة، صادقة، حساسة، شفافة، لمن عنده الوقت لكى يصغى إليها.

والكاتب لابد أن يكون عنده الوقت لكى يصغى إلى موسيقى النفس.. وإلى مشاعر النفس.. وأحزانها.. وأحلامها وإلا تحول إلى مجرد «بوق».. أو جهاز «ستريو» هاى فاى، يكبر ويضخم ما يقول غيره...

إننا فى حاجة إلى الوحدة أحيانا حتى نسترد أنفسنا ومشاعرنا فنصل إلى الناس بعد أن نزيل غبار الآخرين من على جلودنا.

إن نفس الكاتب هى المخلوق الوحيد الذى يحتمله تماما.. ويقبل أن يبقى معه وهو غاضب أو نافر أو بائس أو وحيد.. أو وهو يتألم من أجل أن يلد فكرة.. أو يصوغ جملة.. أو يلف كيانه بحزمة ديناميت ويفجره برأى جرىء.

إنها لعنة أشبه بلعنة «الهولندى الطائر» الذى حكمت عليه الأقدار أن يبقى مبحراً مئات السنين دون أن يكون له الحق فى أن يتعب.. أو يشيخ.. أو يموت.. أو يستقر على شاطئ.. وكان الشرط الوحيد للخلاص من هذه اللعنة التى تلاحقه أن يجد امرأة تحبه بجنون، وترضى أن تصعد معه إلى ظهر السفينة الملعونة وتشاركه طوافه الذى لاينتهى فى جميع البحار والمحيطات.. وتقبل بكامل إرادتها أن تبحر معه، وترسو معه، وتموت معه.

كل كاتب هو هذا الهولندى الطائر.. لا الشواطئ تقبله.. ولا الأمواج تصالحه.. ولا العواصف تحتمله.. ولا القراصنة يوافقون على العيش

معه.. ولا امرأة واحدة مستعدة أن تحبه إلى درجة تقبل معها تهوره وتوتره وانشغاله وفراغ عينيه.. لا امرأة واحدة مستعدة أن تحتمل خيانته وعواطفه البعيدة، ولو كان ذلك من أجل قصة أو قصيدة خالدة تسعد البشرية.. لا امرأة واحدة يمكن أن تقبله على هذا النحو فتصعد معه إلى سفينة الأشباح التى يركبها وتبحر معه إلى آخر العمر.. وتموت معه.

لا امرأة واحدة تحتمل كاتبا طوال العمر.. فهى سرعان ما تتحول من أنثى إلى زوجة.. إلى مؤسسة.. إلى حساب وجبر وجغرافيا وجهاز مخابرات.. وكل امرأة عاشرت كاتبا ورأته على حقيقته وهو يبدع تمنت أن تكون بعيدة.. وأن تكتفى بالاستمتاع بالإبداع.. أى بالثمرة.. بالمولود.. فإبداع الكاتب أفضل ما فى الكاتب.. تماما مثل الشجرة.. فهى أجمل من الطين الذى خرجت منه.

فهل يكون الكاتب وهو يبدع فى حالة جنون، أم فى حالة مدمن هيروين يتخلص من إدمانه. أم فى حالة خطيئة وإحساس ثقيل بالذنب ويبحث عمن يعترف له دون أن يحاسبه؟

وربما كان الكاتب هو كل هذه الحالات معا.. لذلك فهو يفضل الوحدة.. فلا أحد يحترمه ويصدقه ويخفف عنه سوى نفسه.. وأن يكون الكاتب وحيدا.. فى كثير من الأحيان - لايعنى أن يكون متوحشا أو مريضا أو سوداويا أو هاربا من العالم.. لكن.. قد يعنى أن لا أحد يقدر على احتماله فى هذه الحالة التى يكون فيها المخاض ذروة الألم.. والدم.. وربما كان مثل السيدة مريم.. العذراء.. فى حاجة إلى جذع نخلة ليهزها فتساقط عليه رطبا جنيا.. فتقر عينه.

ومنذ طفولتى وأنا أستريح للوحدة.. أنام مستلقيا على ظهرى وعيناى

مسمـرتان فى سقف الغرفة تتابعـان مسرحيات وهميـة من خيالى.. أرى فيها كائنات خرافية تطاردنى فى أحلامى.. وكانت أمى تعتقد أحيانا أننى مريض.. وتعتـقد أحيانا أخرى أننى تخـانقت مع أحد.. ولم تكن تعرف بعـد أن أعظم الكتـابات خرجت من الـسجـون.. وعندما عجـزت عن معـرفة سبب يقنعهـا بما أنا فيـه، كانت تقـرأ القرآن حتى أبرأ مـن حالة الكلام مع السقف والجدران.

وكـبـرت.. وظلت عــلاقـتى بالـوحـدة والجـدران مـن أعظم وأمتن العلاقـات.. فإذا تعـرضت إلى أزمة حادة هربت بعـيدا إلى نفـسى حتى تنفـرج.. وإذا صُدمـت فى علاقـة سـافرت هارباً من الـناس والفضـول والسياط الـتى تلسعنا فى ظهورنا.. إننى لا أجيـد الكلام مع الآخرين إلا بعد أن تنقشع الغيوم، وتصفو السـماء، وتعود الشمس من جديد لتسطع فوق رأس الدنيا.

ثم.. اكتشـفت أننى يمكن أن أكلم نفسى وأتحاور معهـا وأشرح لها.. ثم.. وجـدتنى أعـبر عـمـا فى نفسـى بالكتابـة على الورق.. إننى أملك بالكتابة أعظـم جرعة من الحرية.. وهى جرعة عجز أى شخص عرفته فى حياتى أن يعطينى إياها.

وقد وجدت نفسى فى أزمة حادة اختلطت فـيها عواصف الحياة العامة بعـواطف الحيـاة الخاصـة.. إن حيـاتنا لا تقبل القـسمـة على اثنين.. ولا تنفصل الأحداث عن الانفعالات.. ومن ثم فإن الأزمة العامة تكبر بفعل الحسـاسية الخاصـة.. والأزمة الخاصة بفـعل الضغوط العـامة.. وفى كل الأحـوال تكون الأزمات أشـد.. وفى شـتـاء ١٩٩٦ عشت إحـدى هذه الأزمات الـتى التهبـت واشتـعلت حتى وصلت إلى الذروة.. وحـاولت

تجاوزها وجها لوجه محافظاً على طبيعتى الصدامية التى لا تعرف التنازل أو المساومة أو أنصاف الحلول.. وفشلت فى كسرها.. لأننى لست مرنا.. ولا أغش فى اللعب ولا ألبس الملابس التنكرية ولا أمسح الجوخ لأية سلطة.. وقد أحسست فى النهاية أنه لا أمل سوى فى أن أكون وحيدا.. بعيداً.

وقبل أن يرحل الشتاء سافرت إلى الإسكندرية.. فى هذا الوقت أشعر أن الإسكندرية.. ملكى.. أنا وحدى.. البحر.. والمعمورة.. وتريانون.. وسيسل.. وكتب وصحف محطة الرمل.. لا أحد يشاركنى فيها.. وتسحب بنعومتها المتاعب من دمى وعروقى.. وتعيد توازنى المفقود.. وتهدئ من روع ذهنى المشوش.. وتساعدنى على التفكير المنظم.. والإحساس المنظم.

وحملت معى الكتاب.. التعويذة.. قصة «السلطان العارى» للكاتب الهولندى هانز كريستيان أندرسون.. إنها قصة للأطفال.. لكننى تعلمت منها أهم درس فى حياتى السياسية والصحفية.. أن تقول للأعور أنت أعور مهما كان.. وأن الأطفال وأن الأبرياء والكتاب غير المنافقين هم فقط الذين يقدرون على ذلك.

وتعلمت منها أيضا.. أن حاشية السلطان هم الذين يورطون السلطان.. إنهم يرونه الأجمل.. والأشطر.. والأكثر أناقة.. ووسامة.. ودهاء.. حتى لوكان قبيحاً.. بكرش.. ولا يعرف الفرق بين الألف وكوز الذرة.

إن السلطان فى القصة مجنون بالثياب.. لا يهتم بأى شىء سواها.. وقد عرف بعض النصابين نقطة ضعفه فتسللوا منها وأقنعوه بأنهم

سيصنعون له ثوبا من خيوط القمر.. سيغزلون ضوء القمر فى خيوط من فضة ثم ينسجونها له.. وأخذوا منه مالا وفيرا.. ومكثوا فى القصر وقتا طويلا.. وعندما هددهم السلطان بالسيف ألبسوه الثوب المصنوع من خيوط القمر بعد أن خلعوا ثيابه المصنوعة من خيوط الحرير.. وشهقت حاشيته من جمال الثوب المصنوع من خيوط القمر.. وشهق الوزير.. والسياف.. وقائد الحرس.. وصفق له الشعب عندما خرج فى موكبه ليستعرض الثوب النادر.. لكن طفلاً صغيرا كان أبوه قد رفعه فوق كتفيه صرخ: السلطان بدون ملابس.. السلطان كما ولدته أمه.. السلطان «عريان».

إنها البراءة التى ترى الحقيقة.. أو لاترى سوى الحقيقة.. أو هى الحقيقة التى أكتبها بأصابعى العشرة.. وإذا لزم الأمر أكتبها بأسنانى.. وأظافرى.. فالكتابة هى عملية استشهاد حقيقية.. والذين لا يعرفون كيف يموتون على الورق، فالأفضل لهم أن يبحثوا عن مهنة أخرى.

والبراءة تجعلك لاترى الخطر.. وتجعل الألوان واضحة.. الأبيض أبيض.. والأسود أسود.. لا للون الرمادى.. لا للوقوف على السلم.. لا لمسك العصا من المنتصف.. لا.. لألاعيب الحواة والسياسيين ومدربى القردة فى السيرك.

والأبرياء هم الذين يغيرون العالم.. فهم حالمون بالخيال والمثالية.. وهم يسبحون ضد التيار ولا يدركون حجم الطوفان.. وهم تلقائيون.. يقولون ما يشعرون به من آراء وأفكار.. يأخذها الأذكياء ويديرون بها العالم.. لذلك يحب الناس الأبرياء.. ولكنهم يخشون الأذكياء.

وقرأت فى الإسكندرية أسطورة أخرى.. أسطورة كاسيبوا.. وكاسيبوا

ابنة ملك البحر.. الجميلة.. الأنانية.. المغرورة التى تثور الأمواج لو غضبت.. وتهدأ لو ابتسمت.. لكنها لا تبتسم.. ولا تتواضع.. فكان أن قرر أبوها فى نوبة غضب أن يقدمها قربانا للوحش.. وهو ما أثار حزن القمر الذى كان مكتملا.. فنزل فى صورة شاب قوى وجذاب.. وقاتل الوحش الأشبه بأخطبوط عملاق وأنقذ الفتاة من بين أذرعه.. وأعجب به الملك.. وسأله:

- ماذا تريد؟

فقال:

- كاسيبوا.

- لكنها أنانية.

- سنرفعها من الماء إلى السماء.

- وهى مغرورة.

- أريدها نجمة تتبعنى فى اكتمالى واستدارتى.

ويقال أن كاسيبوا هى النجمة التى تتبع القمر وتجرى وراءه فى السماء وتسبب المد والجزر فى البحر ويستغلها القمر فى إضفاء الحسن والجمال على البنات.

وقد رأيت لوحة لكاسيبوا فى أحد متاحف دمشق.. إنها لوحة أثرية تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد.. وجدوها فى منطقة بجنوب سوريا اسمها شهبار.. وأدهشنى الشبه القوى بينها وبين فتاة أعرفها.. تموت فى القمر.. وتتبعه.. وتتأثر به.. وتشد إليه.. وتعرف عنه كل شىء.. فهل هى كاسيبوا؟.. أم هى برياسكا؟.. الفتاة الغجرية الأسبانية التى أحبت

القمر.. فأحبها.. واستجاب لكل ما طلبته منه.. ودفعت الثمن غاليا.. حياتها وسمعتها.

وجاء صوت عبدالحليم حافظ فى أذنى.. من ذاكرتى.. «عشانك ياقمر.. أطلع لك القمر.. ما دام هواك أمر».. وتذكرت القمر الواقف على الباب.. المنور قناديله.. فهل نرد الباب أم نناديله؟

لكن.. كيف نطلع للقمر.. أو نصفق فى وجهه الباب وهو يدور حول الأرض.. بسرعة ٣٧٠٠ كيلومتر فى الساعة؟.. كيف نشبه به من نحب والذين وصلوا إليه وهبطوا فوق سطحه يقولون أنه سطح من الصخور النارية لا يختلف كثيرا عن وجه عجوز مصابة بالجدرى القديم.. كيف نحبه وهو يجرى كاللص الخائف من الإعدام!

على أن القمر رغم ذلك سيظل القمر.. إلهام السحر والشعر.. الجمال والخيال.. التبات والنبات.. إنه فى السماء.. ينير الليل فى سماء الإسكندرية عند الساحل الشمالى وتتراقص النجوم حوله على موسيقى الأمواج التى ترتطم بالرمال.. ليس فى الدنيا أبدع من ذلك.. إنها الطبيعة التى لا تخون نفسها ولا تخون أصدقاءها وعشاقها.. تشدنى إليها.. تسحبنى من همومى وأحزانى.. تنظف حياتى.. تعيد إلىّ توازنى.. تضع القمر فى خدمتى.. فدون أن أقصد وجدته فى السماء.. وفى الكتب.. وفى أكثر من امرأة عرفت.. ووجدتنى أمسك قلما وورقة.. وأشخبط بحروف كبيرة مدببة أشبه بحروف اللغة المسمارية: ب ن ا ت.. ا ل ق م ر .. بنات القمر وكأنى نطقت بكلمة «وجدتها» التى نطق بها أرشميدس فى الحمام قبل أن يتوصل إلى قانون الطفو.

لقد توصلت أنا أيضا إلى قانون الطفو فوق المتاعب والمشاعر

والمشاكل.. الـكتابة.. إنها بـالنسبة لى نـوع من العلاج النفـسى.. أمسك القلم وأكـتب.. أكتب مـا أشعـر به.. أكـتب ما أحـسه.. مـا يؤلمنى.. لا أحسب حـسابا لأحـد.. لا أخشى اتهامـا من أحد.. لا يهمـنى أن يفتش فيما أكتب أحد على طريقة مفتشى البحث الجنائى.. أو الطب الشرعى.. من المقـصـود؟.. لايهم.. هل كـشـفت أسـراراً؟.. لايهم.. هل عـريت نفسـا؟.. لايهم.. المهم أن أكتب وأكـتب حتى أسـتريح.. أكـتب وكأنى أصرخ.. أو كأنى أجلس إلى طبيب نفسانى.

وهكذا..

كتبت - بصدق وانفعال - بنات القمر .

إنها شخصـيات حقيقيـة .. تتنفس وتغضب وتحب وتكره .. لكنك لن تعرفها لو رأيتها عن قرب .. لقد تعمدت ذلك ..فما يهمنى ما جرى لها .. لا من تكون والأهم أنها نموذج موجود فى شخصيات أخرى كثيرة قد تعرفها .. فـفيها جزء منك .. وأجزاء كـثيرة منى .. وأنت تعرفهـا نفسيا وأنا أعرفهـا اجتماعيـا.. وقد رأيت فيها كـل شىء بعيون المرأة .. الحب والجنس والسلطة والثـروة والشـهرة والفـقـر والقهـر والذكـاء والغبـاء والتخلف السيـاسى والعاطفى .. وجعلت المرأة فيها تكسـر أشياء ما فى ضـمائر الذيـن يخنقونهـا .. جـعلتـها تضـرم النار فى ثيـابهم الداخليـة وأفكارهم وعاداتهم المكتسبة وتنزع ورقة التـوت عن أجسادهـم الشاحبة .. المشوهة والملوثة .

وهذا هو السبب فى أن رجالا كثيرين أشبعونى هجوما وتشهيراً عندما قرأوا بنات القمر، فقد رأوا صورا قـبيحة لأنفسهم فى المرآة أو فى المرأة، فصـرخوا وهاجوا وغـضبـوا، فقد أضـأت شمعـة فى ليل جاهليـتهم .. وحين فاجأهم النور خافوا .. لأن نور الحقيقة.. وضاح .. فضاح.

وحاول البعض الآخر أن يحرمنى من هذا النوع من الكتابة التى يختلط فيها الأدب بعلم النفس والحب بالإحباط والحلم بالجريمة، بدعوى أننى كاتب سياسى، أترك قضايا الوطن وهمومه وأضيع وقتى وجهدى فى «الكتابة عن النسوان».. وقد أدهشنى أن أسمع ذلك من أشخاص يرفعون رايات التنوير والتحرير.. إنهم يتصورون أن الحرية السياسية هى كل الحريات.. مع أن الأدق أن حرية الإنسان هى كل الحريات.. والرجل إنسان.. والمرأة أيضاً.. والطفل كذلك.. ولو سحبت الحرية من أحدهم دفع الآخرون الثمن.

بل.. لعلى أومن بأن المرأة هى مفتاح الحرية فى المجتمع.. ومالم نؤمن بذلك، فإننا نضيع وقتنا فى ألعاب سياسية وإعلامية وتعليمية مثل ألعاب الفيديو جيم.. الأتارى.. ننفعل.. نضطرب.. نكسب.. نخسر.. نسجل أهدافا وأرقاما.. لكن.. كل ذلك هو الوهم بعينه.

أن نرفع القهر عن المرأة، معناه أن نخلق أجيالا جديدة خالية من العقد النفسية والاجتماعية.. والأصولية.. والعصبية.. وألا تعوض نقصها خارج البيت بالزهو الكاذب داخل البيت.

هذا ما سعيت إليه فى «بنات القمر».. وهن غير «بنات العجمى».. فى بنات العجمى رسمت صورا لرجال ونساء ليسوا من اختراعى ينتمون لعالم «يختلط فيه الإقطاع السياسى بالإقطاع الجنسى والمال بالمرأة والطب بالتنجيم والتاريخ بالشعوذة والخرافات بالمخدرات».. وفى بنات القمر كانت الرؤية أوسع لأنها رؤية المرأة لنفسها ولخطاياها ولعلاقاتها بالرجل الذى يحكمها بأمر العقد الجنسية ويقول أنها السطوة السياسية.

لذلك ستجد فى بنات القمر شخصيات تسمع عنها وتراها فى الصحف وعلى شاشة التليفزيون وفى جلسات النميمة.. لكنك ستفاجأ بأنك لا تعرفها على حقيقتها.

إننى لا أدعى أننى نابليون بونابرت الكتابة.. ولا سيجموند فرويد التحليل النفسى.. ولا يوسف إدريس السرد.. ولا نزار قبانى الأسلوب.. ولا أدعى أننى فتحت العالم بالورقة والقلم.. ولكننى أقول بكثير من الغرور وكثير من التواضع أننى جعلت الكتابة خبزاً شعبيا يأكله الجميع.. وعملة رابحة يتداولها الجميع.. وأننى استطعت أن أحمل المرأة على كتفى وأعبر بها بحارا تمتلئ بأسماك القرش وتجار الرقيق والقراصنة والقوادين والفاشلين وأننى استطعت معها أن أخترق جميع الحواجز والقوالب الجاهزة.. كاسرا بذلك مشاعر الخوف والخطيئة.

ولا أزعج نفسى بتصنيف هذا العمل.. هل هو عمل أدبى.. أم رؤية صحفية.. أم ألغاز مثل فوازير رمضان؟.. فأنا أكتب.. فقط أكتب.. والتصنيف وظيفة العطار.

ولكنى.. مدين بشرارة هذا العمل إلى برياسكا المصرية المعجونة بالبطاطا.. فلولاها ما كان الكبريت قد اشتعل.. ولولاها ما كانت بنت واحدة من بنات القمر قادرة على الصراخ على الورق.

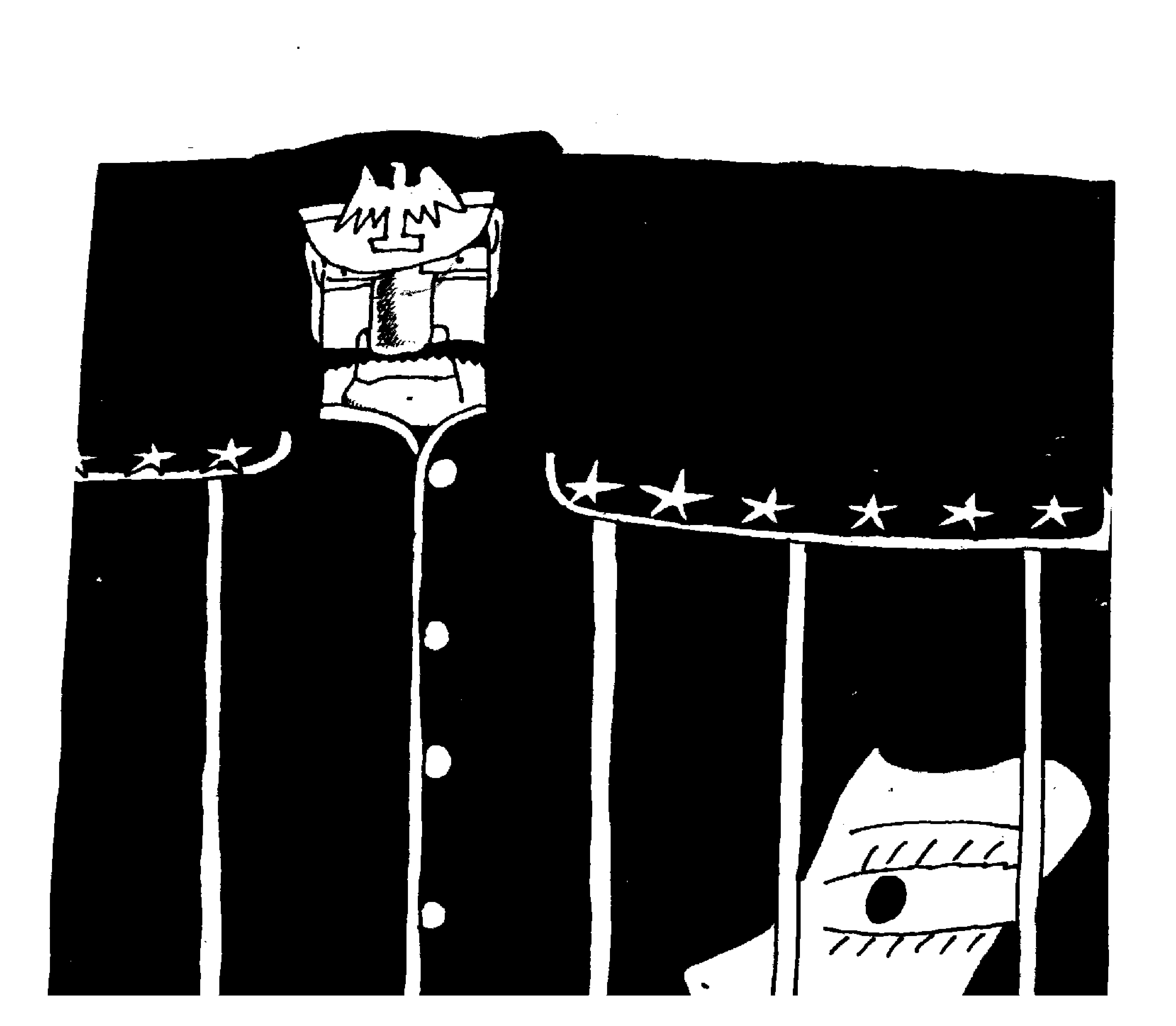
إليها.. أهدى الكتاب..

وإلى كل برياسكا أخرى...

أما من هى «برياسكا» البطلة الغائبة الحاضرة فى كل صفحة وفى كل سطر فى هذا الكتاب.. فهذا ما ستعرفه فيما بعد.. أو بعد قليل.

عادل حمودة

القاهرة أغسطس ١٩٩٦



١

فى البـــــدء
كانت الكلمــة

«فى البدء كانت الكلمة» خلقها الله شجرة قبل أن يخترع الخضرة.. خلقها نجمة قبل أن يُولد الضوء.. وخلقها سحابة قبل أن ينهمر المطر.

عرفها الإنسان جسراً للاتصال قبل أن يعرف المطبعة والتليفون والقمر الصناعى.. واجه بها الصمت قبل أن يعرف الصخب.. واستخدمها للاحتجاج على غياب العدل.. وغياب الحرية.. وسوء توزيع الثروة.. وعبر بها عن عصافير الحب التى تنقر قلبه، وتحلم بالخروج من قفصه الصدرى.. لتطير وتطير حتى يغلبها التعب والنعاس، فتنام فى فندق خمس نجوم اسمه «عيون المحبوب».

ولأن الكلمة قديمة قديمة.. عريقة عريقة.. ساحرة ساحرة، فإن رجل البوليس عندما يحقق معها يخافها.. يخشاها.. يعمل لها ألف حساب.. ويتحاشى التطلع فى عينيها حتى لا يبكى أو ينهار فوق أوراقه.

وبطلة هذه القصة كلمة واجهت رجل بوليس.. أو هى امرأة مصنوعة من الحروف والكلمات.. ثيابها أوراق الصحف التى تكتب فيها.. أناقتها فى أفكارها.. رشاقتها فى أسلوبها.. جمالها فى شجاعتها.. عطرها المفضل حبر المطبعة.. وهى لا تخاف شيخوخة الجسد، وإنما تخاف شيخوخة القلم.. لا تخاف أن يصبح جسدها مكرمشاً مثل ورق الكوريشة بعد أن كان مشدوداً مثل ورق السوليفان.. تخاف أن يتخشب القلب، وتتيبس الأصابع، وتتحول ورقة الكتابة إلى ضريح، تُدفن فيه وهى على قيد الحياة.

كانت أجمل بنات «المنيل».. حيث النيل والخضرة وهمس الأصابع على أرصفة الشوارع.. تمشى فتتكسر النجوم تحت قدميها.. تبتسم فيولد القمر من عينيها.. تتكلم فتذوب «فيروز» فى شفتيها، وكأنها تغنى.. حبيتك بالصيف.. انتظرتك بالشتا.

إن جمالها كان قادرا على تقليم أظافر الرجال، وتهذيب كلماتهم وإدخالهم روضة الأطفال.. إنها من ذلك النوع من النساء الذى يستعمر الرجل، ويحرره فى

وقت واحد.. يدلله ويفسده معاً.. يسيطر عليه ويمنحه رحيق الحياة فى الوقت نفسه.. من ذلك النوع الذى يشعر الرجل المجرب معه أن كل الشهادات العاطفية العليا التى حصل عليها من قبل هى شهادات مزورة.

لكنها.. كانت تخفى كل هذا السحر فى ثياب «الچينز» الكالحة.. الخشنة.. كأنها تضع كنوز الملك سليمان فى شوال من الخيش.. لقد اختصرت كل الألوان فى لون واحد.. الأزرق.. وقطفت كل الزهور من ثيابها.. أصبحت «سادة».. لكن.. كل الزهور والألوان والعطور التى هربت من ثيابها، اختبأت فى عقلها.. وأخذت أشكالاً وأسماء أخرى.. الفل أصبح ثلاثية نجيب محفوظ.. الورد البلدى أصبح «أرخص ليالى» يوسف إدريس.. وزهرة التيوليب أصبحت جلباباً من الكستور ترتديه فلاحة فى الصعيد.. وألوان الماكياچ اندمجت فى ألوان الطيف وصاغت قصائد صلاح عبدالصبور وأبياته الشعرية:

«أشقى ما مر بقلبى أن الأيام الجهمة

«جعلته ياسيدتى قلباً جهما

«سلبته موهبة الحب

«وأنا لاأعرف كيف أحبك

«وبأضلاعى هذا القلب»

الأيام الجهمة كانت تسيطر على الوطن.. تخنقه.. تثقل صدره.. تخصيه.. تجعله يرفع الراية السوداء.. هزيمة يونيو كشفت المستور.. طبول الدعاية التى تدق للنظام أصبحت جوفاء.. «زحف الدمار والانكسار.. جاء التتار».

انكسرت النفس، وأصبح من الصعب ترميمها.. تمزق القلب وكان من الصعب ترقيعه.. وراحت أحلام السمالوطى تفتش عن الخلاص.. مثلها مثل ملايين الشبان

والبنات فى جيلها.. بكت على يوسف إدريس وصلاح چاهين اللذين سقطا - من شدة الصدمة - فى بئر الاكتئاب.. واظبت على ندوة نجيب محفوظ فى مقهى «ريش»، وكانت جزءاً من غضب جيلها فى روايته «الكرنك».. وتسللت إلى «حوش قدم» فى الغورية لتسمع قصائد وألحان أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام عيسى.. وجلدت نفسها بحروف نزار قبانى الدامية:

«أنعى لكم اللغة القديمة.. والكتب القديمة.. أنعى لكم نهاية الفكر الذى قاد إلى الهزيمة.. ياوطنى الحزين حولتنى بلحظة.. من شاعر يكتب شعر الحب والحنين لشاعر يكتب بالسكين.. خلاصة القضية توجز فى عبارة.. لقد لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية.. بالناى والمزمار لا يحدث انتصار.. جلودنا ميتة.. أرواحنا تشكو الإفلاس.. أيامنا تدور بين الزار والشطرنج والنعاس.. هل نحن خير أمة أخرجت للناس؟!.. لو أحد يمنحنى الأمان من عسكر السلطان.. قلت له: ياحضرة السلطان.. لقد خسرت الحرب مرتين لأنك انفصلت عن قضية الإنسان».

كانت قصيدة نزار قبانى «هوامش على دفتر النكسة» أول منشور شعرى سرى يتداوله جيل «أحلام» الذى فاجأته الهزيمة وهو على عتبة الأحلام.. كان نزار قبانى «أول من غسل نفسه بنفسه.. أول من سكب الزيت الحارق على جسده.. وجلد قصائده».. أول «من طبق الطريقة البوذية فى حرق نفسه فى منتصف الطريق».

لكن.. الذين يخلطون بين الفن والأمن.. والإبداع والإيداع.. والباحث والمباحث طاردوا القصيدة.. وصادروها.. وقبضوا عليها.. وحققوا معها.. واتهموها بقلب نظام الحكم.. كانت القصيدة جريمة من الجرائم العليا لأمن الدولة.

وقد أرسل نزار قبانى خطاباً إلى جمال عبدالناصر يشكوه النقد الأمنى لقصيدته.. «ياسيدى الرئيس.. لا أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه، والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربى أراد أن يكون شريفاً وشجاعاً فى مواجهة

نفسه وأمته فدفع ثمن صدقه.. وشجاعته.. ياسيدى الرئيس.. لا أصدق أن هذا يحدث فى عصرك»..

وكتب جمال عبدالناصر على الرسالة بخط يده.. «لم أقرأ قصيدة نزار قبانى إلا فى النسخة التى أرسلها إلىّ، وأنا لا أجد أى وجه من وجوه الاعتراض عليها».. وأمر بفتح الأبواب أمام الشاعر.. والإفراج عن القصيدة.. وعن طلبة الجامعة الذين اعتقلوا بتهمة إحرازها.. إحراز قصيدة بدون ترخيص.. وكانت أحلام من هؤلاء الطلبة.

لقد قُبض عليها، وهى على محطة الأتوبيس القريبة من جامعة القاهرة.. ووجدت نفسها فى التخشيبة.. وعبثاً حاولت النيابة أن تجد جريمة سياسية ما عدا قصيدة نزار قبانى.. وبعد أسبوع من التحقيقات الصارمة التى لا يتعرض لها سوى الجواسيس، لم تجد النيابة مفراً من الإفراج عنها.. وفى قسم الشرطة - حيث تتم إجراءات الإفراج النهائية - بدأت المأساة الحقيقية.

كانت منهارة القوى.. حزينة العينين.. مكومة على مقعد - فى انتظار ضابط المباحث - كرزمة قش.. أو حزمة تبن.. عرفت فى هذه الساعات معنى أن يعيش إنسان فى طاحونة هواء.. شعرت أن عقلها قطعة من الخشب.. يدقون فيها المسامير.. ويطلقون عليها الصراصير.. قرأت على الحائط حكمتنا المفضلة.. الصبر مفتاح الفرج.. حورتها فى سخرية.. الصبر مفتاح الإفراج.. ابتسمت فى مرارة.. «لقد صبرنا أربعة آلاف سنة، ولم يأت الفرج».. بل لم يأت ضابط المباحث.

وقد حمدت الله أنها لا تزال قادرة على البكاء.. وقد كانت غارقة فى دموعها عندما جاء ضابط المباحث.. فوجئت به يقدم لها شيكولاتة وسيجارة وعصير ليمون وفنجان قهوة وجريدة من جرائد الصباح.. وفوجئت به يبتسم ابتسامة مريحة.. إنه ناعم مثل الثعبان.. وقد حذرها زملاؤها من نعومة ضباط المباحث.. فهم سيسحبونها

لتصبح عـيناً من عيونهم.. مرشـدة.. تكتب التقارير.. وتنقل الأخـبار.. وتسـاهم فى تلفيق القـضايا.. وإطلاق شائعات التشهـير بخصوم النظام.. لكـنه.. لم يطلب منهـا ذلك.. بل طلب منها.. أن يتزوجها.. ودُهشـت.. وصُدمت.. وفقدت القدرة على النـطق.. وبدت وكأنها لم تسـمع ما قال.. ولم يكن من الصعب أن يكرر عـرضه.. ولكن بطريقة أكثر إنسانية.

لقد راح يجمل صورته.. ويتحدث عن نفسه.. تكلم حتى تراه.. إنه العبد المأمور.. وظيفتـه حماية النظام.. مهمـا كان من يحكم.. لا فرق بين حاكم اشـتراكى وحاكم رأسمالى.. بين ملك ورئيس.. إنهم مع الشرعية.. والشرعية هى السلطة مهما كانت صـورتهـا.. إن المسدس لا أيدلـوچية له.. وهو مـسـدس.. ولو تحول إلى شـاعر أو مدرس فإنه يفقد وظيفته.. وسلطته.. ومصالحه.

سألته فجأة:

- هل ساهمت فى حملة اعتقالى؟!

- كنت رئيس القوة التى قبضت عليك.

- وتريد أن تتزوجنى؟!

- أريد أن أنقذك.

- أنت؟!

- إنك سـاذجة.. لا أحد يناطح السلطة أو يخـبط رأسه فى الحائط.. أنا أعطـيك فرصة عمرك لتصبحى جزءاً منها.. خسارة أن يضيع جمالك فى بهدلة السياسة.. لن تجدى أحداً يدافع عنك لو لفـقوا لك تهمة موجعـة وفضحوك.. السلطة هـى القـوة الوحيدة.. تستطيع أن تقنـع الناس بأنك مريم المجدلية.. أو أنك إيرما الغـانية.. وأنـا جزء من السلطة.. وسأظل جزءا منها.. لكنه جزء سيكبر يوماً بعد يوم.

كان يعرف عنها كل شيء.. كلف مخبريه بمراقبتها سياسياً وعاطفياً.. وجاءت التحريات في صالحها.. إنها مستقيمة كالنخلة.. صبورة كورقة النشاف.. شفافة كالزجاج.. وهي من أسرة تضرب جذورها في صعيد مصر.. الأب موظف كبير في الأوقاف.. يحب عبدالناصر والاشتراكية ومجانية التعليم، ويؤمن بالمساواة بين البنات والصبيان.. وهي تتدرب على الصحافة.. وتحب أحمد بهاء الدين وصلاح حافظ ومحمد حسنين هيكل وأمينة السعيد.. وهذا ما أزعجه في التحريات.. إنه يكره الصحافة والثقافة، ويرى أنها مهن تجلب الصداع.. فالكلمة قنبلة مسيلة للدموع أحياناً.

لكنه.. وقع في هواها.. ذاب فيها عشقا.. لم يعد قادرا على التماسك..إنه يريدها مهما كان الثمن.. أو يريدها حتى ولو كان الثمن أن يقرأ الكتب التي تجلب الصداع.. حفظ أسماءها وأسماء مؤلفيها.. وفقرات منها.. إن القضية هذه المرة صعبة.. تحتاج منه أن يتقمص دور المثقف.. لقد تعود كضابط مباحث أن يتنكر في شخصية تاجر مخدرات.. أو مهرب.. أو بلطجي حتى يكشف غموض القضايا المكلف بها.. لكنه لم يكن يتصور أنه سيتقمص شخصية المثقف حتى يتزوج.. ولابد أن نعترف ببراعته في التمثيل.. فقد نجح في تأدية دوره.. ووافقت أحلام على الخطوبة.

لقد كتب فيها شعرا.. والأدق أن نقول أنه غش بعض أبيات الشعر العاطفي من ديوان لنزار قباني، أخذوه من بيت طالب شيوعي.. مع مؤلفات ماركس وانجلز ولينين وتولستوي وتشيكوف التي كانت الحكومة تسمح ببيعها علنا.

كانت الأبيات التي غشها:

تعب الجرح ياملونة العين

وطاش الهدى وضل الرشاد

فأهمرى فى المدى ضفيرة نور

يسفح الخير طيفك المرتاد

وتلوحين.. ديمة تعصر الرزق

فيجرى الندى ويرضى العباد

فإذا منزلى مساكب ورد

وبثغرى هذى القوافى جياد

حتى تدركى أنك الأنثى

عند نهديك.. يؤمن الإلحاد.

ورغم أنه لا يعرف معانى معظم هذه الكلمات.. ورغم أنها كشفت غشه فإنها أحست أنها بداية التغيير.. أن يصبح ضابط شرطة ومثقفا معاً.. أن تمنحه الثقافة القدرة على استخدام القوة فى موضعها.. فلا يلفق القضايا.. ولا يعذب الأبرياء.. بل يعيد الحق لأصحابه.. ويرفض المجاملة والمحسوبية.. لكنها.. كانت رومانسية.. وواهمة.. إنها لم تكن بالنسبة له سوى قضية مخدرات.. أو قضية زواج.. بمجرد أن حصل عليها تخلص من تنكره وماكياجه وأفكاره، وعباراته.. وعاد إلى وظيفته.. وطبيعته.

لقد اشترطت أسرتها ألا تتزوج إلا بعد الحصول على الليسانس.. وهى لم تعترض على فترة الخطوبة الممتدة.. وقد اختلطت فى هذه الفترة الأحداث بالمشاعر.. مات جمال عبدالناصر.. وجاء أنور السادات.. ودخل رموز السلطة السجن.. الحاكم تحول إلى محكوم.. والراكب تحول إلى مركوب.. ولكن.. ضابط المباحث ظل على حاله.. فى خدمة السلطة.

قبل الزواج بأسابيع وجدته يصرخ فى التليفون:

- لبسوها قضية دعارة.

ولم تفهم.. من هى التى ستلبس قضية دعارة؟.. وفوجئت بالاسم.. إنهاكاتبة يسارية شهيرة.. قضت سنوات من عمرها فى السجون والمعتقلات.. وطردت من الجامعة.. وحرمت من نشر مؤلفاتها.. واختصرت طعامها فى وجبة واحدة.. وثيابها فى قطع محدودة.. وعجزت عن دفع إيجار شقتها.. فلم تجد سوى من تحب لتعيش معه.. إن الحب هو التعويض العادل عن القهر والقبح.. وبشاعات هذا العالم، وحماقاته وجرائمه.. فرغم المعتقلات لازلنا نغنى لعبد الحليم حافظ.. ورغم التصنت على التليفونات مازلنا نقرأ أشعار أحمد عبد المعطى حجازى.. ورغم تلفيق القضايا مازلنا نستمتع بالأفلام العاطفية.

وانزعجت أحلام.. وصرخت فيه:

- ألا يكفيكم تلفيق القضايا السياسية؟!

قال:

- التلفيق السياسى كان زمان..

- وجاء التلفيق الجنسى الآن..

- لن يخرجوا من السجون زعماء.. وأبطالا.. ومناضلين.. وثواراً.. سيخرجون قوادين وعاهرات ومدمنى مخدرات.. كل شىء تغير.. من يعارض توضع له قطعة حشيش.. من تعارض تصبح عاهرة.. لا أحد يدخل التاريخ على قفا السلطة.

- لكن.. ربما تعرضت أنا لقضية تلفيق.. إننى سأحترف الصحافة ولا مانع أن أقع فى الحفرة التى تحفرها لغيرى.

- لن أسمح بذلك.. لأننى لن أسمح لك بالعمل فى الصحافة.

وأصرت على فسخ الخطوبة.. وحتى تقطع الطريق عليه تماما.. قبلت خطوبة أحد أقاربها.. إنها لا تحبه، ولكنها تحترمه.. وجن جنون ضابط المباحث.. وحاول خطفها.. وحاول اغتصابها.. وراقب تليفونها وخطواتها وأنفاسها.. إن ألف امرأة يتمنينه.. يتمنين نفوذه وسطوته.. لكنه سلطة.. والسلطة يهمها إخضاع معارض واحد ولا يهمها تهليل مليون مؤيد.. إن كلمة «لا» تستفزها وتستنفرها.

ولم يتردد فى استعمال سلطته.. إنه سيستعملها هذه المرة لحسابه لا لحساب الحكومة.

كانت أحلام عائدة إلى بيتها ليلا عندما فوجئت بثلاثة رجال فى حجم الفيل يرفعونها فى الهواء، ويلقون بها فى سيارة «فيات» بيضاء.. واستدعت ذاكرتها ماجرى أيام الجامعة.. لكنها فوجئت بهم يلقونها فى تخشيبة قسم شرطة ما بعيدا عن بيتها.. وجدت نفسها فى وسط مظاهرة من اللحم الرخيص.. وجدت نفسها فى وسط نساء ساقطات.

لم يكن من الصعب «فبركة» قضية أو تلفيقها.. أو تزويرها.. وشهد شهود.. أقسموا يمين الله.. ووضعوا أيديهم على كتابه المقدس.. وسودت محاضر يصعب عدم تصديق ما جاء فيها.. إن من يكتبونها لا يخلون من موهبة التأليف.

فى لحظة واحدة أصبحت أحلام السمالوطى.. المناضلة والصحفية والصعيدية وابنة وكيل وزارة الأوقاف.. عاهرة.. الأوراق الرسمية تقول ذلك.

ولم تجد أسرتها مفرا من استعمال العنف.. جاء الرجال من ملوى يحملون أسلحتهم، ويكتمون غيظهم.. وفى لحظة واحدة كان قسم الشرطة يتحطم.. إن الظلم الذى لا يرى العدل لا مفر أمامه من اللجوء للعنف.

وعـرف الرئيس.. وحقق النـائب العام.. وتدخل وزير الداخلية وأمـر بطرد ضابط المباحث.. خطيب أحلام السابق من الخدمة.. وراحت الصحف تتحـدث عن سقوط دولة الظلم والقـهـر.. وبزوغ فجـر سيـادة القانون.. وكتب مـوسى صبـرى سلسلة مقالات فى صحيفة «الأخبار» عن أنور السادات بطل الحريات.

لمعت أحلام السمالوطى فى بلاط صاحبة الجلالة.. ووجدت فى صحف المعارضة فرصتها فى التعـبير عن أفكارها، وأحلامها.. إنها تريد الحـرية بكل أشكالها.. وقـد قالت لى مرة: إن الحرية هى العلم الوحيد الذى كلما أبحرت فيه ازددت جهلا.. فى عالم الحرية لا توجد شهادات عليا.. ولا أحد يستطيع أن يدعى أنه حامل دكتوراة فى الحرية.. إننا جميعاً تلاميذ فى مدرسة الحرية.. ولو تخرجنا فيها فسوف نموت قهراً.. ونصبح عاطلين عن العمل.. يجب أن نظل طالبى حرية إلى ماشاء الله.

وقـد تحولت كلمـة الحـرية فى مقـالات أحــــلام إلى جـرأة فى كـشف الفسـاد، ورفض معاهــدة «كامب ديفيد»، ورفض رفــــع الدعـــم عن قوت الفقراء. وكان لابد أن تدفع الثمن.

وثمن ممارسة الحرية هو مصادرة الحرية.

وفى ٣ سبتمبر ١٩٨١ قبض عليهـا فى هوجة اعتقال ١٥٠٠ شخص يمثلون رموز المجتمع المصرى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار..

وقبل ترحيلهـا إلى سجن النساء جرى التحقـيق معها.. وتولى هذه المهـمـة رجل مباحث خطير.. برتبة كبيرة.. لم يكن من الصعب - رغم السنوات التى مرت - أن تكتشفه.. إنه خطيبها السابق.. الذى لفق لها قضية الآداب.

سألها:

- مفاجأة؟!

- نعم مفاجأة.. ألم تطرد من الخدمة؟

- كلام جرائد.. تهويش!

- تهويش؟

- إن مثلى لا يستغنى أى نظام عنه.

- لكل حاكم ظالم نهاية.

- لكن أدوات الظلم لا نهاية لها.

- وأنت أداة من أدوات الظلم لا يستطيعون الاستغناء عنها.. كرباج!

- بالضبط.

وحمدت أحلام الله أن القضية سياسية هذه المرة.. وليست قضية آداب.. وقالت لنفسها:

- ليس فى كل مرة تسلم الجرة..

وفى تلك اللحظة قررت أن تكتب للأطفال.. أن تبدأ مشوار الحرية من الحضانة.



٢

برياسكا عاشقة القمر

فى أبريل ينقط مطر الإسكندرية على زجاج القلب فتستيقظ الخضرة فى مشاعرنا.. دموع السماء الأخيرة تجعل الفصول والألوان والمشاعر تنسلخ وهى تتشاجر.. يتراجع الشتاء والبرد واللون الرمادى .. ويولد الصيف والدفء واللون الأصفر .. لون أوراقى التى أنقش عليها حروفى وأعصابى وأحزانى وأحلامى .. وأرسم عليها فصيلة دمى وفصيلة قلمى .

استنجدت بسورتى الرحمن، ومريم العذراء حتى أنجو ولو قليلاً من جنون البشر والبقر .. من هرمونات الطعام وانفجارات السلام .. من لعنة ولعبة السياسة .. من العواطف العواصف .. من الكلمات اللكمات .. ومن امرأة لاترحم «اسمها الصحافة» .. إنها تعيش فى توتر لايهدأ .. وشبق لايخمد .. ولا تقبل أن تحب امرأة أخرى .. ولا تقبل نصف عقلك .. أو نصف قلبك .. ولا تعترف بمرض أو سفر أو إجازة أو راحة إلا من أجلها .. وهى مستعدة أن ترمى فى وجهك بيمين الطلاق فى أى لحظة .. فالعصمة فى يدها.

هربت من القاهرة .. الصاخبة .. من الاختناق والقيود .. وعلى شاطئ البحر فى أبريل وجدتنى أتأمل الحياة بغير حدود .. رحت فى هدوء المنوم بسحر تركواز الماء أغرق فى اللون الأزرق .. لون السماء والبحر والفلاسفة ونساء بيكاسو، والجرأة فى العشق .. ولم أتردد فى فك شفرة الأمواج وهى تتكسر كلمة بعد كلمة .. ومعنى بعد معنى على الرمال المنقوشة بالأصداف والأوصاف .. إنها لغة صعبة يحتاج من يفهمها أن يتوحد مع الطبيعة .. أن يكون على مقاس نفسه .. أن يعود إليها كلما سرقوه منها .. ألا يكذب ولا ينافق ولا يناور .. أن يبقى مسافراً بين سواحل المرجان وسواحل الحنان .. وتطهره بين الحين والحين الأحزان .. أن يؤمن بأن الحرية أمر من عند الله، وليست منحة من إنسان مهما كان .. إنها حالة إبداع وابتكار .. تشكلها النار .. أما العبودية فطريق مظلم نهايته الانهيار أو الانتحار .. ولو أجبرنا عليه سنصبح مثل ثمرة الخيار.

لقد ضاقت علينا اللغة التى نستعملها .. انحشرت فيها الحروف والكلمات .. أصبحنا فى حاجة إلى لغة جديدة .. شرايينها ليست عتيقة .. تنبض بالسخونة .. تعيد إلينا الدهشة والرغبة .. تجعلنا لانؤجل مشاعر اليوم إلى الغد .. تغير نظرتنا البرجماتية للحب .. فلا نتصرف على طريقة امرأة فى الفراش خير من عشر على الشجرة .. لاحب بالتقسيط .. لاحزب بالتقسيط .. لاحرية بالتقسيط.

إننا فى حاجة إلى ثورة حتى نمسح من عقولنا أن المرأة عورة .. فى حاجة إلى معجزات حتى تتغير العبارات .. والكلمات .. والمفردات .. فالمرأة تسكن أعماقنا وتسيطر على جميع الجهات .. ولو خسفنا بها الأرض سنصبح مثل اليهود .. فى الشتات.

لا تصدقوا أن الرجل هو الأقوى .. إنه يضع السلطة والثروة والقوة فى جيبه.. لكنه قد يعجز عن فعل ذلك مع امرأة واحدة يهواها ولا تهواه.. فى هذه الحالة هو مستعد أن ينزع كل أسلحته من أجل أن تقبل تشكيلها بين أصابعه مثل صانع الفخار.

لقد تورطت فى الحب ثلاثة أرباع عمرى ومازلت أجهل ماذا يدور فى رأس النساء.. مازلت أجهل أبواب الدخول .. وأبواب النجاة .. إن الحب تهديد لأمن الرجل .. لذلك اخترع قوانين الطوارئ المقيدة لحرية المرأة .. وبموجبها اعتقل الأنوثة وسجنها فى عقله قبل أن يسجنها فى بيته .. ولم يتردد فى سحقها وضربها وربطها فى فراشه.. وتحويلها إلى ذبيحة.. يشويها مرة .. ويغرقها فى المايونيز مرة .. ويصنع منها قهوته - بدلاً من البن - ألف مرة .. فهناك امرأة على الريحة .. وامرأة بالحليب .. وامرأة «نسكافيه».

ونجح الرجل فى صياغة معنى الشرف بحبر الدم الذى يقطره من جسد المرأة فى الليلة التى توصف بليلة العمر .. فى صخب من الدفوف والتوتر والزغاريد .. لا مفر فى هذه الليلة من الدم .. إما قطرة .. أو بحيرة .. إما الذبح بالأصابع أو بالسكين ..

لابد من دماء امرأة حتى يهدأ إله الشرف الذى لا يعبده الرجل إلا فى صورة امرأة .. مع أن الشرف يتجسد فى آلهة أخرى لا نؤمن بها .. فالذى يسرق الفقراء لاشرف لـه.. والذى يستورد لحوماً فاسدة لا شرف له .. والذى يضارب فى الأراضى لا شرف له.. والذى يقوم بالتعذيب وكتم الأنفاس لا شرف له .. فلماذا لا نجبر سوى المرأة على أن تكون كل ثيابها غارقة فى الدم؟!

وعندما تمردت المرأة على قوانين «السلخانة»، احتوى الرجل هذا التمرد واستوعبه ووافق على المساواة بشروطه وبأسلوبه .. فتنازلت المرأة عن تصورها للحياة، وسبقت الرجل فى تنفيذ تصوره .. إن مارجريت ثاتشر لم تختلف عن ونستون تشرشل .. حاربت كما حارب .. وذبحت معارضيها كما فعل .. وحتى لاتتهم بأنها امرأة كان أول قراراتها إلغاء لبن الأطفال فى المدارس .. ولا تختلف مندوبة الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة عن ريا وسكينة .. إنها تصر على قتل الأطفال بالحصار فى ليبيا والعراق .. ولا تفرق بين النظم والشعوب.. ولا بين الإنسان والجدران .. وزادت المعتقلات فى باكستان عندما أصبحت بنازير بوتو فى السلطة .. حولت الأنوثة إلى جنازة .. والأمومة إلى جثة !!

وبذكاء يُحسد عليه.. صور الرجل المرأة التى تطالب بالمساواة .. إما مسترجلة.. أو فاجرة .. إما شاذة تكره الرجال .. أو منحلة لا تقبل قيود الارتباط.. فالمرأة المرأة فى خياله هى مارلين مونرو .. تغسل قدميه بدموعها .. ويكورها فتصبح مثل الكرة أو القطة .. ويفردها فتصبح ملاية أو منشفة .. ليست مخلوقاً مثل الرجل يحمل بين رئتيه قلب الله، وتداعب أشواقه النجوم، وتُفزع تنهداته الليل.

إن الشمس امرأة توزع الدفء بلا مقابل .. والحياة امرأة تمنح مالديها من أسرار بلا تردد .. والحضارة امرأة بدونها نصبح شوكة يابسة تثير الألم .. والقمر لا يتكوّن إلا فى أحشاء امرأة.

لقد سافرت بخيالى عبر البحر الممتد أمامى بلا نهاية من الإسكندرية إلى أسبانيا..

حيث الحب فى كل الشوارع بالأصابع.. وحيث العاطل عن عشق امرأة عاطل عن العمل .. وحيث ولدت أسطورة برياسكا.. والقمر.

إن برياسكا فتاة من فتيات الغجر.. تختزن دفء الشمس فى جسدها.. ويخضر تحت قدميها - إذا مشت - الحجر.. ويشعر من يقترب منها بالخطر.. وإذا بكت أو أصابها الحزن انهمر المطر.. لكنها تهوى وتعشق وتناجى القمر.

القمر ذلك الينبوع المفضض يسكنها.. تفتح قلبها له.. وتغمس رموشها فى سائله فيشع الضوء من وجهها.. إنه صديقها.. سرها.. لايرتوى منه نظرها.. وفى ليلة من ليالى اكتماله طلبت من القمر أن يمنحها شاباً تحبه.. وقبل أن يختفى القمر وقعت فى الحب.. شاب أسمر من الغجر.. معجون من الشمس والرمال والدماء الملتهبة.. يؤمن بأن الهدنة فى العشق تنازل عن الرجولة.. وبأن مهمته الأولى بين الغجر أن يحب برياسكا.. ويعزف لها كل ليلة الهرمونيكا.. ثم يرقصان حتى الإغماء.

وتزوجته برياسكا.. لكنها لم تنس القمر.. ظلت تغطى نفسها بخيوطه الفضية.. وتهمس له برغباتها الخفية.. وفى ليلة من ليالى اكتماله طلبت منه أن تحمل من زوجها طفلاً.. يكون مثل القمر.. لكنه حذرها من هذه الرغبة.. «لاشىء ثابت يابرياسكا.. لايقين.. لاضمان.. الرجال عندما يعشقون النساء لا يؤمنون بالخط المستقيم ولا بالصراط المستقيم.. إنهم مجرد أصابع طباشير يشخبطون على النساء ثم يتصورون أنهم يكتبون الحكمة».. لكن برياسكا قالت: إن حبيبها من طينة أخرى.. وأنه يعرفها جيداً.. ويعبدها كثيراً.. وأنه سيجن من الفرحة عندما يصبح فى بيته قمر.. وأصبح فى أحشاء برياسكا طفل.. وراحت تتوحم على القمر.. وفى ليلة من ليالى اكتماله صرخت برياسكا صرخة الحياة.. وولدت طفلاً فضياً مثل القمر.. لكن.. ما إن حمل زوجها الطفل.. ووجد لونه ليس فى لون الغجر حتى تطاير من عينيه الشرر لقد خانته برياسكا.. خدعته.. وسحبها من شعرها.. وفى ضوء القمر ذبحها.. وصرخت برياسكا صرخة الموت.

إن كل امرأة تعيش مشاعرها البرية هى برياسكا.. إما تُقتل فى ضوء القمر.. أو تصبح مادة خام يصنع منها الرجل مايشاء.. مقعداً من حجر.. شماعة يعلق عليها أخطاءه.. سكينا يذبح بها خصومه.. نيشانا أنيقا يتباهى به فى عالم المال والشهرة فى فنادق الخمس نجوم.. أو سيجارة يدخنها.. ثم يدفنها.

لقد وجدت أكثر من برياسكا وأنا أتناول قهوتى المرة فى تريانون.. وتريانون آخر المقاهى الجميلة التى حافظت على نفسها فى الإسكندرية.. تدخله وتغلق الباب فتشعر أنك تسترد زمناً كانت فيه الأصول من طبائعنا.. وتنعزل فى داخله عن زحام البشر فى «الرمل».. قلب الإسكندرية.. حيث لايرى الناس سوى أنفسهم.. وتغلق السيارات طريق الترام.. وتجعله ديناصوراً من الحديد عاجزاً عن الحركة.. خالياً من الحياة.. ويختلط الصراخ الجماعى بحقائب المسافرين بأتوبيسات السهام الفضية والذهبية.. ويصعب على أحد فى هذا السيرك أن يلتقط نظرات من بعيد إلى بعيد بين شاب ممصوص، يستعجل الرجولة بسيجارة من سيجارة.. وفتاة بمريلة المدرسة تحلم بفهم العلاقة بين رجل وامرأة دون أن تصدق أن هذا مستحيل.. أو أنه بلا ثمن تدفعه.. لا يخطر على بالها لماذا يشعر الرجل بالزهو عندما يسيطر على امرأة.. ولماذا تصر المرأة على أن تهذب الرجل، وتخلع أظافره، وتجعله زوجاً.. موظفاً.. فى المؤسسة العامة للارتباط؟!

إن كل شىء فى السفر معد دائماً لشخصين.. الإفطار.. الجرائد.. الحوار.. غرفة الفندق.. مظلة المطر.. السيارة.. شريط الكاسيت.. ومائدة القهوة فى «تريانون».

وعندما نسافر بمفردنا.. فمعنى هذا أن نصفنا الآخر يجلس بعيداً على طرف الدنيا.. يعزف موسيقاه وحده.. وينام وحده.. ويأكل شفتيه بنفسه.

معنى هذا أننا فى حاجة إلى حوار ولو عن بعد مع الغرباء. فى حاجة إلى أن نتأملهم على الأقل.. خاصة فى البرد.. حين يتجمد الكلام قبل أن نقوله.. والأفكار قبل أن نعبر عنها.. والمشاعر قبل أن تنطلق منا.

إن الحب فىتريانون يختلط بالبن والحبهان.. ويخضع مهما كانت القيود والعيون لقوانين الإنسان.. إن الحجاب لم يمنع فتاة تغطى به شعرها أن تجلس إلى شاب يحتسى البيرة.. ويضغط بأصابعه على بطن وظهر يدها.. ويطرقع أصابعها.. وينظر مباشرة وبتركيز فى عينيها فهل الحجاب أحياناً مجرد زى؟! .. أم أنه ترخيص يمنح الأهل الأمان؟! .. أم أن الحب فوق الحجاب؟!

لقد كثرت ظاهرة الحب بالحجاب.. على شاطئ البحر والنهر.. فى المدرجات والكباريهات.. فى الشوارع والمصانع.. فهل هذا تناقض.. أم أنه موضة؟!

إن الشاب الذى يحتسى البيرة يبدو مثل ذكر الطاووس.. ثيابه فاقعة الألوان.. يضع بجانب علبة السجائر المستوردة، نظارة شمسية من «لاكوست».. أما الفتاة فتبدو مثل دجاجة مذبوحة ومجمدة.. ثيابها مظلمة الألوان.. بشرتها شاحبة.. صوتها أخرس.. أو هى قد قنعت بالصمت.. تنتظر منه كلمة.. أو بسمة.. أو نسمة.. أو وعداً - أغلب الظن أنه لن يتحقق - بالزواج.. سيهرب منها بحجة أنها لم تحترم الحجاب.. وأن من تخرج مع شاب لا تصلح للزواج.

المشهد يتكرر.. يحاصرك.. ويجعلك تتساءل.. لماذا يعيش الرجل عصره وزمانه، بينما يقذف بالمرأة إلى قرون الماضى؟!.. هل هى قوانين مملكة الدجاج؟!

لا ينافس هذا المشهد سوى مشهد بنات على عتبة الأنوثة.. يرتدين الچينز المحزق.. ويدخن سجائر «إل إم» علبتها زرقاء.. ويستمتعن بالحرية الشخصية.. بداية من دفع الحساب ونهاية بالجلوس فى مكان عام بمفردهن رغم كل محاولات الغزل التى بدت لا طائل منها.

إن وجودى وحدى فى أبريل الإسكندرية - فى مفترق الفصول بين الشتاء والصيف - جعل عقلى مثل فلاش كاميرا.. يعرض أفكارى ومشاعرى وتجاربى لإضاءة سريعة.. خاطفة.. مثل البرق.. فراحت مئات الصور الإنسانية المطبوعة تتدفق مكونة مجموعة من التجارب الواقعية.. حدثت لغيرى.. وإن كنت شاهداً عليها.. تجارب لبنات القمر.. لأكثر من برياسكا مصرية.

وربما لـم نتـعود - لجـمودنـا العقلي والتـاريخي والوراثي - على الأفكار البـرق.. والصور البرق.. التي تلمع مثل الضوء.. أو مثل عود الكبريت الذي يبدد الظلام ولو للـحظـة.. لعل وعسى يتـحول الضوء إلى نار تحرق التـراث المملوكي الذي حبـس المـــرأة في قفص الحريم.. لكن.. هذا لا يهم.. لأننا ستتعود على الأفكار البرق.. والتجارب البرق.. لا أقول سنجبر عليها.. رغم أنها تحمل كل ملامح عصـــرنا من ســرعة وإنجاز وتوتر وكـثافة فيما يسـمى بالنظام العالمي الجديد.. فهـو ليس مـجرد تغيـير في السياسة فقط، وإنما يمتد للأنوثة أيضاً.. ثم لا يجـوز أن نطــالب بالحـــرية لنصف المجتمع وبالعبودية للنصف الآخر.. هذه شيزوفرينيا ستنتهي بنا إلى مستشفى الأمــراض العـقـلية.. أو إلى مقبرة كالتي تُدفن فيها النفايات النووية.. لا يجوز أن نحب القمر ونعشقه ونهواه ونغني له.. ثم نذبح بناته ونغطي وجهه بدمائهن.



٣

منديل الدم الأحمر

كان منديل الدم الأحمر فى ليلة الدخلة يؤرقـها فى أحلامها.. ويفزعـها ويطاردها فى حيـاتها.. كانت تراه فـى إشارة المرور.. وطبق السلاطة.. وفـانلة النادى الأهلى.. وزجاجـة الكاتشب.. وفـاترينات الملابس.. وإعلانات السـجائر.. والورد البـلدى.. وألوان السيارات.. وغلاف روزاليوسف.. ولوحات عدلى رزق الله.

كان الحلم الكابوس يطاردها فى مـعظم الليالى.. نقطة دم صغـيرة فى حجم رأس الدبـــوس.. تكـبر.. تكـبـر.. تكـبر حتى تصبح بركة حمراء، تغرق فيها.. وعندمـا تصرخ.. ينحشر صوتها... لايخرج.. تحبسه حنجرتها.. ثم يظهر رجل لا ملامح له.. كـأنه من الســـلويت الأسـود.. يشعل سيجارة ويلقى بـعود الكبريت فى البـركة.. يتحول الدم إلى نار.. تلسـعها.. تحرقها.. تشويها.. تشوهها، وفى هذه اللحظة يخرج صوتها.. تفرج عنه حنجرتها.. تصرخ.. تصرخ.. حتى تهب مفزوعة من نومها وهى غارقة فى عرقها.

وفى الصباح تقول لها أمها:

- لاتجزعى يا حبيبتى.. الدم يفسـد الحلم.. والنار لا تحرق مـؤمنا.. والنهـار يبدد خـوفـنا من كـوابيـس الليل.. والشمس لـو غابت فإن القـمر سـرعان ما يـظهر، فى أعماقها.

كانت ترد:

- لكن الدم يا أمى يفسـد الواقع أيضاً.. والنار التى لا تحرق مؤمنا، تحـرق عاصيا.. والنهار يأتى بكابوس آخـر نراه فى عيون الناس.. والقمر الذى يحـل محل الشمس هو الذى جاء بالحنان.. والأحزان.

لـم تكن الكلمـات لتـهـدئ البركـان الذى يغلى فى شـرايين نهلة السـيـسى (اسم مستـعار بالطبع).. لم يكن ليقتل التنين الذى يلعب بأعصابهـا ويشعل النيران فيها.. وفى صباح كل كابوس.. كانت تفعل شيئاً واحداً.. تكرره.. تغلق عليها باب غرفتها وترقص.

إنها فى براعة فيفى عبده.. وتشعر بإيقاعات جسدها مثل سامية جمال.. وتتشرب الموسيقى مثل لوسى.. إن جسمها يتحرك بنعومة فائقة.. يتحرر من قيوده الصارمة.. يصبح مثل حية تتلوى فوق كثبان رملية.. يتفكك جزءا جزءا.. كل جزء يعمل منفرداً.. الناى يلاعب الصدر.. الطبلة تهز الوسط.. الدف يسيطر على الردف والساقين.. والعود يستفز الروح فى أعماقها.. وهى تتحرك بجسدها فى فراغ محدود بين الفراش والمرآة.. والأدق أن نقول أنها ترقص، وتتحرك، وتهتز داخل جسدها.

إن الرقص لغة الجسد المكبوت، الذى يصعب عليه الخروج، من تقاليده وأكفانه.. يذهب بالمرأة إلى اتجاهات مختلفة.. ومشاعر مختلفة.. إنه مثل الزار الذى اخترعته المرأة المقهورة لتجبر من حولها من رجال على تحويل رغباتها المحرمة إلى رغبات مشروعة.

لقد حرم مجتمع الرجال القابض المرأة من التعبير عن مشاعرها بالصوت والصورة.. ليس من حقها أن تحب.. أو تختار.. أو تستمتع بالرجل حتى ولو كان زوجها.. ليس من حقها أن تصرخ.. أو ترقص.. أو تطلب الطلاق لأن زوجها يعاملها فى الفراش كذبيحة لا كزهرة لا تتفتح أوراقها إلا بماء الندى.

لكن .. هذا المجتمع نفسه لا يتردد فى فتح كل الأبواب والأثواب، والرغبات والمحرمات، للمرأة عندما تتشنج وتتصلب وتصدق أن عليها «عفريت».. والعفاريت هى «الأسياد» وجنسياتهم مختلفة.. من السودانى إلى الأسبانى.. ومن التركى إلى اليمنى.. وطلباتهم لاحد لها.. وهى فى الواقع طلبات المرأة المكبوتة.. أن ترقص.. وتتفجر.. وتصرخ.. وتعرق... وتهدأ. وتخمد.. والرجل لا يستسلم ولا يستجيب لهذه الطلبات إلا نزولاً على أوامر الأسياد.. القوة الخفية العليا القادرة على الإيذاء والضرر.

إن نهلة تتذكر أنها، وهى طفلة، تسللت إلى حجرة عمتها التى مات زوجها فى حرب السويس بعد ثلاثة شهور من الزواج، وبقيت وحيدة تعض كل ليلة مخدتها

حتى شاخت مبكراً.. فى الحجرة صندوق من الخشب الهندى المحفور بالنقوش، كان محرما الاقتراب منه.. أو العبث به.. كل شىء فى الحجرة كان مباحاً إلا الصندوق.. وقد فتحته ببـراءة الأطفال وسذاجتهم.. فوجـدت بدلة رقص مطرزة بالخرز الملون.. وصاجـات من النحاس.. ومبخـرة من الفضة.. ومكحلة قـديمة.. وطربوشا أحـمر.. وسيورا من الجلد مـثل السياط.. وريش طـاووس.. وفروة خروف مصـبوغة بألوان بدائية.. وكتبا صفراء.. ومسبحة من الكهرمان.. وعندما أمسكت فرحة ببدلة الرقص فوجئت بأمها تنهرها بقسوة.

لقد فزعت وتـعجبت.. اندهشت واستـغربت.. كيف تحتفظ عمـتها التى تبدو مثل أمينة رزق ببدلة رقص كالتى ترتديها تحيـة كاريوكا فى الأفلام وتغرى بها الرجال؟.. ما الذى يقلب وداعتها إلى جنون؟.. ما الذى يحولها من ملاك إلى شيطان؟.. كيف تجمع بين الصلاة وهز الوسط؟.. بين القرآن والبهتان؟

ولأول مرة سمعت نهلة كلمة «الأسياد».. وعرفت أن سرهم باتع.. فهم أقوى من كل الرجال الأشداء فى عائلتها.. وأنهم إذا ما أمروا.. تصرفت عمتها على راحتها.

إن نهلة تكرر لعبة عـمتها.. رغم أنها درست علم النفس والصحافـة والسياسة فى الجامـعة الأمـريكية.. لا فرق بينها وبين عـمتها التى لا تحمل سـوى شهادة «لاإله إلا الـلـه».. إن سيجـموند فرويد بالنسبة لهـا هو الطبعة الإنجليزية من شيـوخ الخرافة.. والديسكوتيك هو الصـورة المستـوردة للزار.. فلمـاذا لا تتمـسك بالأصل.. لمـاذا لا تخرج من هدومها وهمومها بالرقص الشرقى.. إن قلبها يرقص قبل بطنها.. وعقلها يتحرر قبل جسدها.. ومن ثم فالتعبير على طريقة فيفى عبده يناسبها أكثر من التعبير على طريقة مادونا.

إنها مثل قطة وجدت نفسها وسط النار.. ترقص على جمر.. وتعيش على صفيح ساخن.. وكلما دخلت حماما، اكتشفت أنها فى محطة بنزين.. أو منجم كبريت.. أو مصنع مفرقعات.

لقد ولدت فى إحدى دول الخليج.. الأب أستاذ الفلسفة جاء ليجمع الثروة من بلاد النفط.. نجح بسهولة فى تحويل هيجل وشوبنهاور وماركس وعبدالرحمن بدوى وزكى نجيب محمود إلى دينارات.. سرعان ما تحولت إلى شقق وتاكسيات ومصنع علف فى مصر.. إنه يؤمن بأن كارل ماركس لو عاش فى زمن النفط لتنازل عن المادية الجدلية ليفتح توكيل سيارات فى الخليج.. وأن ديكارت نفسه كان سيرفض الشك، ويهبط من وراء الطبيعة إلى سوق المناخ ليضارب فى العملة.. أما سقراط فكان سيفضل «بيزنس» من نوع آخر.. مكتبا لتصدير العمالة.

الفلسفة أصبحت فى عقله ثرثرة.. كلاما أجوف.. شريط كاسيت يعيده بملل من أجل المزيد من المال.. وعندما كان يسمع الأغانى التى تتغزل فى القمر، يشعر بالسخرية.. فالقمر عنده جبال جرداء، وقمم مرعبة، وصخور نارية قبيحة.. ليس قرصا من الفضة تغازله النجوم، وتخطب وده، كما تتخيل زوجته.

إن زوجته لم تتغير.. ظلت على عشقها القديم ليوسف إدريس، وصلاح عبدالصبور، ونزار قباني.. ورغم الاستهزاء الذى تتعرض له من زوجها لم تكف عن جمع اللوحات المطبوعة لسيف وانلى، ومحمود سعيد، وموديلياني، وفان جوخ.. وأدمنت الفرجة على الأفلام الرومانسية التى لا تتزوج فيها البطلة من تحب.. وكلما انتهت منها وجدت نفسها غارقة فى الدموع.. إننا فى حاجة للبكاء أحياناً.

ويوما بعد يوم.. وألف دينار بعد ألف دينار.. أصبحت هى وزوجها مثل الغرباء.. والغربة فى فراش مشترك قطعة من عذاب جهنم، تصوغها الأنفاس والأشواك والأصباغ.. وتسحق أصحابها خلية بعد خلية.. ولحظة بعد أخرى.

ومن عناق الأشواك، وخصوبة الرحم، وانغلاق الغربة، جاءت شقيقات نهلة الثلاث.. وظل الولد، الذكر، الوريث، حلما مستحيلا، بعيد المنال.. لكنه حلم لا مفر للأب - الذى تكاثرت ثروته مثل الأرانب - من تحقيقه مهما كان الثمن.. وكان أن تزوج امرأة أخرى.

فى الجامعة الأمريكية وجدت نهلة نفسها فجأة فى دنيا صاخبة، متوترة، مختلفة مثل السيرك.. دنيا مفتوحة.. جريئة.. فيها العلم والحلم.. الشم والسم.. الرغبة والاستقامة.. الحنان والشيطان.. لقد أصر أبوها على أن تدخل الجامعة الأمريكية.. إنها علامة الثروة والسلطة الآن فى مصر.. وهى دليل على نفوذ الأب ونقوده.. لم تعد جامعة الفاشلين كما كانت من قبل.. والتاريخ يسجل لابنة جمال عبد الناصر الصغرى «منى» أنها اضطرت لدخولها بعد أن نجحت فى الثانوية العامة بمجموع ضعيف لم يسمح لها بدخول الجامعة المصرية لتلحق بشقيقتها الكبرى «هدى» التى أصبحت فيما بعد أستاذة علوم سياسية.

أخذت نهلة الدراسة بجدية مذهلة.. لم تعرف فى سنوات الجامعة من متع الشباب سوى الشيكولاتة.. لم تدخن البانجو.. أو تتعاطى الماريجوانا.. ولم تسهر فى ديسكوتيك.. إنها تريد أن تستقل عن سلطة الأب.. وتريد ألا تكرر مأساة الأم.. وبينما تناقش رسالة الماجستير كانت هناك فى الصف الأول مفاجأة تنتظرها.

كان يجلس مفرودا.. يضع بين شفتيه سيجارة غير مشتعلة.. وبدت أصابعه مثل أصابع عازف البيانو.. إنها تعرفه.. وتعرف أناقة ثيابه وكلماته.. فهو مدرس فى الجامعة.. فى قسم آخر.. حصل على الدكتوراة من اكسفورد.. لكنها لم تشعر به إلا فى لحظة النجاح.. لحظة الحصول على الماجستير.. إن النجاح أروع إحساس.. وهى تشعر به الآن.. لكنها تشعر أيضا وفى اللحظة نفسها أنها لأول مرة أنثى.

قال لها أنه نزل فى موانئ كثيرة.. وضاجع أكثر من امرأة رخيصة.. وعاش حياته فى الغربة بالطول والعرض.. وأنه يريد أن يبدأ من جديد حياة نظيفة.

فى ذلك اليوم أحست بأن نهديها مثل قبتى نحاس، وأن جسدها معجون بالفلفل والعنبر والزبيب.. وأنها لم تعد تقنع بالشيكولاتة.. ولا بعقد الفل الذى تضعه فى شعرها.. إنها فى حاجة للخدر الذى يسرى فى جسدها كلما لمسها.. وكان أن أعطته بلا حساب.. وشعرت بأن جسدها الأمى، الجاهل، أصبح له لسان.. ويفهم فى لغات أخرى.. غير العربية والإنجليزية والفرنسية.

لكنها.. ذات ليلة آمنت بأن علاقتها به زرع فوق ريح.. وحرث فوق ماء.. وقصر فوق رمال.. ضرب حياتها بالكلمات.. قال لها: لا تهتمى بما قلت.. فنصف كلامى شطحات خيال.. والنصف الثانى حبال من هواء.. أنا رجل مثل معظم الرجال.. ألعب بالكبريت.. لا أتعامل مع امرأة أشعلت فيها النار.. لقد روضتك، ودوختك.. وخربت حياتك.. ولو تزوجتك لابد أن تنسى نفسك، وشهاداتك وأحلامك.. فأمى تعيش تحت جلدى.. وأنا لا أريد إلا زوجة مثلها.

لقد أعطته ما لا يعطى.. لكنه ذبح كبرياءها.. وأذل جسدها.. كانت كلمة منه ولو كاذبة تعيد إليها الحياة.. لكنه لم يقلها.. إن التعليم ليس شرطاً دائماً كى نتحول من ببغاوات إلى بشر.. وأحياناً نندمج فى الكلام عن شكسبير وبيتهوفن وأحمد بهاء الدين.. ثم.. نكتشف أن ثقافة ضمائرنا لم تتجاوز كتاب ألف ليلة وليلة.. وأحياناً نتصرف بأسلوب عمر الشريف وأسامة الباز ونجيب محفوظ.. ثم.. عندما نعود إلى أنفسنا.. أو نتعامل وجهاً لوجه مع امرأة.. لا نقبل إلا بما فى داخلنا.. شهريار.. أكبر بلطجى عرفه التاريخ.

لم تقبل نهلة الدخول فى قفص الحريم.. وعاشت فى كوابيس الدم والرعب من الليلة التى يصفونها بليلة العمر.. ووجدت نفسها تميل أكثر للعمل مع الأجانب.. إنهم لا يحاسبون المرأة على ماكان.. عملت مندوبة مبيعات فى شركة أدوية.. ومترجمة فورية فى المؤتمرات.. ومقدمة للنشرة الإنجليزية فى التليفزيون.. وأخيراً استقرت فى مهنة باحثة فى إحدى منظمات الأمم المتحدة.

لقد تغيرت شرائع العالم فى أحلامها.. تغيرت خريطة الحلال والحرام.. لم تعد اللماحة، الشفافة، دائمة الطفولة، البهية.. أصبحت قوانينها برجماتية.. لا تريد رجلاً من العالم الثالث.. تريد رجلاً من العالم الأول.. رجلاً غير مترب أو معفر بالبخور والتوتر.. يثق فى نفسه.. ومتحرر من عقده.. ويرى أن الحب حضارة.. وأن المرأة قيثارة.. ويمد البصر إلى تجاوز الخطر.. فأهم من العشق الأمان.. وأهم من البراءة الشهامة.

إن ساعتها لم تعد مضبوطة على التوقيت المحلى.. وأحلامها تجاوزت خط جرينتش.. وعندما استدعوها للعمل فى مكتب السكرتير العام للأمم المتحدة لمدة سنة، كانت تعرف جيداً أنها لن تعود مرة أخرى إلى القاهرة.. وأن تذكرة الطائرة إلى نيويورك ستكون بلا عودة.. وقد كان.

ولا أعرف ما إذا كانت تحققت النبوءة.. أم أنها سعت للبقاء هناك.. وأغلب الظن أنها أصرت على الذوبان فى زحام نيويورك.. مدينة الأسمنت والناطحات والرعب والخطر والمسرحيات الموسيقية والنظام الدولى الجديد.

إن كل شىء فى نيويورك له ثمن.. حتى الحب والمشاعر وعناق الأجساد المشتاقة.. لا تناقض.. بين أن نحب ونوفر إيجار المسكن.. بين القبلات وتناول المقبلات.. بين ممارسة الجنس وعدم دفع ثمن مياه الدش.

وقد كانت نهلة جاهزة لذلك.

تعرفت على سيمون الذى يعمل فى قسم الترجمة والخبير بشئون الشرق الأوسط.. فى الصباح تحدثا فى السياسة.. وفى الظهر تناولا الطعام.. وفى الليل اقتسما الفراش.. عاشت معه، وتعودت عليه.. إن العادة أحياناً أشد إدماناً من الحب.. وعندما عرفت أنه يهودى لم تتعجب.. ولم تفزع.. ولم تهرب.. كل ما أسعدها أنها لم تعد تحلم بكوابيس الدم.. ولم تعد عاجزة عن الصراخ.

وهو يريد أن يتزوجها.. ومستعد أن يشهر إسلامه.. بشرط أن تعيش معه فيما بعد فى إسرائيل.

وهى تسألنى عن رأيى......... ورغم مرور ثلاث سنوات مازلت أفكر.



٤

قل الحب من عند الله

ولدت علـى يـديه.. مد أصابعه العشرة المخنوقة بقفاز المطاط، وسحبها من رحم أمهـا.. انتبـه أنها لا تبكى.. لقد تلقت صدمـة الحياة فى صمت.. وهدوء. رفعـها من ساقيها فى الهواء مثل أرنب مسلوخ وضربها برفق حتى انفجرت فى البكاء.

بعـد ٢٥ سـنة كـانت فى فـراشـه عـارية.. كـانا فى شـرم الشيـخ.. حـيـث الطـبيعـة عذراء مثلها.. والجبال ممشوقـة مثلها.. والقمر ناعـم مثلها.. والغـزال شارد مثلـها.. لقد تجردت فى تلك الليلة من ثيابها، ومن طفولتـها وخرجت تغتسل بضوء القـمـر.. تمددت عـلى الرمـال.. تركت نفسهـا للفضة السائلة التى يرسلهـا القمر ممزوجة بالندى.. غار منها السحاب.. راح يتداخل ويتشابك.. تغير لونه.. وفى دقائق انهمر المطر.

أما هو.. فكان فى غرفته.. منكمشاً مثل قنفذ صحراوى عجوز.. يشاهد من تحت غطاء سـميك التليـفزيون الإسـرائيلى، الذى كان يعـرض مـسلسـلاً سـيـاسيـاً بعنوان: «عـمـود الدخـان».. وهـو مـأخوذ من أسطورة يهـودية عمـرها من عمـر خـروج اليـهود مـن مـصر الفرعـونيـة.. فـهـم يقـولون أن الرب «يهـوه» أرسـل عـمـوداً من الدخـان ليـسبق اليـهـود فى سـينـاء، ويدلهـم على الطريق إلى أرض الميـعـاد.. وبعد قـرون التيه والشتـات أصبحوا فى حـاجة إلى «عمود دخـان» آخر يرشـدهم من جـديد إلى أرض الميـعـاد.. وكـان كتـاب «الدولة اليهـودية» لتيـودور هيرتزيل «عمود الدخان» الجديد.

لقد انسـحب جيش الدفاع الإسـرائيلى من سيناء.. لـكـن..أنفاس الـيهود بقـيت هناك.. وهم يفضلون المناطق الخالية من الفنادق.. فالطبيـعة أجمل وأرخص.. وهم يمـارسـون الحب «لعـوف» فى الهواء الـطلق، ونصف أجـسادهـم فى ماء البـحـر.. ويدخنون البانجو «لحوف» فى حماية البدو.

كأن عقـرباً لدغها.. قفزت مريم من تمددها وهى تستـر نفسها.. إن الليل وحـده لا

يكفى لسترها.. لقد فوجئت بأن حولها غابة من الأجساد اليهودية العارية.. فى حالة «الحوف».. لا أحد ينتبه للآخرين.. لا أحد ينشغل بغيره.. إنها كانت وحدها.. تناجي القمر وحدها.. تتشرب حنانه وحدها.. لم تشعر بأحد يقترب.. ولا بأحد يتلوى.. ولا بأحد يتنفس.. لكن.. فجأة.. وجدت نفسها فى ديسكوتيك صاخب، يعزف موسيقى اندماج الأجسام فى الأجسام.. وهى موسيقى لم تسمعها من قبل.. إنها لم تسمع سوى الموسيقى الكلاسيكية.. بيتهوفن.. وموتسارت.. وباخ.. لا تسمع موسيقى الشباب الذين فى عمرها.. لا تعرف عمرو دياب.. ومصطفى قمر.. وعبدالحليم حافظ.. ومادونا.. ومايكل چاكسون.. إنها تعيش خارج عصرها!!

فوجئت بهذه الموسيقى البشرية التى تُولد من تلاحم رجل وامرأة.. إنهما لا يعزفان على آلات الأوركسترا السيمفونى التى تعرفها.. ولكنهما يعزفان على أوتارهما.. فينفجر صوت العواصف من العواطف.. وتصفر الرياح الشرسة من الرغبات المشتعلة.. وتدق الأمواج المتكسرة على الهزات المتلاحقة.. ثم تغرد الطيور الأليفة معلنة وصول دفعات من الهواء خفيفة.

لقد هربت إليه.. دائماً تهرب إليه.

إنه واحد من أشهر أطباء النساء فى مصر.. لم يكتف بتشريح جسد المرأة، وإنما فهم طباعها.. واستوعب جموحها.. ولم يشغل نفسه بتغيراتها المفاجئة.. فالمرأة مثل الطقس.. قد يكون معتدلاً ثم ينقلب عاصفاً.. وقد ينهمر المطر والشمس دافئة.. وقد نعيش الفصول الأربعة فى ساعة واحدة.. وهكذا المرأة.. كلمة تسعدها.. ونظرة تشقيها.. ابتسامة تجعل الحياة ناعمة.. وإيماءة تحولها إلى رياح الخماسين.. إن المرأة حزمة من التفاصيل الصغيرة.. وذاكرة قوية.. وبراعة فى فرض التعايش السلمى بين المتناقضات.. إن فى شرايينها يجرى الماء والنار معاً.. الفطنة والسذاجة معاً.. المطر

والخطر معاً.. أما الرجل فقد قنع بالمانشتات العريضة.. والأفكار العامة.. والقوة الغاشمة.. وتصور أنه قادر على فرض قوانين الطوارئ على كل شيء في الحياة.. من السلطة إلى الأنوثة.. إن الرجل هو السياسة، والمرأة هي الأدب.. والسياسة تموت.. والأدب خالد.

لقد فهم الدكتور برهان كيمياء النساء.. فاشتهر بأنه «دون چوان».. وهي صفة لو حصل عليها رجل لتحول إلى ضوء يجذب فراشات النساء.. والدون چوان شخص حُرم من نفوذ الأب.. ودللته الأم.. غفرت له عيوبه وخطاياه.. فلا يشعر بامرأة تنزف.. ولا بامرأة تأكل نفسها من القهر.. ولا بامرأة تنتحر من أجله.. إن الخطأ في تصوره دائماً خطأ المرأة.. فهي التي اقتربت.. وهي التي أفقدته الدهشة.. وهي التي لم تعد قادرة على إفراز رحيق الأنوثة.

ورغم أن الدكتور برهان يفتقد وسامة حسين فهمي، وسحر عمر الشريف، وخفة دم عادل إمام، إلا أنه كان لامعاً في عمله، وقادراً على توظيف قوانين الهرمونات لإنقاذ النساء من العقم.. وقد كسب من وراء ذلك الكثير.. الشهرة والثروة.. والقوة.. لقد جمع بين الصرامة والسخرية.. لكنه لم يقع في هوى السلطة.. ولم «يشتق» إليها.. وظل دائماً يعطيها ظهره.. والسلطة أحياناً مثل المرأة.. تجري لمن يريها عرض قفاه.. وقد عرضوا عليه أن يصبح وزيراً أكثر من مرة.. لكنه رفض.. إن الوزير هو سكرتير من نوع خاص.. لا يملك سوى تنفيذ التعليمات والتوجيهات.. وهو قد تعود على أن يكون الرجل الأول.. والأخير في عيادته.. وكليته.. وعلاقاته.. وفراشه.

إن ذلك ضاعف من بريقه وسحره ونجوميته.. وأغلب الظن أن هذه الصفات الكونية هي التي شدت مريم إليه.. وكان أن سقطت في هواه.. وطفت فوق سطح أمواجه.

إنه أكبر منها بـ ٤٥ سنة.. عمرها يكاد يكون نصف عمره.. بل إنه أكبر من أبيها.. إن أباها كان صديقه القريب.. كانا يشتركان فى الطب.. وإن اختلفا فى التخصص.. طب النساء وطب القلب.. وكانا يشتركان فى سماع الموسيقى الكلاسيكية، وعشق النمسا، وكراهية ثورة يوليو وجمال عبدالناصر.. إن الثورة فى رأيهما أصبحت عورة عندما جعلت الرعاع يحكمون.. ويتعلمون.. ويدخلون نادى الجزيرة.. ونادى السيارات.. ولعل ذلك هو سر ابتعادهما عن السياسة.. وعن الأحزاب.

على أن عذاب الأب الذى كان لا تسكِّنه الأقراص هو الإنجاب.. إن زوجته التى تنتمى إلى الأسرة المالكة كانت لا تقدر على تحمل الجنين.. وفى موعد محدد من الحمل بالضبط كان حلم الطفل ينفجر.. يتبدد.. يتناثر وتغسله المياه.

وعندما أصبحت «مريم» جنيناً.. وقفت الحياة على قدم وساق.. وكاد الدكتور برهان أن يكون مقيماً إلى جوار أمها.. إن التحدى والعناد جعلاه فى حالة توتر.. لقد انقلب البيت إلى مستشفى.. وعندما مر موعد الإجهاض الملعون، قفز فى الحجرة، وراح يرقص.. إنه انتصر على معادلات الخصوبة المجهولة التى كانت تهدد نجاحه وشهرته.. ويومها شعر أن فى أعصابه تجرى ثيران هائجة وخيول نارية.. فقرر أن يحتفل على طريقته الخاصة.. امرأة فى فراشه لم يمسسها رجل غيره من قبل.

ويوم وُلدت مريم كان ابنه الكبير يتزوج.. لقد ترك عرسه لينتظر مريم.. وهو الذى اختار اسمها.. إن السيدة العذراء هى المرأة الوحيدة التى يحترمها.. لقد فضلها الله على نساء العالمين.. وجاءت بالرحمة والتسامح والخير والحياة بمفردها.. بهبة من السماء.. والمؤكد أنه اختار لها هذا الاسم لأنه لم يخطر بباله أنها ستدخل، عندما تكبر وتنضج، إلى فراشه.. ثم إنها مثل ابنته.. بل يمكن أن تكون حفيدته.

لقد أرادها امرأة من نوع آخر.. لا يعرفه.. امرأة قرر أن يخترعها.. مصنوعة من الكريستال.. مثل الفراشات.. يشدها النور وينفذ منها النور.. خالدة.. نقية.. مثل

صور العذارى فوق سقوف الكنائس.. لذلك.. كان حماسه شديداً.. لأن تتربى فى إحدى مدارس الراهبات.. لقد تمنى أن يضعها فى صدفة مثل لؤلؤة.. وازداد حرصه على ذلك عندما مات الأب.. إن طبيب القلب مات بسكتة فى القلب.. لم يستطع أن ينقذ نفسه.. اختنقت شرايينه.. علقت القلب من رقبته فى حبال زرقاء وحمراء جافة، ففقد الحياة.. وفقد ابنته الوحيدة التى انتظرها طويلاً.

جاءت مريم بمريلة المدرسة، وأساورها المعدنية، وشعرها الطويل الذى يجرى وراءها كذيل الحصان.. فى عينيها لمسة كحل خفيفة.. وفى شفتيها حمرة ثغر خفيفة.. وفى عرقها رشة عطر خفيفة.. جاءت تحلق مثل الطيور الأليفة.

لقد عرفت خبر الموت.. لكنها لم تكن تفهم معنى الموت.. ولا خبرة الحزن.. إن الأطفال يفهمون الموت على أنه سفر إلى بعيد.. ويرون الحزن فى عيون الكبار، فينتظرون أن يطلع النهار.. ليعود الفرح والمرح.. إن عمر الألم والقلق فى تقويمهم لا يزيد على سواد الليل.

ثم.. إنها لم تفتقد الأب.. هى تراه فى الدكتور برهان.. فهو يطعمها من يده السكر والشيكولاتة، ويوقع شهاداتها المدرسية، ويلعب معها لعبة الاستغماية.. ويشترى لها ثيابها الملونة.. وعرائسها الناطقة.. وهى لم تخجل منه عندما استدارت أنثى فى حجره.. عندما جاء خراط البنات فى موعده.. وانقلب البحر فى موعده.. واستدار القمر فى موعده.. وجاء وقت السفر إلى عالم الكبار فى موعده.. لكنه تجاهلها.. تجاهل صدرها وقوامها وجمالها ومشاعرها.. إنه اخترعها.. على أن الخبير بكيمياء النساء لم يفهم أن من اليسير اكتشاف قارة منسية.. أو العثور على كنوز الملك سليمان.. لكن.. من عاشر المستحيلات والمعجزات اختراع امرأة على مقاسه ومزاجه.

لقد أحبته.. والأدق أنها عشقته.. فالحب الذى بلا طائل أو عائد هو أعلى مراتب الجنون والعشق.. أما هو فقد استسلم للمعجزة الكبرى.. أن تخرج مريم من صورتها

النورانية لتدخل فى صورتها الأنثوية.. لقد انشقت السماء عن جنية.. ضربت مثل الطوفان شطآن حياته.. وجعلته فى جزيرة من الدهشة، يحاصرها البحر من جميع الجهات.. إن الدهشة هى التى تؤكد الحب والرغبة فى رجل فى عمر الدكتور برهان.. إنها البراءة التى تجعل ساعة الجسد تدق من جديد.. وتجعل الخريف يعود ربيعا.. والطفولة تمتد بنا إلى عمر السبعين.. تجعل فصول الإنسان تتغير.

ولابد أن نصدق أنه تردد طويلا فى البوح بمشاعره.. كان يرد على عواطفها بنظرات مترددة.. تقول: ليس عندى الآن ما أعلنه.. فأنا لا أعرف هل جاء الحب أم لم يأت؟.. كان مضطربا.. لاشىء فى داخله أكيد.. قلبه منشطر.. عقله منشطر.. نصف يمنحه الحماس لتجديد الحياة.. ونصف يحذره من فارق السن، وفقدان الأمان.. ولأننى أومن بأن الحب لا يأتى إذا نحن أردناه، فإننى أتصور أن الدكتور برهان أحب مريم لأنها تحبه.. إن ذلك يحدث لنا كثيرا.. أن نحب من يحبنا.. أن نحب أسلوبه فى التعبير.. عن الحب .. فإذا هو كف عن الحب.. أو تغير أسلوبه فى التعبير.. نعود إلى ما كنا عليه.. ويصبح كل شىء كأن لم يكن.

وأنا أستطيع أن أفهم - لمعرفتى الوثيقة بالدكتور برهان - كيف استسلم لهذا الحب الذى بدا للآخرين فى عداد المستحيل.. إنه مثل أى دون جوان يشعر فى قلبه بفراغ.. يفتقد الحب العظيم.. وهو يتمنى أن ينسحق فى حب عظيم يملأ الفراغ.. إن تعامله مع أكثر من امرأة فى وقت واحد يعنى أنه يجمع «الفكة» .. أو الأقساط.. وأنه فاشل فى التعامل مع امرأة صحيحة.

وأتصور أنه أحب مريم من باب الفرصة الأخيرة.. فلا أحد يعرف ما الذى سيحدث فى يوم وليلة.. لعل عينيها تمنحانه عمرا فوق عمره.. ثم إن الحب من عند الله.. ويسألونك عن الحب.. قل الحب من عند ربى.

ولاجدال أننى تلقيت خبر زواجهما بصدمة.. مثلى مثل باقى الناس.. ومثل أمها

التى كـادت أن تفقـد النطق.. ولم أصدق مريم عندمـا عرفت أنها قالت إنهـا أسعد الكائنات فى الأرض والبـحـر والسمـاء.. وأنهـا الآن تستطيع أن تميـز بين الأشيـاء والألوان وأساليب الكُتَّاب والشعراء.

وأنها فى شرم الشيخ اكتـشفت أن ركبتها ملساء، وأن شفتيهـا معجونتان بالشطة.. وأن الشمس كانت تشـرق من صدرها، والقمر كـان يُولد مكتملا فى غرفتـها فى عز الظهر.

وأنها فى غرفة ضيقة.. لم تخرج منها يوما كاملاً، طافت بالعالم.. شربت النبيذ فى بـاريـس.. وصـارعت الثيـران فى مـدريد.. وقطفت زهرة تيـوليب فى أمسـتردام.. واغتسلت فى المحيط الهندى.. وشاهدت مسرحية ساخرة فى نيويورك.. وأكلت لحم الطاووس فى الفراش.

ولا أجد مـبررا واحدا لتكذيبـها.. فـقد عـاشت ثلاث سنوات.. لم تـفكـر فى أى شخص آخـر غيره.. وكان من الممكن أن تعيش مـعه سنوات أكثر.. وأطـول.. لـولا المجـتـمع الـذى لا يرحم.. لقد كـان الرجال الذين يحسـدونه يتعمـدون مضايقـته وإحـراجـه.. كانوا كلما وجـدوها معه فى مكان يقولون: ألا تعرفـنا بابنتك يا دكتور برهان.. أين كنت تخفيها عنا؟

ومهما كانت قوة احتمال الدكتـور برهان فإنه كان يهتز فى أعماقه ويتأثر.. وبمرور الأيام راح يضـيق عليهـا الخناق.. كـان يريد أن تظل فى البـيت.. لا تخـرج.. وإذا خرجت كان يحاول قدر استطـاعته أن يكون معها.. وعندما كانت تحـدثه عن رعاية زوجته الأولى، كان يتصور أنها تريد إبعاده.

لقد راحت خيوط الشك تنسج نفسـها بشراسة حول عقله.. وهو يعرف أنهـا بريئة مما يتصور.. لكنه الضعف الذى يعترينا.. ويمنح الآخرين قوة ليست فيهم .. وشراسة ليست فيهم.

إن الدون جوان أصبح عجوزا.. يعود إلى بيته فجأة ليفتش عن آثار الرجل الآخر.. عن بصماته فوق جسد امرأته.. ينظر إلى صحن السجائر.. والمرآة.. والمقاعد.. ومكان الصحيفة.. وملايات الفراش.. هل عبث بهذه الأشياء الرجل الثانى؟ .. هل استرد هذا الرجل منه امرأته؟

إن الدون جوان العجوز عندما يتزوج من فتاة صغيرة، يشعر فى أعماقه أنه خطفها من رجل آخر.. مجهول.. لا يعرفه.. رجل هو الذى يستحق المرأة التى تزوجها.. رجل يناسبها.. ولأن هذا الرجل لا وجود له إلا فى خيال العجوز، فإنه يفتش عنه فى كل مكان.. ويتصور أنه يمكن أن يكون أى رجل يراه أو يقابله.. وهو فى حالة الدكتور برهان آلاف الرجال.. فعالم المشاهير ونجوم المجتمع مثل خلايا النحل، ومباريات كرة القدم.

وعلماء النفس وكُتَّاب الدراما يقولون: إن الزوج فى مثل هذه الحالة يتمنى أن تعرف زوجته الرجل الآخر حتى يصدق أنه على حق، ويهدأ ويستريح، ويشفى من عقده.. ويعذبه أكثر أن يتأخر ظهوره.. أو لا يظهر.

ولأن الرجل الآخر.. المناسب لم يظهر فى حياة مريم، فإن الخشونة سيطرت على تصرفات الدكتور برهان.. والمذهل أن مريم تحملته أكثر مما هو معتاد فى مثل هذه الأحوال.. لقد ردت على القسوة بالحنان.. والتوتر بالنعومة.. والقلق بالأمان.. لكن.. من يقول إن الرجل الغاضب يهدأ بموسيقى بيتهوفن.. إنه فى حاجة إلى صخب موسيقى حسب الله حتى يغطى على صخبه.

والحقيقة أنه لم تكن هناك مشكلة جنسية للدكتور برهان تثير غضبه على هذا النحو.. إن الطب الذى يجيده هذا الطبيب البارع جعل عمر الرجولة لا نهاية له.. على أن مشكلة الدكتور برهان أنه لم يعد يجد الدهشة الأولى فى عين مريم، ولم يعد يجد الرعشة الأولى فى جسدها، ولم يعد يجد الشهقة الأولى فى صوتها.. لقد

كبـرت الطفلة.. أصبـحت امرأة.. وهو أحبهـا لأنها طفلة.. ومع أنه هو الذى جعلها امرأة.. فإنه افتقد طفولتها.. افتقد دهشتها التى كانت تستفز رغبته.

والمذهل.. أنه كان يغيظها بتركها وحيدة.. ساخنة.. ليمارس أمامها العادة السرية.. منتـهى الإهانة.. وكان يسعده أن تحبس دموعهـا، وتبتلع كبرياءها، وتعطى نفسها فى الفراش وكأنها فى قبر، وفى كفن.

والمذهل أيضا.. أنه هو الذى طلقها.

وفى كل مـــرة يكتمل فيـها القمر فى ذكرى زواجها تذهب مـريم إلى شرم الشيخ لتتذكـر ليلتهـــا الأولى.. لكنهــا.. كبـرت.. ولم تعد قادرة على أن تتـمدد عارية فى ضوء القمر.

وهى تفعل ذلك منذ ست سنوات مرت على طلاقها.. فطوال هذه المدة الطويلة لم تعثر على الرجل الآخر.



٥

انتحار امرأة شاذة!

تبدو للوهلة الأولى أنها امرأة تتقن لعبة الأنوثة الخطرة فى سيرك الرجال.. كل ما فيها يشى بذلك.. شعرها أطول من الليل.. وجهها أرق من القمر.. ولونها أبيض من القطن.

عيناها تتوه فيهما سفن كبيرة فى حجم حاملات الطائرات النووية.. يصاب من يراهما بسكتة البريق.. أو ينتحر معلقاً فى رمش من رموشها.. أو يموت غريقاً فى بحر العسل الذى يقطر من شفتيها.

هى لامعة مثل الفضة.. ملساء مثل البللور.. كلبوزة، مربربة مثل قط سيامى.. لاتستطيع مقاومة الطعام.. إنها ضعيفة جداً أمام الموائد المفتوحة.. والأطباق الممدودة.. وهى معذورة.. فالطعام التركى.. أشهى طعام تذوقه البشر، يجرى فى عروقها، ويستقر فى خلاياها.. وقد ورثته أمها عن جدتها.. وهو طعام لا يستطيع زاهد أو راهب أن يمنع نفسه عنه.

ولكنها.. لاتقاوم أى طعام.. من المكرونة الاسباجتى إلى الفول المدمس.. ومن الجبن السويسرى إلى السجق الألمانى.. ومن الفيليه البرتغالى إلى الهامبرجر الأمريكى.. إنها مصابة بجنون الطعام.. تفقد عقلها من رائحته وألوانه وأطباقه.. إن فى أعماقها فراغاً تحشوه بالطعام.. وما إن تمتلئ حتى تشعر بالندم والقلق.. فالجسد النحيل يتمدد.. والجلد المشدود يترهل.. واللحم المنبسط يتلوى.. يصبح مثل تضاريس جنوبى سيناء.. مرتفعات وسهولا.. ومن ثم فإنها كثيراً ما تبدو مثل كيس قطن مغلف بالحرير المطبوع والمنقوش والملون بالأحمر والأخضر والأزرق.

لكن الرجال كانوا يرونها جذابة.. شهية كأنها مصنوعة من بارود سريع الاشتعال.. وما يبرز منها وما يختفى يوحى بأنها سخية كالبحر.. جريئة كالمطر.. مثمرة كالشجر.. قادرة مثل خلية نحل فى الربيع على إفراز غذاء ملكات النحل.. كوين رويال جيلى.

معظم من اقترب منها نطق شعراً.. والشرط الوحيد لنطق الشعر.. أن تقوم بالسحر.. وأن تعتصر قلبك بالشوق والهجر.. وأن تشعر بالظمأ والماء فى متناول شفتيك.. لكنه يتمنع بقطراته.. ولو كان كامل الشناوى قد ارتوى من المرأة التى كتب فيها قصيدة «لاتكذبى» لكنا حرمنا من أجمل وصف لصدمة الخيانة.. «عيناك فى عينيه.. فى شفتيه.. فى كفيه.. فى قدميه.. ويداك ضارعتان.. ترتعشان من لهف عليه».

بدون شرط الحرمان، تصبح أبيات الشعر قرى من كرتون.. قصوراً من رمال.. زهوراً من فخار.. جميلة، ملونة، ناعمة.. ولكن بلا روح.. فالمرأة التى لا تأتى أجمل من المرأة التى تأتى.. والمرأة المثيرة هى المرأة المستحيلة.. والمرأة التى نقول فيها الشعر هى امرأة لم تقبل التعامل معها نثراً.

وقد كان الشعر الذى استوحاه العشاق من ياسمين السايح يتفجر رغبة.. ويتحدث عن امرأة تحرض الرجال على رجولتهم.. وتجعل جزءا ما من أجسامهم يؤلمهم.. يؤرقهم.. يحرقهم.. يشعل النار فى ثيابهم الداخلية.

على أن معظم من اقترب منها لم ينل شيئاً.. وشعر بالهزيمة.. ولم يتجرأ على تغطية فشله بنسج انتصارات وهمية.. فلا أحد يصدق.. بل.. إن الذين سقطوا فى هواها أصابتهم لعنة ما.. إما هاجروا. أو سافروا.. أو انتحروا.. أو تزوجوا أول امرأة قالت فى حماس : أهواك.

شىء ما كان ينقصها لتسعد نفسها.. وتسعد رجلا.. إنها تملك الكثير.. الثروة والشهرة والأناقة والأنوثة والسلطة.. لكنها تفتقد الرغبة فى الرجال.. تراهم كائنات خشنة.. جافة.. كائنات من حجارة.. أو خشب.. أو مسامير.. أو أشواك.. ولا تهتز لو اقتربت من أحدهم.. لو قبلته أو احتضنته كما يحدث كثيراً من باب التحية والمجاملة فى بعض المجتمعات.

إنها نجمة تليفزيونية معروفة.. قدر لها أن تعرف أكثر الرجال وسامة ولمعانا وذكاء وفحولة.. كانوا جميعاً مستعدين لأن يلقوا بأنفسهم تحت قدميها.. لكنها لم تكن لتميل إلا للنساء.

إن فى كل ذكر أنثى.. وفى كل أنثى ذكرا.. والجنين فى رحم أمه يكون فى أيامه الأولى حائراً بين الذكورة والأنوثة.. يكون خلطة لا جنس لها.. ثم يحسم الله الأمر..فيرسم نهدين هنا وشاربا هناك.. ويفك الارتباط بين الجنسين،ويرسم حدود المنطقة المنزوعة السلاح.

لكن.. بالرغم من الفصل بين الجنسين فإن ذكريات الأيام الأولى فى الرحم تبقى فى ذاكرة الذكر والأنثى معاً ، فلا ينسى الذكر أصوله الأنثوية، ولا تنسى الأنثى جذورها الذكورية.. على أن هذه الذاكرة الباهتة لا تعطل أن يكون الرجل رجلاً.. والمرأة امرأة.. إلا إذا حدث خلل ما فى الهرمونات.. أو فى التركيبة النفسية.. والمجتمع قد يكون مسئولاً عن خلل التركيبة النفسية.. عن أن يحلق البعض خارج السرب.. والمجتمع أيضاً هو الذى يزدريهم، ويحتقرهم، ويصفهم بالشذوذ.

وقد نجح بعض هؤلاء فى إجبار المجتمع على احترامه.. إنهم أبدعوا فى الإخراج السينمائى.. والفن التشكيلى.. وكتابة الشعر.. أصبحوا أسماء لامعة.. ينظر الناس إلى أعمالهم لا إلى علاقاتهم.. والمذهل أن بعضهم يدير عمله بصرامة وقوة يعجز عنها غيره.

إن ياسمين السايح تعتبر نفسها مثل الجيوكاندا.. أشهر لوحة فى متحف اللوفر.. التى رسمها فنان إيطاليا فى عصر النهضة ليوناردو دافنشى.. إن من يرى ابتسامة الجيوكاندا.. أو الموناليزا يرى أمامه معجزة المعجزات.. وعنقود عنب تقطفه العين ولا تشبع.. لكن من يعرفها على حقيقتها لا يرى معجزة ولا عنبا..

فصاحبة اللوحة ليست سوى رجل له شوارب، اختفت فى عقل الفنان وغطتها ألوانه الباهتة.

لقد ولدت ياسمين فى بيت متواضع.. الأب ميكانيكى سيارات.. والأم ممرضة.. والبدروم الذى عاشت فيه مع شقيقتها مظلم، ورطب، وتطل نوافذه على شارع لامع، نظيف فى حى هليوبولس.. إنها ترى العالم من أسفل.. لكن العالم لم يكن ليلتفت إليها.. تعودت أن تنظر إلى الأحذية والسيقان قبل أى شىء آخر.. الناس تعرفهم من أحذيتهم.. هذا الرجل «بالى».. وهذا الرجل «باتا».. وهذه المرأة «شارلس جوردون».. وقد تمنت فيما بعد أن تكون مثل إيميلدا ماركوس.. زوجة ديكتاتور الفلبين التى سحبته من رقبته إلى القهر والفساد.. وكانت تملك ٤ آلاف حذاء.. إنها مثل إيميلدا تحب الأحذية أكثر من الرجال.. ولم يصنع بعد الحذاء الذى يليق على قدميها، وساقيها.. ولكنها فى طفولتها لم تكن تضع فى قدميها سوى حذاء رخيص.. لا تغيره إلا كل سنة.. أما ثيابها فلم تكن تعرف مصدرها.. إنها من أولاد الحلال الذين يعطفون على أمها.. ثياب مجهولة النسب.. سكندهاند SECOND HAND مثل كل شىء فى حياتها.. حتى الطعام والفراش والملابس الداخلية.

وحتى الآن لم تشف من مرض اقتراض الثياب.. إن دولابها يمتلئ بالثياب المستوردة من أرقى بيوت الأزياء فى باريس.. لكنها لا تتردد فى اقتراض بلوزة أو فستان أو بلوفر من إحدى معارفها.. ثم لا تعيده.. إنها تشتهى كل ما على أجساد الأخريات.. وقد استغلت شهرتها فى ذلك.. إن الناس تفخر بأن تعطى ما عندها للأثرياء والمشاهير.. من يملك يعطى ويزاد.. كما فى الإنجيل.

وقد قبض عليها وهى تسرق بلوزة من محل «سيلفردج» فى لندن، ثمنها ٥٠

دولاراً، وكان فى حقيبة يدها ٥ آلاف دولار.. ولولا شهرتها.. ولولا براعة القنصل المصرى لكانت فى السجن.. أو لكانت فضيحتها - على الأقل - بجلاجل.

على أن الفقر يقتل الروح أحياناً.. والرطوبة التى تصيب أجسادنا بالرعشة يمكن أن تصيب نفوسنا بالقشعريرة أيضاً.. إن المشهد الذى لا تنساه مشهد الأب وهو يلتهم جسد الأم كل ليلة.. لقد أسقطت الخمر الرخيصة جدران البيت ومشاعر الأب.. فكان يسقط على الأم مثل إناء مكسور.. فيمتلئ جسدها بقطع الزجاج.. فتصرخ من الألم والعذاب.. وتصبح كل الأوضاع سواء.. الوراء يصير أماماً.. والأمام يصير وراء.. والسقف يختلط بالبلاط.. والمارة فى الشارع يمشون على لحمها.. إن الأم تعرف كل ليلة ذروة اليأس.. حيث الأنفاس رصاص.. والعناق قصاص.. والجنس أقسى جزاء.

لقد اختلطت الوحشية بالدموع فى عينى الطفلة.. واختلط الحب بالألم.. والرجل بالقسوة.. إن كل ما يؤلم أصبح رجلاً.. الجرح.. السكين.. التنين.. الموت.. المغص.. ماء النار.. وعندما كبرت لم يعد الرجل هو نابليون.. العاشق، الصبور الذى يضع العالم بين يدى حبيبته من أجل قبلة أو لمسة أو همسة.. وإنما هو نيرون المصاب بجنون العظمة.. الذى يحرق العالم إذا ما أصيب بنزلة برد.. أنفلونزا.

على أن الأم.. الذبيحة.. كانت أكثر صرامة.. إنها لا تتفاهم مع بناتها إلا بشد الشعر والجرجرة على البلاط.. أقل هفوة.. أقل خطأ كان العقاب صارما.. مؤلما.. ولا أحد يفتح فمه.. كل شىء بحساب .. النقود.. الطعام.. الثياب.. مشوار المدرسة.. الكلام.. الأصدقاء.

إن ياسمين تتذكر أنها كانت تمشى فى الشارع مثل الألف.. وأنها كانت لا تلتفت للشبان الذين يمشون وراءها من المدرسة إلى البيت كل

يــوم.. لم تكن تميل إليهم.. وكانت تخشى أن تتأخر دقيقة واحدة وإلا مسحت أمها بها البلاط.

وهى لم تعرف إلا فيما بعد أن طياراً شاباً كان يهواها.. كان يرى الدنيا من ظهرها.. فهو يوصلها صامتا من البيت إلى المدرسة.. ومن المدرسة إلى البيت.. ولم تعرف أنه كان يتشاجر كثيراً مع الذين يعاكسونها.. ولم تعرف أنه قتل فى حرب أكتوبر.. إن رادارها الأنثوى معطل.. لا يلتقط رائحة رجل يحب.. ولا أنفاسه.. ولا ملامحه.. ولكنه لا يكف عن التقاط الثياب والطعام والسيارات والنقود.. إنها لم تمتلك ورقة مالية إلا بعد العشرين.. عندما أصبحت مذيعة فى التليفزيون.. وأول ما اشترته من راتبها الأول.. حذاء.. لكنها ظلت حريصة فى إنفاق النقود.. والأدق أن نقول بخيلة.. ثم يجب أن نضيف أنها تكذب بإتقان الصدق.. ويسعدها كثيراً أن تبكى.. ولكن دموعها مثل دموع التماسيح.. بل إن دموعها تظلم دموع التماسيح.. دموعها أكثر كذبا.

وهى لا تتذكر كيف كبرت.. كيف أخذت شكل النساء.. كيف تحول جسد الطفلة إلى أطلس جغرافيا.. هضاب وسهول وأنهار.. زيت وقمح وصيف وبرق وأمطار.. لم تشعر بنفسها وهى تنسلخ من فراشة إلى امرأة.. فمشاعرها تجاه الرجل لم تتغير.

لم يكن لها فتى أحلام مثل البنات.. لم تقص من المجلات صور رشدى أباظة، أو عمر الشريف.. ولم تكمل فيلما من أفلام العنف التى لعبها فريد شوقى، أو محمود المليجى.. لم تحفظ أغنية عاطفية واحدة.. لكنها.. لم تكن تكره عبد الحليم حافظ.. إنه رقيق، ناعم، مهزوم فى الحب.. طريقه مسدود، مسدود.. وأحلامه تغرق، تغرق.. لاهو شرس فى الحب ولا هو يقدر على الافتراس.. لا هو يعذب المرأة ولا هو يذبحها فى الفراش.

على أنها تفضل مايكل جاكسون.. إنه مخنث.. أجرى جراحة غيرت لونه

وحركت مفاصله.. وجعلته فى المنطقة المشتركة بين الرجل والمرأة.. والمذهل أنه أصبح الآن «النموذج» الذى تُجن به البنات.. ويقلده الشبان فى كلامه ومشيته، وثيابه، وميوعته.. ومثله المطرب «بوى جورج».. وقبلهما كان فريق البيتلز.. أو الخنافس.

«لقد أرسى مايكل جاكسون قاعدة جديدة فى الجاذبية.. «الجاذبية المخنثة».. والعبارة لمجلة «لايف» الأمريكية.. أشهر مجلة مصورة.. وقد نشرتها فى سنة ١٩٨٤، ومايكل جاكسون فى قمته.

فى الوقت نفسه صُدم العالم عندما عرف أن النجم الأمريكى روك هدسون - معبود النساء ورمز الفحولة على الشاشة - كان شاذاً جنسياً.. وقد فضحه مرض الإيدز الذى مات به.. وقلب مقاييس الفتى الأول.. فليس كل ما يبرق ذهباً.. وما نراه ماسا فى ضوء السينما يمكن أن يكون زجاجا فى ضوء الشمس.

ويبدو أن هذه الصدمة جعلت السينما الأمريكية تقترب، وتخترق بجرأة تابو.. أو محرم الشذوذ.. إن النجم آل باتشينو لعب دور شاب شاذ يسرق بنكا ليحصل على المال اللازم لتغيير جنس صديقه فى فيلم «ظهر يوم حار».. وأنطونى هوبكنز لعب دور سفاح نساء شاذ فى فيلم «صمت الحملان».. ولعبت شارون ستون دور امرأة شاذة، لكنها تحب الرجل أيضاً فى فيلم «غريزة أساسية».

لكن.. السينما لا تتجاوز الواقع.. والواقع أن العالم يشهد الآن ثورة فى الحريات الخاصة جداً.. بما فى ذلك حرية أن يعلن الإنسان عن نفسه وعما بداخله مهما كان شاذاً.. أو غير مألوف.

إن العالم السرى والخفى للشواذ فتح أبوابه، وخرج من فيه بالملايين يطالبون بحقوقهم، ويضغطون على رجال السياسة والأحزاب حتى تعترف المجتمعات بهم وتعاملهم باحترام.. فليس ذنبهم أنهم هكذا.. وقد سُئل مخرج سينمائى معروف:

لماذا أنت شاذ؟.. فقال: هل جربتم ما أنا فيه.. جربوا واحكموا بأنفسكم!.. وكانت إجابة قاطعة.. فلا أحد مستعد أن يجرب.. أو يتنازل عن طبيعته.

وللشواذ فى كل مكان نواد وملاه وبارات وجمعيات خاصة تدافع عن حقوقهم النفسية والصحية.. ولهم مؤتمر عام يعقده الرجال منهم فى لندن كل سنة.. وآخر تعقده النساء الشاذات فى سان فرانسيسكو.. وهم كتلة أصوات انتخابية يعمل حكام الدول الديمقراطية لها ألف حساب.. وقد ساعدوا الرئيس الأمريكى بيل كلينتون للوصول إلى البيت الأبيض.. لكنه لم يستطع أن يرد لهم الدين ويدخلهم الجيش.. ولا يزال القانون الأمريكى يحرم عليهم تولى مناصب قيادية أكثر من رئيس حى حتى لا يستغل أحد نقطة الضعف.

على أن الديمقراطية ليست حرية الشذوذ فقط.. إنها أيضاً حرية المعرفة.. والكلمة.. وكشف الفساد.. وتداول السلطة.. والبحث العلمى.. واحترام آدمية البشر.. لا كلاب بوليسية تشم أفكارك.. ولا أجهزة تصنت تسجل أحلامك.. ولا ضابط مباحث ينام فى الفراش بينك وبين زوجتك.. ولا أحد يفرق بينكما.

ولأن لا أحد منا يقول ما بداخله فإن ياسمين ظلت محتفظة بسرها وسر من تعرف من النساء.. إنهن فى شهرتها.. نجمات سينما.. وسيدات مجتمع.. وأميرات جئن من زمن الوحدة والبرودة.

إنه عالم يمتلئ بالحب والألم والمتعة والغيرة وصراع وقسوة وعذاب وهجر وفراق.. الفرق أن طرفيه من النوع نفسه.. ويمكن أن يكون الرجل شاذاً وزوجاً فى وقت واحد.. ويمكن أن تتعامل امرأة مع رجل وامرأة فى وقت واحد.

وقد كانت ياسمين من هذا النوع.. لقد تزوجت وأنجبت.. ثم تعذبت وطُلقت.

كان زوجها ثرياً.. رجل أعمال ورث اسم أبيه الذى كان من الضباط الأحرار ثم

أصبح وزيراً.. وعندما خرج من السلطة كانت أموال الحراسة التى وضع يده عليها تكفى لأن يدخل بها أبناؤه عالم الثروة.. ومن حسن حظها أن ذلك جرى فى وقت أصبحت فيه الثروة سلطة.

إن الزوج كان يابسا.. مالحا.. غليظا.. إنه صورة أخرى من الأب.. لكنه ثرى، والأب معدم.. أنيق والأب مهلهل.. لامع.. والأب مظلم.. ومنذ الليلة الأولى عرفت مشاعر الخراف التى تذبح والعجول التى تنتظر السلخ.. وقد مارس زوجها معها الرجولة كما يفهمها.. الكسر.. والحرق.. والذوبان فى حامض العرق.

لقد انتقلت من الأب إلى الزوج.. من معتقل إلى معتقل.. من رجل مباحث إلى رجل مباحث.. وأحست أن فراشها منجد بالملح والنحاس.. وليس بالقطن وريش العصافير.

وقد اعترفت لى أنها تشعر بأن صدرها يختنق.. ولحمها يتمزق بسكين.. وكأنها انحشرت فى باب.. وأنها لو أطفأت النور شعرت بأنها فى مغارة تسكنها «وطاويط».. ولو أشعلت شمعة، شعرت بأنها فى معركة مع أشباح وعفاريت.. ولو أضاءت النور، شعرت بأنها مستسلمة لدب يلعب معها لعبة المصارعة الحرة.

وأنا أعرف أنها عاشت معه ثمانى سنوات.. وهى تبرر ذلك بأنها خشيت على شهرتها من الطلاق المبكر.. إنها تخرج للناس على شاشة التليفزيون لتحدثهم عن البراءة، والصبر، والتواضع، وتحمل الصعاب.. فكيف تتصرف على غير ما تقول.. إن الصورة التى يرى بها الناس المشاهير تحكم عليهم بقناع من الشمع.. وتحرمهم من التعبير عما فى داخلهم بشجاعة.. فعيون الناس لهم بالمرصاد.. وجدران بيوتهم من زجاج.

لكن .. الحقيقة أنها احتملت زوجها حتى جمعت منه مليون جنيه.. إن النقود تشعرها بالأمان.. لكنه أمان بلا سقف.. بلا حدود.. وقد تعذبت كثيراً برجال حلموا

بها واقتربوا منها لأنها كانت تخدر جسدها وتسكن عذابها بخاتم ألماظ.. أو كوليه من كارتيه.. أو فيللا فى مارينا فى الساحل الشمالى.. وأخرى فى الغردقة.. وتناثرت شائعات عن علاقاتها بمقاول ثرى.. ومدير بنك.. ومحافظ سابق.. وصحفى معروف.. إن النقود تأخذ أشكالا أخرى فى كثير من الأحيان غير الأوراق التى يوقع عليها محافظ البنك المركزى.. بل إن الشائعات رشحتها للزواج من أمير عربى له نفوذ فى بلاده.. وهى لا تنفى ولا تؤكد.. إنها مستفيدة حتى من هذا النوع من الشائعات.

وفى كل مرة كانت تتعذب برجل تهرب إلى صديقتها.. لقد تعرفت عليها بعد أسبوع من زواجها.. التقتا فى الأسانسير.. شعرت أن شيئاً ما يُولد فى أعماقها وكيانها قبل أن يتوقف الأسانسير لتخرج منه جارتها.. إن جارتها شابة.. أنيقة.. تعيش بمفردها.. تعمل مضيفة.. وقد فوجئت بها تقدم لها زجاجة برفان صارخ الرائحة.. وقبل أن تفتحها فوجئت بها ترش البرفان عليها.. حتى فرغت الزجاجة.. ثم جاءت بزجاجة ثانية.. وثالثة.. وخامسة.. لقد غرقت فى البرفان.. وعرفت فى ذلك اليوم طعما آخر للجنس شعرت بالخدر لأول مرة.. ونامت نوما عميقا.

اكتشفت مناجم المتعة.. شدتها الجاذبية الأرضية.. أو الجاذبية الأنثوية.. لم تعد تتعذب بنزواتها.. لم تعد تعقمها.. لم تعد تتمنى الختان القسرى.. وعرفت الحب الحقيقى.. والعشق الحقيقى الذى لم تعرفه ولم تنتظره.. واستمتعت لأول مرة بالسينما والأغانى والمسارح والسجائر والقهوة الإكسبرسو.

لقد أخذت نصيبها من القسوة وأصبحت فى حاجة إلى الحنان، وأخذت نصيبها من الذبح وأصبحت فى حاجة إلى مرهم للجراح.. وأخذت نصيبها من الصرامة، وأصبحت فى حاجة إلى النعومة.. وهى لم تجد ما تمنته إلا فى أحضان جارتها.. عشيقتها.. وقررت أن تعيش أمام المجتمع بوجه الأنثى التى يهواها الرجال.. وتعيش

بوجه الأنثى التى تهوى الأنثى بعيداً عن الناس والأضواء والظلال.. إنها چيوكاندا أخرى.. على أن العذاب ليس رجلاً فقط.. وإنما امرأة أحياناً.. فذات صباح قرأت فى الصحف أن صديقتها قتلت عارية فى شقتها.. وأن القاتل امرأة على علاقة شاذة بالقتيلة.. كانت ياسمين فى باريس لتشترى ثيابا لبرنامجها الجديد.. وعندما قرأت الخبر عرفت طعم الخيانة.. وبكت .. وتشنجت.. وانهارت.. ودخلت مصحة للأمراض النفسية والعصبية لمدة شهرين وعندما عادت للقاهرة نشرت الصحف أنها كانت تجرى جراحة الزائدة الدودية.



٦

ولدت فى
برج اللهب

ولدت فى برج اللهب.. بـرج المجانين بالـتمـيـز.. الذين يسـرقون الحـمـاس من الشمس.. والبـريق من النهار.. والكحل من الليل.. والضوء من القـمر.. والغضب من البـحر.. والنعومـة من الحرير.. والحكـمة من الشجـر.. والعناد من الصـحراء.. والعقل من المطبعة.. والأنوثة من المانجو.

إنها امرأة من النـوع الموصـوف فى تعاويذ السـحر.. المـرسوم فى قصائد الشعر.. المطبوع على الأغلفة الملونة.. المنحوت على مـعابد التسامى بالجنس الهندية.. حيث المرأة رمـانـة وعـود نعناع وخلخـال فـضـة.. حـيـث التـوابـل والكـارى والشطة وحـرارة النـســاء وسـخــونة الرجــال أدت إلـى وجـود خط الاسـتــواء.. خط الغليـان.. والبركان.

لكنهـا.. لم تكن تعـرف أنهـا امـرأة من خط الاسـتـواء.. امـرأة توزع الفـصـول والثمـار.. الأحلام والأحـزان.. الأيام والرجال.. لم تكن تـعرف ذلك.. فهـى غابة برية لم يمـسـسـهـا بشـر.. منجم من الأنوثة لا يعـرف قيـمة مـا فى بطنه من معـادن نفيسة.. كـان يشغلها أكثر استيـعاب الدنيا.. فهم قوانينها.. إنهـا تتعامل بدهشة مع كل شىء.. أفلام السـينما.. حلقات الذكر.. رصاص الإرهـاب.. صلاة التراويح.. مـقالات الصـحف.. دخان السـجائر.. مـقاعـد الدرس.. مسـاكن الإيواء.. سطوة السلطة.. مقاومة المعارضة.. وضرب النساء.

وهى منذ طفولتها تعشـق التفوق.. وتقدر عليه.. إنه لعبتها وخـاتم فى إصبعها.. وإسورة حـول معصـمهـا، ودبوس ملون فى شعرها.. إن التـفوق مـثل جواد نارى جامـح لا يمتطيه إلا من هو أشد منـه عنادا.. وهى عنيدة.. وجريئة.. وبريئة.. ثم.. إن هذا الجـواد لا يُروض مـن مـرة واحـدة.. ويلقى بمــن على ظهـره لو اسـتـرخى قليلاً.. وهى فى حالة تحفـز دائم.. وانتباه يقظ.. رغم أنها أصغر أستـاذة اقتصاد فى الجامعة الأمريكية.

لقد حصلت على الدكتوراة من جامعة اكسفورد.. الجامعة التى يتخرج فيها السياسيون البريطانيون.. الذين حكموا العالم من لندن إلى نيودلهى.. كانت طالبة معجزة.. عمرها كان ٣٠ سنة عندما حصلت على الدكتوراة.. ولو حصلت عليها فى القاهرة فى هذا العمر لتغامز زملاؤها.. فنحن لا نصدق أن المرأة الجميلة متفوقة أيضاً.. ولو تفوقت فإنها لابد أن تكون دفعت الثمن.. والثمن معروف.. عرق الجسد.. لاعرق الجبين.

لكنها.. لم تكن مشغولة إلا بعرق الفكر.. أن تكون أشطر تلميذة فى العالم.. لم يكن يشغلها أن تكون فى جاذبية يسرا مع أنها فى جاذبية يسرا.. ولا فى رشاقة آثار الحكيم مع أنها فى رشاقة آثار الحكيم.. ولا فى شقاوة ليلى علوى مع أنها فى شقاوة ليلى علوى.. إنها لا تعرف أنها امرأة تفقدك الذاكرة.. فتنسى معها كل من عرفت من النساء.. كل من قبّلت، واشتهيت، وأحببت.. إنك معها تبدأ من أول السطر.. تنظر فى عينيها فتقرأ موسوعة الفلك.. تتأمل صدرها فتقرأ مغامرات المكتشفين والرحالة.. تواجه كيانها فتقرأ كل ماكُتب عن عالم البحار.. على أنها لا تعرف ذلك.

فالزهرة فى حاجة لمن يشمها حتى تفرز عطرها.. والمركب لا تكتشف خصائصها إلا وسط الأمواج.. والألوان لا تصل إلى جمالها إلا بريشة فنان.. إن تفاعل الأشياء بالأشياء.. والبشر بالبشر هو سر جاذبية الحياة.. هو سر وجودنا.

وهى لم تحب ابن الجيران.. ولم تسرح مع عبدالحليم حافظ وهو يغنى.. وإن أعجبت بحسين فهمى.. إنها تحب الرجل الأنيق.. لكنها لم تجن مثل المراهقات.. لم تعلق صورته على صدرها.. ولم تطارده بالتليفونات.. وقد تصورت أنها تحب زميلها فى المدرسة الثانوية.. لكنها اكتشفت أنها مشدودة لشطارته.. فقد كانا يتنافسان على المركز الأول فى الدراسة.. وفيما بعد اكتشفت

أنه بارد.. وثقيل الظل.. ولا يختلف كثيراً عن جهاز الكومبيوتر الذى برع فى صياغة برامجه.. إن الذكاء بدون مشاعر مناسبة يحولنا إلى ماكينات.. ماكينة نقود عندما نعمل.. ماكينة إنجاب عندما نتزوج.. ماكينة قتل عندما نتطرف ونخاصم المجتمع ولا نجد مكاناً فيه.

إن معظم أمراء الجماعات الدينية المتطرفة تخرجوا فى كليات الطب والهندسة والصيدلة.. تعلموا مسائل الحساب ومعادلات الكيمياء الثابتة.. وعندما فشلوا فى التعامل بها فى مجتمع معقد من الرغبات والحاجات والنبوءات والمخابرات، انقلبوا عليه.. وقرروا حرقه ونفيه والتخلص منه ..إن الطبيب.. الشاعر يعالج مرضاه أفضل ..والمهندس الذى يقرأ التاريخ لا يغش فى الأسمنت ..والصيدلى الذى يستوعب التركيبة البشرية لا يتاجر فى الأدوية المهربة.

وقد استوعبت نادية صبرى ذلك.. فللدراسة وقت.. وللحياة العامة وقت.. ولصديقاتها وقت.. وللسفر وقت.. ولقراءة الأدب وقت.. إنها مشغولة دائماً.. تخرج من محاضرة لتدخل ندوة.. تنتهى من رواية لتكتب مقالة.. وغالباً ما تجد وقتاً للتضامن مع الدكتور نصر أبو زيد وزوجته الدكتورة ابتهال يونس اللذين فرقتهما المحكمة لأنه تجرأ واجتهد وخرج على المألوف.

لكنها لاتجد وقتا للحب لأنها لم تجد من تحب.. بل من الصعب أن تجد من تحب.. إن المرأة الرومانسية مثل الشموع.. النهمة للمعرفة مثل الفراشة.. القادرة على الاستقلال مثل النخيل.. الجذابة مثل القمر.. لا تجد عادة رجلاً يناسبها.. والحب ليس مجرد رجل وامرأة فى فراش ضيق، وإنما هو أيضاً مساحة رحبة من الحياة المشتركة بين رجل وامرأة.. يشربان القهوة.. ويشتركان فى صحيفة.. ويلتقيان فى الأفكار وصالات الترانزيت.. والرجل عادة لا يحتمل طموح المرأة.. يكفى أن يحتمل طموحه.. ولا يحتمل ذكاء المرأة.. فهو يخلع ذكاءه

في البيت.. وقد أقنع المرأة بأنها ملكة.. لكنها ملكة على أسرة صغيرة.. وفي غيابه.. فحكم العالم له.. ثم.. إنه قادر في أي وقت على نزع التاج.. وسحب السلطة.. ومرمطتها في محاكم الأحوال الشخصية.. ولا فرق بين رجل مثقف ورجل جاهل.. رجل أصولي ورجل تقدمي.. رجل وُلد في الزمالك ورجل وُلد في دشنا.. رجل تعلم في أوروبا ورجل تعلم في النوبة.. إنها مشكلة مجتمع وليست مشكلة رجل وامرأة.

مجتمع لا يقدر على كسر الأصنام.. وتبديد الأوهام.. وإسقاط سلطة أهل الكهف.. والرجل الذي يخرج عليه يتهم في رجولته.. فهو ليس رجلاً.. والمرأة التي تطالب بالمساواة إما فاجرة أو عاهرة.. أو شاذة أو معقدة.. والمرأة التي تطالب بالحرية.. امرأة تريد أن تمشي على حل شعرها.. تسهر.. وتسكر.. وتعود للبيت في وش الفجر ومعها قبيلة من الرجال.

وفي ذات صباح قررت نادية صبري أن تحب وتتزوج.. إنها قادرة على تنفيذ ماتريد.. وبشروطها.. قررت أن تختار.. إنها مثل سمكة ملونة.. تسبح في بحر المشاهير.. صحافيون.. ونجوم.. وسياسيون.. وأثرياء.. وأساتذة في الجامعة.. ومعظم من تراهم يسقط في هواها.. ولا يصدق أن امرأة جذابة تضيع جمالها وأنوثتها هدراً في متاهات الحياة العامة وغبار العالم الثالث.. مثلها خسارة في البهدلة.

ولقد لفت نظرها.. أو قررت أن يلفت نظرها.. إنه أنيق.. جذاب.. يجيد ترتيب كلماته.. يظهر فجأة.. يختفي فجأة.. ويجلس في الندوات التي تدافع عن حرية الفكر والتعبير في الصفوف الأخيرة.. وهو هادئ.. لا يدخن.. ولا يتكلم إلا إذا دعاه أحد للكلام.. وعرفت أنه طبيب نفساني لامع.. من الجيل الذي خرج إلى أوروبا في السبعينيات ليعود إلى مصر حاملاً الأفكار الجديدة في الطب..

والمعلومات.. والترجمة.. والبنوك.. والعلاقات الدولية.. إن عزلة مصر فى الستينيات خلقت فراغاً أشبه بالصحراء.. ومن ثم جاء هؤلاء يشغلونه.. فلمعوا مبكراً.. وأثروا مبكراً .. وأصبحوا نجوماً فى المجتمع مثل نجوم السينما والكرة.

لم يكن من الصعب أن يلتفت إليها.. فالكل يلتفت إليها.. الكل يريد أن يمضغها ويقشرها.. ويمتص رحيقها.. تعمدت أن تجلس إلى جواره بعد أن اطمأنت على أن عطرها منعش.. و«روچها» صارخ.. وجزءا من ساقيها مكشوف، ولكن دون إثارة.. إن المرأة هى المرأة.. من مارجريت تاتشر إلى مارلين مونرو.. ومن أنديرا غاندى إلى نادية صبرى.

تكلما فى الحرية.. ثم فى الحياة.. ثم فى الحب.. حدثها عن ضرورة التوحد بين الفكر والسلوك.. والعقل والجنون.. والظاهر والباطن.. وحدثته عن أسرتها.. وطفولتها.. وأيام الدراسة فى الغربة.. وكيفية صياغة الدنيا برؤية امرأة.. إنها لم تقل شعراً .. وإنما كانت تشرح واقعاً جديداً يحاول أن يفرض وجوده، وينقلب على سلطان الرجل.. اسمه«Feminism» «فيمنيزم».. والكلمة لا ترجمة دقيقة لها فى اللغة العربية.. نسائية.. نسوانية.. أو تعنى المساواة.. أو تغيير أوضاع المرأة.. إن كل امرأة وكل جمعية لها مفهومها الخاص للكلمة.. وهى أيضاً لها مفهومها.

على أنه لم ينشغل كثيراً بهذه المشكلة المعقدة التى على النساء أن يحسمنها قبل أن يواجهن الرجال.. كل ما اطمأن عليه أنها لا تكره الرجال.. وليست معقدة منهم.. ولا ترفض أن تنجب أطفالاً.. وليست شاذة.. سحاقية.. «ليزبيان» «Lesbian».. أى لا تهوى إلا امرأة مثلها.

دعاها للعشاء فى «بيانو بيانو».. ملتقى الأرستقراطية الجديدة فى القاهرة.. حيث نجوم السينما.. ورجال الأعمال.. وأثرياء الأطباء.. وصناع الشهرة.. إنهم

يستمتعون بالطعام والبيانو، ووجودهم فى مجتمع المشاهير.. وهو لم يتناول طعامه.. تناولها هى بعينيه.. وأنفاسه.. وكلماته.. لقد حوله الحب من طبيب إلى شاعر.. قال لها: إن الزمن يتوقف عندها.. ويبدأ عندها.. وأنه معها يشعر بأنه خارج الزمان.. لا علاقة له بمن حوله فى المكان.. «أنت المرأة الأخيرة».. «أنت الحب الأخير».. ولم ينته الكلام.

وهى تقول إنها أحبت.. والأدق.. أنها أحبت الطريقة التى يحبها بها.. إننا كثيراً ما نحب من يحبنا.. نأخذ منه ونعطيه.. مثل القمر الذى يعكس ضوء الشمس.

وفى تلك الليلة قررت أن تعرف ما لا تعرف.. أن تكتشف مناجمها.. أن تكون مثل قارة أمريكا.. فقد جاء كولومبس.. لقد خرجت من «بيانو بيانو» لتدخل ديسكوتيك.. أن تحصل على المتعة واقفة بعد أن جربتها جالسة.. وقد شعر هو ببعض الارتباك.. فالموسيقى صاخبة لا تناسبه.. والشبان يرتدون الجينز.. ويتصرفون بحرية.. وهو تجاوز الأربعين.. ويحرص على البايب والكرافتة.. لكنها معه.. تمنحه الدهشة.. وتعيد إليه الجرأة.. وتلخبط - مثل قط شقى - خيوط الغزل وخيوط الحياة.

لقد جاراها فى الرقص السريع المجنون.. وجاراها فى الإيمان بقضية المرأة.. إن المرأة ليست مثل القمر، لكنها القمر نفسه.. وليست صورة من البحر، لكنها البحر نفسه.. وهو يعرف هذا البحر جيدا.. فكثيرا ما غرق فيه.. وهو يعرف النار التى تخرج منهما وهما يرقصان.. فكثيرا ما احترق بها.. وهو يؤمن بأن المرأة ليست كائنا يسهل فهمه أو تعليبه أو إخضاعه لقوانين المختبرات.. إنها مجموعة من المشاعر والملاحظات النشطة التى لا تتوقف عن التفاعل.. لا تستطيع أن تصفها إلا فى لحظة واحدة.. ففى اللحظة التالية هناك تفاعل آخر.. ووصف مختلف.. لو تعاملت معها بحنان استكانت بين يديك.. ولو

تعـاملت مـعـها كفلـة مـلأت ساعاتك بالعطر.. ولـو استعـملت معهـا السكين.. وجدت الدماء تغطى جسدك وثيابك.

وقد تعامل معـها كأنثى.. فخلصت جسدها من أميـته.. وخلصت جسده من كل الآثار والأطلال والبقايا المتراكمة عليه.. إن الطفل عندما يكتشف الكلام يملأ الدنيا صخبا.. والجسد عندمـا يكتشف النطق يمـلأ ما حوله تعبيـرا.. لقد تكلم جسدها بلغات لا يدرسـها الطلبة فى كلية الألسن العليـا.. تكلم لغة الريح التى تصـفر فى الصحراء.. وتكلم لغة الأم التى تخرج طفلها للحياة.. وتكلم لغة أشعة القمر، وهى توشوش أوراق الشـجر.. وتكلم لغة قطة جـائعة تموء فى متـجر سمك.. إن المتـعة التى كانت جالسة.. ثم واقفة.. أصبحت راقدة.

فى اليوم التالى تناولا الإفطار فى فندق «هيلتون».. وبينما كانت هى الدنيا بألوان صارخـة كان هو يدخن الـبايب.. وبينمـا هى تلتهم طبق البـيض بالسجق كـان هو يرتشف فنجان قهوته.. وبينما هى تشرب قهوتها وتنظر فى عينيه بتركيز وهيام، كان هو يسـجل بعض الملاحظات فى ورقة صـفراء صـغيـرة.. وقد خرجت مـن كهف الصمت لتقول لـه فجأة ولأول مرة: أحبك.. ومن جانبه لم يتـردد فى أن يقول لها: أريد أن أتزوجك.. وكادت أن تطير فى الهواء.

وقـد تنازلت عن أحـلامهـا فى ليلة التـرانزيت.. الليـلة التى تنقلنا من حـال إلى حال.. لا طرحة مرصعة بالماس واللؤلؤ.. لا فستـان أبيض يجعلها أميرة من أميرات الأحلام.. سندريللا قبل منتـصف الليل.. لا زفة بالدفوف والعوالم تتمـخطر عليها الحلوة.. الزينة.. لا ملح يرش فى عـين الحسـود.. لا بخور عـود.. وقد أقنعـها بأن الزواج الساكت من ذهب.. مع أنها تحب الفضة بجنون.

وعـاشت إلى جـــواره.. لم يتـخطهـا.. لـم يتـجـاوزها.. لم يتـخـذ قـرارا دون استشارتها.. كان يقول لـها دائما: إن الحب تعويض عن القبح الذى يُفرض علينا..

الحب يجعلنا نتذكر تفتح الزهرة، ننسى انفجار قنبلة.. يجعلنا ندافع عن الحرية دون أن نخشى المعتقلات.. يجعلنا نهوى الليل مع أنه وقت السرقة والنهب والخوف.

وقد أسعدها ذلك كثيرا.. أن تعاشر رجلاً تحرر من عقد النرجسية والسيطرة وكسر عنق وأضلاع المرأة.. إن زوجها غسل دماغه من مخلفات السبايا والجوارى.. ليس مثل غيره من الرجال.. من وفرة النساء لا يشعر بتفاصيل بضاعته مثل تجار الذرة والأرز والخردة.. والسيارات المستعملة.

وأسعدها أكثر.. أنها لم تتناقض مع نفسها.. فهى لم تفكر على طريقتها، وتتزوج على طريقة جدتها كما تفعل المرأة غالبا.. وسر هذا التناقض هو أنه نادرا ما نجد امرأة دفعت ثمن حريتها.. والتى تتكلم عن الحرية لاتطبقها.. والتى تطبقها لاتتكلم عنها.. والحقوق التى حصلت عليها المرأة كانت بقرارات جمهورية من رجل.. والذى يصدر قرارا يمكن أن يلغيه بقرار آخر.. والذى يعطى، سهل جدا أن يأخذ.. لقد دخلت «كوتة» من النساء البرلمان فى مصر بقرار جمهورى، وخرجن بقرار مضاد.. ولم تعترض امرأة واحدة.. وصدر قانون للأحوال الشخصية يمنح المرأة مزيدا من الحقوق والضمانات، ثم ألغى بقرار آخر.. ولم تعترض جمعية نسائية واحدة.. بل إن المرأة نفسها ترفض فى غالبية الأحيان حريتها.. إنها تتعلم ثم ترفض أن تعمل.. تعتبر العمل بهدلة.. ولو أجبرت على العمل فذلك لسبب وحيد هو الحاجة للمال.. وغالبية النساء ترى أن الضرب ليس إذلالا لكرامتها.. والبنت التى ترفض الختان هى نفسها الأم التى تفرض الختان على ابنتها.. إن مشكلة المرأة هى مشكلة المرأة قبل الرجل أحيانا.

على أن الحياة.. التى عودتنا على المفاجأة الميلودرامية لم تترك نادية صبرى فى سعادتها.. إنها لم تسأل زوجها الطبيب المتفتح المشهور: لماذا لم تتزوج حتى

الآن؟.. والأدق أن يكون السؤال: هل تزوجت!.. أو هل أنت متزوج؟ لكنه الحب الذى يعمى الأبصار.. ويضعنا فى قلب الإعصار.. لكنها البراءة.. والطفولية.. والمسافة الكبيرة بين ذكاء العقل وخبرة التجارب.

لقد تعود زوجها أن يسافر يوما فى الأسبوع إلى قريته ليعالج أهل قريته مجانا.. ويرد الدين للأرض التى نبت فيها.. وهو يعالجهم من الأمراض السهل التعامل معها.. وليس من الأمراض النفسية التى تخصص فيها.. وكان يحمل فى كل مرة حقيبة من الأدوية ليوزعها على أهل قريته.. وهو لم يكن يكذب.. لكنه لم يقل إنه متزوج من إحدى قريباته.. وأن زوجته الفلاحة التى لا تفك الخط تعيش فى البيت الذى ولد فيه بمفردها.. فهى لم تنجب.. والأدق أنه هو الذى لا ينجب.. إنه لا يخفى زوجته بعيدا فى قريته.. وإنما يخفى عقدته.

لم يكن من الصعب أن تعرف نادية الحقيقة.. فهناك دائما متطوعون من «أولاد الحلال» يتكفلون بمثل هذه الأمور.. وقد أرادت أن ترى بنفسها.. قادت سيارتها وهى غاضبة.. تغلى.. تفور.. يخرج الشياط منها.. إن أصعب لحظة هى التى تكتشف فيها المرأة أن زوجها متزوج، وأنه خدعها.. لكنها.. حتى وصلت إلى قريته لم تكن تعرف حقيقة عقدته.. وفى الأفلام الميلودرامية يجب أن تدخل عليهما، وهما فى الفراش.. ولا مفر من الاعتراف بواقعية هذه الأفلام أحيانا.. فهذا بالضبط ما حدث.. لكن.. المفاجأة.. المفاجأة هى أن المرأة الأخرى كانت عارية فى الفراش.. شكلها تماما.. تكاد تكون نسخة فوتو كوبى منها.. الشعر.. الجسم.. الابتسامة.. اللون.. الروح.. المشية.. الغضب.. إنها أمام المرآة.. لكنها مرآة غريبة.. تقف أمامها بملابسها فتجد صورتها عارية.

إننى لم أكن لأصدق ما ترويه نادية صبرى لو لم أكن أعرف زوجها جيدا.. إنه من نجوم المجتمع.. ومن نجوم التليفزيون الذين يتحدثون عن الصحة النفسية.. ولا تخلو الجرائد من صورته وآرائه.. إنه يكشف دائما الجانب النفسى من متاعب الناس والمجتمع.. والناس تحبه وتصدقه وتثق فيه.

المشهد كان خياليا.. لا ترى مثله فى السينما.. ولو كتب مثله وحيد حامد، أو أسامة أنور عكاشة، أو أى كاتب سيناريو آخر لاتهمناه بالمبالغة والخرافة واختراع واقع غير موجود.

لقد انفجرت نادية صبرى رصاصا.. وبخارا.. حريقا.. ورمادا.. قالت ما يقال عادة.. لكن.. صورتها الأخرى.. الفلاحة.. الأمية.. العارية.. لم تفتح فمها كثيرا.. كل ما قالته فى هدوء:

ـ لا تنسى يا هانم.. أنك أنت التى أخذت زوجى منى!

وأسقط فى يد أستاذة الاقتصاد بالجامعة الأمريكية.. وكأنها جمرة ألقيت فى ماء.. إنها هى المرأة الأخرى.. الزوجة الثانية، وليست قرينتها التى بدت لها مثل الجنية.

على أن الصدمة.. الصدمة هى ما فعله زوجها «الجنتلمان».. لقد نمت فى ثوان أظافره المقصوصة.. وأنيابه المهذبة.. وعضلاته المسترخية.. انقلب فجأة إلى «رجل أخضر».. ديناصور هائج.. قفز من فراشه عاريا.. ومثل فهد شرس راح يمزق ثيابها وشعرها ولحمها.. وكيانها.

لم يكن الطلاق سهلا.. إنه يحبها.. لم ينزل بعد من فوق حصان دهشتها.. لم يتحول حبها إلى عادة.. وروتين.. ومؤسسة.. ووظيفة.. لم تزل الأسئلة التى يطرحها حبها.. أكثر من الأجوبة التى حصل عليها.. وهى تحبه.. وتفتقده.. إنه

الرجل الذى استخرج الماس من أنوثتها.. هو الذى حولها إلى رماد.. وكثيرا ما استسلمت له.. رغم الصدمة والقسوة والإهانة استسلمت له.. لكنها.. كانت تشعر بعد الاسترخاء بالندم.. وقد أصبحت ممزقة بين عقلها وجسدها.. بين إحساسها بنفسها، وانهيارها أمام نفسها.. بين ما تؤمن به، وما تقع فيه.

لاتزال ممزقة.

ولاتزال قضية الطلاق التى رفعتها أمام المحاكم.



٧

الحب بسرعة
١٥٠ كيلو متراً

بالضبط.. بالضبط.. لا تعرف من تكون؟.. لا تعرف كيف تتخلص من الهواجس والكوابيس والظنون؟.. لكنها.. تعرف أننا يجب أن نعيش الحياة بجنون؟ مفاتيح حزنها.. مفاتيح نفسها. إنها.. نوع من الحزن السعيد.

في الطريق السريع.. فري واي الذى يربط بين لوس أنجلوس.. مدينة الشهرة والثروة.. وبين لاس فيجاس.. مدينة القمار والانتحار.. سخنت الفكرة في رأسها.. وفارت الدماء في عروقها.. وغضب العرق فى مسامها.. وضاقت ثيابها عليها فجأة.. فراحت تخلعها.. ثم.. قفزت على حجر صديقها.. وراحت تمارس الحب معه فى السيارة التى كانت تنطلق بسرعة مجنونة.

لقد رأت المشهد فى فيلم سينمائى، فقررت أن تجربه.. أن تحول الخيال الملون المتدفق إلى واقع متهور، متوتر.. إلى أنفاس وعرق وصراخ ونشوة ورغبة فى الانتحار.. فقد راحت السيارة تترنح.. وخرجت بأعجوبة من مائة مصيدة للموت.

إن الأمريكيين حولوا السيارة إلى بيت متحرك على أربع عجلات كاوتشوك منفوخة بالهواء.. فهم يأكلون، ويطبخون، ويناموت، ويحلقون، ويعملون وهم يقودون سياراتهم.. وهى جربت ذلك.. لكنها لم تجرب ممارسة الحب فى السيارة.. فوق عجلات تهتز على الأسفلت بسرعة ١٥٠ كيلو مترا فى الساعة.

فى تلك اللحظة كانت السيارة تمتلئ بـ «نواح الچيتار». قصيدة لوركا.. كانت تغنيها مطربة غير مشهورة.. نصفها أسبانى والنصف الآخر روسى.. جمعت بين اللهب والجليد.. بين الشمس والفودكا.. ونزف صوتها المشروخ أحزان جيتار لوركا:

«نواح الجيتار يبدأ.. أقداح الشروق تحطمت.. من الصعب أن تسكت الجيتار.. فهى تبكى برتابة كما يبكى الماء.. كما يبكى الريح على سقوط المطر.. من المستحيل أن تسكت الجيتار.. فهى تبكى لأمور انقضت.. تبكى سهما بلا هدف.. ومساء بلا صباح.. أوه أيها الجيتار.. أنت قلب جُرح عميقا بخمسة سيوف».

فى تلك اللحظة أيضاً تمنت أن تموت عارية، ملتصقة برجل.. أى رجل... إنها فى أعماقها تؤمن بأن من يستمتع باللذة الحرام عقابه الموت.. الحرق.. الشوى فى نار جهنم.. ولو عاش.. فإن الدنيا لن ترحمه.. لو لم يفقد نور عينيه سيفقد نور قلبه.. ولو لم يتشوه جسده ستتشوه روحه.. هكذا.. كان الأب يردد دائماً.. لكن.. أمها كانت تقنعها بأن الإنسان هو الكون.. وأن الحرية هى الفضيحة الوحيدة التى لا نخجل منها.. إنها تحررنا من ثيابنا.. وأحزاننا.. وتاريخنا.. ومتاعبنا النفسية.. والضغوط التى تمارس علينا.. فعاشت ممزقة.. مثل مغنية لوركا بين نصفها المصرى، المسلم، المحافظ، والنصف الآخر.. الفرنسى، المتحرر، الذواق، الذى لا يرى من الدنيا سوى نفسه. إنها لا تعرف من يشرب الآخر.. الإنسان أم المتعة؟.. ولكنها تعرف أن المتعة هى تذكرة سفر مفتوحة حول العالم.

إن الأب من القرية التى ولد فيها سيد قطب.. قرية موشا القريبة من أسيوط.. مهندس فى الطبيعة النووية.. حصل على الدكتوراة من جامعة «نورث كارولينا» فى وسائل أمان المفاعلات النووية.. لكنه.. لم يعد إلى مصر.. اختطفته وزارة الدفاع الأمريكية.. البنتاجون.. منحوه الجنسية.. والوظيفة.. والسيارة.. ضموه لبرامجهم السرية العسكرية التى لا يجرؤ على أن يبوح بأسرارها لنفسه فى المنام.

وأغلب الظن أنهم ألقوا فى طريقه بمرجريت.. إنها مثل عروسة «باربى».. وقد كان من السهل أن يحبها.. ويتزوجها، وينجب منها سارة، ومحمد الذى كانوا ينادونه مايكل.

لقد اختاروا لها اسم سارة لأنه ليس اسما غريباً على مسامع الناس فى معظم أنحاء العالم.. فسارة زوجة سيدنا إبراهيم.. النبى الأب الذى خرج من صلبه أشهر الأنبياء.. وقد أعجبها الاسم.. وبدا مناسبا لها.. فهى تبدو مثل الراهبات.. إنها لم تأخذ من أمها شيئاً.. لا اللون، ولا السحر، ولا الليونة.. أخذت من أبيها كل شىء..

الطول الفارع.. الطبع الحاد.. الشعر الأكرت.. البشرة السمراء.. سرعة الغضب.. قسوة الرأى.. وعناء النجاح.. والميل إلى الصمت.

ومنذ أن كانت طفلة وهى تكره أمها.. ولا تعرف سببا لهذه الكراهية.. هل تغار منها؟. هل تشعر بأنها من طينة أخرى مختلفة؟. هل تفتقد تدليلها؟. ربما.. لكنها لم تستطع أن تفصح عن كراهيتها لأمها.. وهو ما جعلها وحيدة.. وهى لا تزال تردد أبيات الشاعر الأسبانى لويس دى فيجا عن الوحدة كلما اختنقت بالتوتر.. أو وجدت نفسها فى أزمة نفسية:

«إلى وحدتى أنا ذاهب

«من وحدتى أنا قادم

«ذلك أنه يكفينى فى غدوى ورواحى

«أن أصحب أفكارى وحدها

على أن أفكارها كانت مشوشة.. مضطربة.. مثل شتاء الإسكندرية.. شمس وغيوم.. نهار وإعصار.. حنان وأحزان.. فهى متحررة ومتزمتة.. تؤمن بتحرر المرأة، وتحلم بالخضوع لرجل.. تحب مصر ولا تكره إسرائيل .. تحفظ بعض آيات القرآن من أجل أبيها، وتجيد بعض الرقصات من أجل أمها.... إنها زجاج وقطن معا.. زجاج يجرحها.. وقطن تغطى به النزيف.

وكثيراً ما كانت تصرخ من الألم.. ألم لا تعرف مصدره، تشعر به بعد أن تسمع كلام أمها عن الناس فى الشرق.. التربة التى تحتفظ بجذور الأب.. إنهم يابنتى يخطفون المرأة إذا ما شمخ جسدها.. يفرمونها بفتاوى مكتومة الصوت.. يعتقلونها سياسيا وعاطفيا.. يفعصونها وهم يرتدون ثيابا معدنية.. ويستهلكونها مثل زجاجات المياه الغازية.. لو فرغوا من واحدة استبدلوا

بها أخرى.. ولو غضبوا من واحدة تركوها لتفقد جاذبيتها وخصائصها.. تصبح امرأة بلا صودا.

إن تجربة الأم فى الفراش لم تكن مريحة.. إنها قطعة بسكويت دخلت مسلخاً للنساء.. حيث الرجل يحكم وحده.. ويغنى وحده.. ويحب ويكره ويقترب ويبتعد وحده.. لقد شعرت الأم بأنها تغتصب.. وجسدها يعلب فى مصنع للحوم الجاهزة.. ولقد سمعتها سارة تقول لأبيها: أنت لست إنساناً.. أنت جاموسة.. إنك تتعامل مع ماكينات القتل والحرب بحس وفكر وتعاملنى من غير نفس.

وقد راحت الأم تدفع ابنتها للحياة على الطريقة الأمريكية.. لكنها.. لم تفلح إلا بعد أن تخرجت من الجامعة.. لقد تفوقت فى الدراسات الإنسانية.. واللغة الأسبانية.. قدمت بحثا عن زواج المتعة فى إيران.. وقدمت بحثا عن حكمة الزواج من أربع فى الإسلام.. وقد قربها ذلك من اللغة العربية.. لكن حروفها لاتزال تتكسر على شفتيها.

فى يوم التخرج وجدت نفسها تندفع إلى ديسكوتيك «قبة اللذة».. إنه ملهى ليلى على شكل نصف كرة.. الأضواء فيه مثل الشمس.. وأرضيته مغطاة بالجليد.. وفيه كهوف يدخن فيها الشبان والبنات عقار الهلوسة.. ويرقصون بجنون.. ويعيشون الحياة بطولها وعرضها وعمقها وفورانها.. وفى تلك الليلة قررت أن تجرب نصائح أمها.. وأن تنفض الغبار عن جسدها.. وأن تمارس حياة الكبار.

لقد نزعت الأختام عنها.. نزعت الشمع الأحمر.. خرجت مشاعرها من سجن الصمت.. وخرجت رغباتها من سجن الجسد.

رقصت.. شربت.. قفزت فى الهواء.. لعبت روليت.. وفازت برجل لا تعرفه.. إنها قواعد اللعبة فى تلك الليلة التى ينتقل فيها خريجو الجامعة فى أمريكا من الحالة.. الطلابية الغازية إلى الحالة العملية الصلبة.. كن برجماتيا ولا ترفض الفرصة

التى أمامك مهما كانت صغيرة.. لا تنم وفى نفسك شىء مكبوت.. لا تنفذ إلا ما فى رأسك.. ولكن لا تتشبث برأيك.. فدوام الحال.. محال.

لم تعد إلى البيت إلا فى صباح اليوم التالى.. وجدت حريقة مشتعلة بين الأب والأم.. بين الصعيد وباريس.. إن الأب يريد أولاده نسخة منه حتى ولو كانوا فى أمريكا.. فهم امتداد له.. والأم تريد أن يعيشوا المجتمع بواقعه وقواعده وإلا اتهموا بأنهم معقدون.

إنها سبب المشاجرة التى خرجت من الغرف المغلقة هذه المرة.. لكن.. النفوس المحشوة بالتناقضات والآلام النفسية سرعان ما تجاوزت السبب المباشر.. وامتد الحريق إلى كل ما بين الزوجين من متاعب.. وفى اللحظة التى دخلت فيها سارة البيت كان الحوار بينهما قد وصل إلى الهاوية:

- أنت عاهرة.

- أنت جاموسة.

- حاولت إنقاذك من الكباريه الذى ولدت فيه.

- وأنا حاولت إنقاذك من مستنقع التخلف الذى جئت منه.

- أنت طالق.

- أنت مسدس صوت.

- لم أعد أطيقك.

- ستدفع نصف ثروتك.. ونصف عمرك.. ونصف أولادك.. وكل مستقبلك.. ستنتهى بمجرد أن تنطق كلمة الطلاق.

وفوجئت سارة بالأب وهو يمسك أمها من شعرها ويجرجرها على الأرض

ليرتطم جسدها بما يصادفه، وهى تصرخ وتسب وتلعن بحروف لغة خليط من الفرنسية والإنجليزية والعربية.. وحاولت سارة أن تتدخل.. لكنها تسمرت فى مكانها.. إنها لا تريد أن تنقذ أمها.. تريدها أن تتعذب.. أن تضرب وتهان.. وكل ما قدرت عليه فى تلك اللحظات هو أنها أجهشت فى البكاء.

ونجحت الأم فى أن تفلت من قبضة الأب، وجرت غاضبة إلى حجرة نومها.. وعادت فى ثوان وهى تشهر بندقية صيد.. وانطلقت الرصاصات القاتلة لتخترق صدر الأب.. وقبض على الأم.. وأودعت مصحة للأمراض العقلية تمهيداً لمحاكمتها.

فى اليوم التالى وجدت سارة أخاها مايكل منتحرا.. علق رقبته فى الشجرة التى زرعت فى حديقة البيت يوم ولدت سارة.. إنها شجرة ضخمة، كانت تتسلقها معه، وكانا يضعان فوقها كوخا صغيرا.. إن مايكل كان أقرب إلى أمها.. كان يحبها أكثر.. وقد انسحب فى هدوء من الحياة بعد أن فقدها.

ليس من الصعب أن نستنتج أن سارة دخلت مصحة للأمراض النفسية.. وقد بقيت فيها سنة كاملة.. وهى تعرف حالتها بالضبط.. ولا تخشى الاعتراف بها.. إن العلاج الحديث فى الطب النفسى يشرح للمريض حالته، ويقنعه بالتعامل معها بشجاعة.. فهو فى النهاية طبيب نفسه.. ولا يجوز أن يظل معتمدا على طبيب آخر.

وواجهت نفسها بصراحة.. إنها لا تريد أن تعيش فى أمريكا.. إن أمريكا وطن بلا وطن.. سؤال بلا إجابة.. أرض لا تقبل الجذور.. وبشر دون ذاكرة.. منفى لأشكال وألوان وأجناس من الناس، لا شىء يوحد بينهم سوى الثروة والقهوة.

إنها طفل ضائع فى الزحام.. لا تعرف ترتيب الكلام.. تتمنى أن يتركوها تنام.. حتى ولو كان نومها تحت شاهد قبر من الرخام.. لتنعم ولو بقليل من السلام.

وحزمت حقائبها.. وسافرت إلى مصر.. حصلت على منحة للدكتوراة عن أوضاع العمال الاجتماعية فى ظل سياسة الانفتاح الاقتصادى، والتحول لاقتصاد السوق.. لكنها.. فى الحقيقة كانت تفتش عن جذورها.. وتحاول أن تنحاز إلى طرف من طرفى الصراع فى داخلها.. الصراع بين الصعيد وباريس.

لم تشعر بالغربة فى مجتمع الزمالك الذى عاشت فيه.. إنه مجتمع يعيش الصراع نفسه.. لكنه لا يشعر به.. وفى هذا المجتمع عرفت رجلا يصفونه بالكاتب الكبير. صحفى لامع.. يحترمه الناس.. ويسعون إليه فى سهراتهم وصالوناتهم.. وقد شدت إليه، كان يقول: إن المبدع يظل فى حالة صدام دائم مع العالم.. ولو تصالح المبدع مع العالم يصبح موظفا.. وكان يقول: إنه ليس له عنوان إقامة سوى فى مقالاته.. وكان يقول: إنه لا يسمح لامرأة أن تمارس سلطتها عليه باسم الحب، أو بفعل الجنس.. لأن الله خلقه فى حرب دائمة ضد السلطة.

قالت له: إن الحب سلطة قهرية.. لا نملك مقاومتها وإلا ذبحتنا.. إنها التى تحدد لنا الموسيقى التى نسمعها.. والألوان التى نرتديها.. والقصائد التى نغنيها.

إنه فى الخمسين من عمره والرجل فى هذا العمر يعانى من لونين من القلق.. الخوف من فقدان شىء ما.. والإحساس بتوقع هذا الفقد.. فالرجل الغليظ الطبع قد يعانى من خوف فقدان قدرته الجنسية، فإذا رق طبعه قليلاً عانى من خوف فقدان القدرة على أن يحب ويصبح محبوبا، وشغل ذلك الخاطر نفسه فدفع به إلى تجارب يثبت لنفسه من خلالها أنه مازال قادرا على أن يكون عاشقا ومعشوقا.

بهذا الخوف.. وبهذا القلق أحب سارة.. وهى أحبته.. ربما أكثر من حبه لها.. فهل كانت ترى فيه الأب.. القوى.. المرتبط بجذوره.. هل أحبته لأنه يمثل الصورة المثالية للرجل.. للأب؟.. *ربما .. فهى لم تعد فى حاجة للأقراص التى تتناولها قبل النوم..* أصبحت تنام فى هدوء وهو معها.. فإذا تركها ليعود إلى بيته.. مدت يدها

للأقراص.. أو مدت يدها للتليفون تطلبه كى يعود إليها.. إما هو أو الأقراص.. وهى تفضله هو عن الأقراص.

لكنه.. أحس بالخطر من هذا الحب.. إنها تمنحه الحياة مرة أخرى.. والمشاعر مرة أخرى.. وقد أسعده ذلك واستسلم له.. لكنه.. بدأ يشعر بالخوف من فقدان شيء ثالث.. يعانى منه المبدعون.. وهو الخوف من العجز عن الإبداع.. الخوف من أن يصبح كل شيء فى نظره صامتا.. هامدا.. والخوف أن يصبح قلمه كسولا.. جافيا.. كأن لم يكن بينهما ألفة وصحبة ومعارك صاخبة.

لقد كان الحب يدفعه دائما للتعبير عن نفسه بحرية.. بجرأة.. وربما بشراسة.. لكنه الآن لا يريد أن يكتب.. أو يقاتل.. أو يسعى لتغيير وجه الوطن بالكلمة، كما كان يقول دائما.. يريد أن يظل إلى جوار سارة طوال الليل والنهار.. لا يشعر بأى رغبة إلا فى ذلك.. وهو ما جعله ينقلب عليها.. إنه يتألم.. لكنه يتألم أكثر من فقدان الرغبة فى الكتابة.. وهى تحبه بجنون.. وتواجه بحبها له متاعبها النفسية.. إنها فى حاجة إليه لتشفى.

ولم يجد مفرا من ذبح نفسه.. وذبحها.

ترك لها خطابا.. كتبه بحبر قلبه.. ودموع مشاعره.

«حبيبتى..

«عشت الدنيا كاتبا محترفا.. يصنع للفقراء ثيابا من كلماته.. وغطاء من حروفه.. كشفت أسرارا.. وهاجمت حكاما.. ولعبت بالنيران.. لعبة المستحيل.

«لكننى.. أشعر الآن أننى أحبو فى هواك كتلميذ صغير.. كل اللغات التى أعرفها عاجزة عن التعبير عن حبى لك.. كلها لغات قديمة.. فأنت فى حاجة إلى لغة جديدة أفصلها عليك.. تليق بك.. وهو مالا أستطيع الوصول إليه.

«لا أريد أن أجلس إلى جوارك صامتا.. أخرس اللسان.. فاقدا القدرة التى اشتهرت بها فى التعبير عن الإنسان.

«إن الحب لمن فى سنك فرحة.. موهبة.. قدرة على الإنجاز.. لكنه لمن فى سنى استرخاء.. استسلام.. بعد سنوات وسنوات قتال فى الحياة.

«أنا محارب.. ليس من حقى أن أستريح.. سأعود للقتال من أجل الناس.. فأنت وهم، عبء ثقيل علىّ.. إما أنت.. وإما كل البشر.. وقد اخترت البشر.. إنهم أقل مسئولية منك.. من حبك.

انتهى.

فى تلك اللحظة أدركت سارة أن أباها قد مات.. وأنها يجب أن تواجه الحقائق بدون أقراص.. ولاحظت لأول مرة أن الشبان الذين فى سنها يلفتون نظرها.. لقد أصبحت ترى.. فالأعمى هو من يرى فى الدنيا إنسانا واحدا.

وقد عرفت أكثر من شاب.. رقصت.. سافرت.. سهرت معهم.. لكنها لم تقدر على أن تحبهم.. إن الحب غير الجنس.. وغير الزواج.. الحب فى حاجة إلى تفاهم واستيعاب.. وقد أحست بعائق اللغة يمنعها من التفاهم.. إنها تبدو كخرساء.. تسمع ولا تقدر على الرد.. وأحست بعائق التصور الخاطئ لها يمنعها من الاستيعاب.. إن الشبان الذين عرفتهم تصوروا أنها أمريكية.. متحررة.. سهلة.. تبحث عن المتعة، وتحتمل مسئولية ذلك. فسعوا إليها.. وكذبوا عليها.. فماتت معظم التجارب قبل أن تبدأ.. عاشت من فشل إلى فشل.. ولولا نجاحها فى البحث الذى جاءت من أجله.. لغادرت القاهرة على أول طائرة.

على أنها كانت تحب القاهرة.. لقد ورثت ذلك عن أبيها.. كما أنها كانت تشعر

بالتميز لأنـها أمريكية.. فقد كانت عقدة الخواجـة التى يعانى منها المصريون تفتح لها الأبواب المغلقة.

لكنهـا.. لا تريد أن تعيش فى مصـر وحيدة.. لقد هربت من الوحـدة فى أمريكا.. وهى لـم تعـد تقدر عليـها.. كما أنهـا لا تقدر على تجارب الشبان المـصريين العابرة.. ويبدو أن هذا الاضطراب هو ماجعلها تحب عمار.. إنه مثلها.. خليط بين دماء عربية، ودماء غـربية.. الأب جزائرى، والأم سويسرية، والجنسـية أمريكية.. إنه مثلـها يقف على السـلالم.. غير قادر على حـسم الصراع المشتعل فى داخله.. فلا هو جـزائرى.. ولا هو سويسرى، ولا هو أمريكى.. ولا هى مصرية، ولا فرنسية، ولا أمريكية.. وقد أحست أنه يفهمها ويستوعبها وخاصة أنه يراسل أكثر من صحيفة فى العالـم.. وعقله يسع الدنيا.

وعاشت مـعه.. ادعت أنه خطيبـها.. أرادت أن تجامل المجـتمع.. أو تجامل نصـفها المصرى، ونصفه الجزائرى.. لكن.. هذا النصف كان كثـيرا ما يؤلمها.. إن عمار كان يعاملها أحيانا بهذا النصف.. فلا يعتذر عن تأخره.. ولا يقبل دعوات أصدقائها.. لا يتصرف كجنتلمان.. وهى مضطرة للاستسلام.. ولو بنصفها الشرقى.. ثم.. إنها قد تثور، وتغضب بالنصف الآخر.

إنها لا تعرف كيف تصـالح نفسها.. كيف تعيـش فى مصر.. ولا كيف تعـيش فى أمريكا.. كيف تحافظ على عاشق يجسد صورة أبيها المقتول.. أو عاشق يجسد صورة شقيقـها المنتحر.. ولكنهـا قوية.. تصر على أن تواجه الحياة، وتتجـاوز متاعبها.. إن الحسم يجب أن يبدأ منها.. أن تعرف من تكون.. وتتجاوز الظنون، وتكف عن الحياة بـجـنــون.

وكان أن قررت تغـيير موضوع البـحث الذى يشغلها.. اخـتارت الموضـوع الذى يؤرقها ويؤرق ملايين من الجيل الثـانى من المهاجرين العرب إلى الغرب.. جـيلهـا..

جيل عـمار.. موضوع تصادم الحضـارات فى أعماق هذا الجيل.. وعندما استقرت على الموضوع، استيقظت نشطة ذات صباح، وارتدت ثيابا محتشمة، وأخذت طريقها إلى ميـدان باب الحديد.. قررت السفـر إلى موشا.. مسقط رأس أبـيها.. إنها سـتبدأ رحلة البحث عـن جذورها من هناك.. وهى فى حاجـة لهذه الجذور.. حـتى لا تظل طافية بلا إرادة على سطح الحياة مثل الأسماك الميتة.



٨

امرأة فوق الشجرة!

شفتاها قنبلة ساخنة.. متمردة.. نافدة الصبر.. سريعة الاشتعال.. محشوة بالكبريت والياقوت والعقيق والنبيذ والفراولة والملبس.. مستعدة للتدمير.. مستعدة لهدم جبروت كل من يصادفها من الرجال.

إنهما تقتفيان آثار وبصمات كل الشفاه الشهيرة.. مارلين مونرو.. هند رستم.. مديحة كامل.. وكاميليا.. المرأة المستوردة من مستعمرة جنيات البحر.. والتى حبست الملك فاروق فى شفتيها.. بين نداء سافر فى الفلقة العليا ودفء نافر فى السفلى.

فى سنوات المراهقة.. سنوات القفز فوق الأسفلت السابح بحرارة الجسد.. خرجت أنوثتها مبكرة من بيضة الطفولة.. إنها أنوثة فصيحة.. فخشيت أمها عليها من الفضيحة قالت لها: يا ابنتى لاتحيرى نفسك وتحيرينى معك.. الحب وعد ومكتوب.. لايفرق بين الشمال والجنوب.. بين الفقراء وأصحاب الجيوب.. والرجال هم الرجال.. كل يوم فى حال.. تفقد عقلهم المرأة المحال.. وعندما ينالونها يقولون: سبحان مغير الأحوال.

يا ابنتى لاتحيرى نفسك وتحيرينى معك.. أنت سوار من الياسمين.. سيتذكرك الرجال فى لحظات الحنين.. لكنهم سينسونك فى سنوات الأنين.. هل تفهمين؟

لكنها.. لم تفهم.. فى الحب.. لا أحد يسمع.. لاأحد يفهم.. لابد أن نحس بأنفسنا.. وتتدحرج قلوبنا.. وتتمزق مشاعرنا.. وتتلوى عواطفنا.. لاأحد يعلمنا.. سوانا.

فى فناء المدرسة همس زميلها فى الفصل بدعوة للسينما.. نظر إلى شفتيها.. أحس بشيء ما فى جسمه يؤلمه.. اقترح فيلم «أبى فوق الشجرة».. القبلات فى الفيلم ضربت الرقم القياسى.. الحوار فى الفيلم بالشفاه والأصابع.. وهى تحب السينما وتكره الكيمياء.. تعشق الأفلام وتكره الأقلام.. تحلم بالأضواء.. والنيون.. والرضاعة من حليب القمر.. والنجوم التى تجلس على قدميها.. تحلم بشادية..

وسعاد حسنى ورشدى أباظة.. وعمر الشريف.. ويوسف شاهين.. وصلاح أبوسيف.. إنهم قبيلة من المبدعين.. سخية.. يصوغون الواقع بلغة الألوان والظلال.. بلغة خرافية.. وجودية.

إن السينما جنونها.. عشقها.. نقطة ضعفها.. وقد أحبت زميلها فى الفصل لأنه يحب السينما.. لم تتصور أن جسمه يأكله.. وأن عصافير الرغبة تنقره.. وأن هذه العصافير تحلم بالخروج فى ظلام السينما لتلتقط منها القمح والتين والفشار.. لكن.. أمها تصورت.. تخيلت ما سيحدث.. فطلبت منها أن ترتدى بنطلونا من الجينز الضيق.. وبلوزة بلا أزرار.. وحزاما عريضا من الجلد المنقوش بمعادن بارزة خشنة.. وطلبت منها أن تضع «الروج» على شفتيها وأن تحافظ عليه ولا تمسحه مهما جرى، وتعود به إلى البيت سليما.. كما هو.

كانت تستعجل «الروج».. تريد أن تكبر.. تريد إعلانا صارخا عن شفاه لاتحتاج لإعلان.. وكانت أمها ترفض ذلك.. فما الذى تغير؟.. إنها لم تفهم أن الأم حبست جسمها فى الجينز الضيق.. وحبست شفتيها بالروج البارز.. ممنوع الاقتراب أو اللمس وإلا ذاب «الروج».. وقد حرصت على بقائه.. إنه حزام عفة مودرن.. وهمى.. وضعته الأم فى عقلها قبل أن تضعه على شفتيها.

والأم خليط من الجمال والذكاء وسوء الحظ.. تزوجت رجلا وسيما يحبها.. لكن طموحه كان أكبر من قدراته.. تصوره لنفسه كان أكبر من تصور الناس له.. حاول أن يكون نجما سينمائيا فلم يفلح إلا فى أدوار الكومبارس.. وإن كان كومبارسا من الطراز الأرستقراطى.. دور لمدة نصف دقيقة لباشا سابق على حمام نادى الجزيرة.. أو فى سباق الخيل.. وفى فيلم آخر ظهرت صورته الفوتوغرافية فقط وعليها شريط أسود.. فقد مات قبل أن تبدأ أحداث الفيلم.

وحاول أن يكون رجل أعمال.. فلم يفلح إلا فى السهر فى أماكن رجال

الأعمال.. ودفع البقشيش مثلهم.. والكلام عن صفقات وهمية.. وسفن مجهولة تحمل بضائع لا يملكها.. لقد تقمص دور البيزنس مان.. وهو دور فشل فيه على الشاشة.. وفى الحياة.

وانفجرت متاعبه النفسية.. تحولت إلى قبلات باردة لا تطيقها زوجته.. وقيود صارمة لاتحتملها ابنته.. أصبح تاريخه العاطفى والعائلى جثة هامدة.. حكاية رتيبة.. وفى يوم من أيام بعيدة مضت كان وزوجته يشربان القهوة.. وقد سيطر الصمت عليهما.. إن كلا منهما يريد أن يتكلم لكن لسانه مشلول.. أخرس.. لايريد أن يتحرك.. لايريد أن ينطق.. وعندما يموت الكلام، يموت الحب..

قالت له:

- انتهت القهوة.. انتهت القصة؟

قال لها:

- لايزال فى فنجانى قهوة..

- أصبحت باردة مثل كل شىء فى حياتنا.. مثل الحب والجنس والمشاعر وغرفة النوم.

- لكنى مفلس..

- أعطيتك نصف عمرى ولا تزال مفلسا؟!

- أريد نصف ثروتك.

- أخذت لحمى.. فخذ نقودى!

- والبنت؟

- لقد اشتريتها بنصف ما أملك!

- لكنها ستظل ابنتى!

- ستراها أحيانا.

كان الطلاق هو الصفقة الوحيدة التى أجراها.. وقد كسب نقودا.. لكنه خسر كل شىء.. فغرق فى الأفيون والجنون.. فى الألم والهم.. فى السهر والضجر.. فى الميسر والخمر.. وفى لحظة أحس فيها أن عينيه لم تعودا تبصران ألوانا.. تربص بابنته ليلا فى أحد شوارع حى المعادى الهادئة، وهى عائدة إلى البيت وانقض عليها.. خدرها بمنديل مغموس فى النعاس وحملها فى سيارته الفولكس العتيقة وحبسها فى بيته.. كان يريدها رهينة يساوم عليها أمها.. فوجدها تفاحة شهية أغراه الشيطان بتقشيرها.

إنه فى المساء لايعرف الكبرياء.. والأفيون يدفعه إلى الجنون.. والبؤس جعله فى حالة يأس.. واليأس أن نشعر بأننا لانملك شيئاً فى الحياة نخاف عليه.. أو نفقده.. أن نشعر بأنه لا فروق فى الألوان.. أو النساء.. أو الأيام.. أو الأشياء.. لقد أكله الصدأ.. أفقده كيانه وملامحه.. أفقده تماسكه.. أصبح برادة رجل.. بقايا إنسان.. أو حيوان.. فوضعها بين أنيابه ومخالبه.. وعندما أفاقت وجدته مشنوقاً.. منتحرا.. معلقا من رقبته برباط عنق من الحرير.. موقع عليه ببير كاردان.. ذبحها.. وقتل نفسه.

جاءت الطعنة من مصدر الحماية.. سرق الضابط عهدته.. اختلس الصراف عهدته.. إنها كانت ستذهب إليه لو اخترق لحمها خنجر غريب.. فلمن تذهب والخنجر من دمها وأعصابها؟.. إنها تعرف من أمها أن خنجره بليد فى الحب.. مثل الجليد.. فما الذى جعله حادا.. مسنونا.. مسموما.. معها؟!

لقد حذرتها أمها من الغرباء.. إنهم يمصمصون النساء لحما وعظما ثم يلقون بما تبقى منهن.. وأحست بأن المجتمع من حولها يتربص بعلاقة الرجل والمرأة.. ويتصور

دائماً أن الشيطان ثالثهما.. ومن ثم حل المجتمع محل الشيطان.. فلو كان رجل وامرأة فى سيارة أصبحت عيون الناس وأنفاسهم معهما.

ولو جلسا معا فى زاوية خافتة الضوء.. فى مطعم.. أو كافيتريا، طالت آذان الناس حتى وصلت إليهما.. ولو دخلا مكاناً خاصاً لاحقتهما الأسئلة وعلامات الاستفهام.. ووجدا نفسيهما فى استجواب.. من البشر أو من الشرطة.. وهو ماجعل المجتمع الذى يبدو حراً، مفتوحاً، أشبه بالسجون والمعسكرات والمدارس الداخلية.. أشبه بالمجتمعات المغلقة التى لاتستريح إلا للنوع الواحد.. للجنس المتجانس.. وهذا ماجعل الشذوذ يكسب.. ويتزايد.. ويخرج من المجتمعات المغلقة إلى بحر المجتمع الأوسع.

وهى تكره الشذوذ.. تشمئز منه.. لكنها لاحظت أن أقرب صديقاتها إليها استسلمت لعلاقة شاذة مع امرأة.. إن صديقتها تريد أن تجرب المتعة.. لكنها تخاف من غدر الرجل.. من تحذير أكل اللحم وإلقاء العظم.. تخاف من عيون الناس وكلامهم وفضائحهم.. وقد وجدت فى المرأة الشاذة نصف المتعة.. أو شبه المتعة.. وكل الستر.. فلا الناس تعترض. ولا المجتمع ينزعج.

ودعتها صديقتها لحفلة شذوذ.. الحجرة فوضى.. على الأرض ثياب وحلى وكتب أجنبية اللغة.. جسد نحيف، جاف، يخاصم التضاريس.. جسد ذئبة.. ترضع من ذئبة أخرى.. وأصابع تدور وتدور على لحم مبلل بمياه معدنية تتفجر من عيون رغبة تصرخ.

ستريو.. ديسكوتيك.. وأربعة نهود تتهامس.. تتناقر.. تمضغها الأسنان.

إن المشهد أوجعها.. أصابها بالغثيان.. جعلها تهرب من الحفل وصديقتها.. ومن الرطوبة واللزوجة.. لقد رفضت المتعة الشاذة ولو لم يحاسبها المجتمع عليها.. إنها تنتظر الرجل الذى تحبه لتنفجر معه.. ليضبط مشيتها الطائشة.. وعينيها الشاهقتين..

وشفتيها الغاضبتيـن.. وخصلات شعرها المرمية.. لكن.. مافعله الأب بدد انتظارها.. أحرقها بشذوذ تجاوز شذوذ صاحبتها.

لقد زرع الأسى فى عمـرها الصغير.. هرس زهورها التى لم تتفتح بـعد.. داسها.. سحـقها.. حـرق قمرها البـرىء.. عراها بالخطيئـة.. ثم غطاها بمعطف من الزوابع.. وصنع لها ثياباً داخلية من العار.

وجرت إلى أمها.. لكن أمها كانت فى حاجة إلى رجل آخر.. إن الجمال فى حاجة إلى تأمـيم.. إلى مـصادرة.. إنه الـقطاع الخاص الوحـيـد الذى يقـبل أن يوضع تحت الحراسـة.. وقد تبـادل على حراسـة أنوثة الأم مجـموعة من الشـخصـيات العـامة.. سفير.. لواء شرطة.. وزير.. مدير بنك.

وفى إحدى سـهرات الأم مع أحـد رجالهـا.. عرفـته.. إنه ممثل سـينما مـعروف.. يعرف كـيف يرقص ويغنى ويغطى وجـهه بملامح العـاشق الملتاع.. الولـهان.. بدون كـــامــيـرا.. أو ديــكـور.. أو إضـــاءة، انــدمـج فــى دور حــب.. وصـــدقـتــه.. وأحـبته.. وتزوجتـه سـراً.. إنـه سيمـنـحـهـا المتـعـــة والـشـهرة والفـرصة.. فرصة عـمـرهـا أن تكون نجـمة.. لكن.. لا المـتعـة انفـجرت.. ولا الشـهـرة تحقـقت.. ولا الفرصة جـاءت.. لـم يعــرف كـيـف يـحـقـق لهـا ماتريد.. ووجدت فى أحـشائها مـا لا يـريـد.

صرخ الملسوع بالنار: كلا.

قال كمن يبدو متماسكاً: لا وقت للطفل.. سنؤجله.. سنخزنه.

أصرت على الطفل.. مزق ورقة الزواج.. إنها لاتزيد على ورقة جرنال فيها خبر لا يعـجبـه.. لا تزيد على منديل ورق.. ضـربهـا.. شتـمـهـا.. طردها.. كـســر قلبهـا.. بصقـها.. خنقهـا.. وأحست أن الطفل عار.. وأنه حـرام فى حرام.. ظلام فى ظلام..

وأغمى عليهـا.. وعندما استردت وعيهـا.. وجدت نفسها فى المستـشفى وملائكة فى ثياب بيضاء يقدمون لها العزاء.. لقد رفض رحمها الطفل.

وفى إحدى سهرات الأم مع رجل آخر من رجالها.. عرفته.. إنه أمير ثرى.. يعرف كيف يضع الشـمس فى اليمـين.. والقمر فى الشـمال.. يعرف كـيف يسحـر النساء بالماس.. إن بريق الماس يخطف الأبصار.. فلا تنظر المرأة إلى مـلامحه وخيوط الزمن المحفـورة فيـها.. وقـد أقنعها بـأن النقود هى التى سـتجعـلها نجمـة.. سيـشترى بها السيناريو والحوار والنجـوم والمخرج والبلاتوه وأفيشات الشـوارع وبرامج التليفزيون وأخبار الصحف.. ولا مانع أن يشترى الجمهور أيضاً.

أصبـحت بطلة بفلوسه.. حقـقت حلمها وقـبلها رشدى أباظة.. لكنهـا.. لم تحقق حلم النجومية.

إن الفيلم لم يمكث فى السـينما أسبوعـاً واحداً.. ولـم يتذكرها النقـاد.. لـم يكتبوا عنها.. بل لـم يشـتموها.. إن الشتـيمة أحيـاناً أفضل من التجـاهل.. وعرفت فى تلك اللحظة أنها لن تكون أكـثر من كومبارس.. مـثل أبيهـا.. وأنها سـتنتقل من رجل إلى رجل.. مثل أمها.. لقد ورثت عنهما أبرز مافيهما.

أحبـها الأمير الثـرى بجنون.. صنع لها تماثيل من ذهب وفضـة.. رشق فى صدرها اللؤلؤ والياقوت.. غطاها بالفـراء.. فصل لها رافعة نهد من الألماظ.. ومـحبساً للزند من العقيق.. وخلخالاً لنهاية الساق من الزمرد.. لم تـعد امرأة فقط.. أصبحت مغارة على بابا أيضاً.

لكن المفاجـأة.. المفاجأة.. أن رشدى أباظـة أحبها كـما أحبتـه.. الفتى الأول.. نجم النجوم.. السـوبر ستار منحهـا قلبه.. كان مـستعداً أن يتنازل عن كل شىء ليـحصل على قلبها.. وقد نسيت معه الدنيا والسـينما.. لـم تعد تحلم بالأضواء فهى فى قلبها.. لـم تعد تحلـم بالشهرة فـهى فى متناول يدها.. لـم تعـد تحلم بالتمـثيل فهـى تعيش فى

الواقع.. لكن.. الحب لم يعش طويلاً.. لم يصبح فراشاً ومائدة طعام، وحماماً.. فالسرطان.. ذلك الوحش الخرافى.. النائم فى خلايا جسم البشر، استيقظ كعادته فجأة.. ودون إنذار.. تمدد.. تمطى.. تضخم.. أصبح ورماً.. ثم أصبح الورم شحوباً.. ثم أصبح الشحوب اصفراراً.. ثم سواداً.. وفى مرحلة السواد جاء الموت.

عرفت أنه مات.. فوجدت نفسها تختبئ تحت السرير وتبكى.. إنه الرجل الوحيد الذى عرفت منه معانى كلمات يتداولها الناس مثل أجهزة الكاسيت.. كلمات مثل الرجولة.. الشهامة.. الشجاعة.. الحماية.. وهى حتى الآن تزور قبره ثلاث مرات فى العام.. وتضع عليه وردة.. وردة بيضاء يوم وُلد.. ووردة حمراء يوم عرفته.. ووردة صفراء يوم مات.. حتى عندما تكون على سفر خارج البلاد.. لاتنسى أن ترسل الوردة المناسبة فى الذكرى المناسبة.

واستثمرت أموالها فى مشاريع تجعلها شخصية مرموقة فى الوسط الفنى.. ستديو لتسجيل الصوت.. شركة لخدمات تصوير الفيديو.. فشلت ممثلة ونجحت منتجة.. وأصبحت صديقة لمعظم النجوم.. نور الشريف.. يسرا.. عادل إمام.. فيفى عبده.. إلهام شاهين.. وغيرهم.. وهم يحبونها ويثقون فيها.. إن النجوم فى حاجة إلى أصدقاء مثل حاجتهم إلى النجومية.. فى حاجة لمن يعيد إليهم البساطة مثل حاجتهم إلى الشهرة.

لقد دخلت الفن من أبوابه الخلفية.. وعاشت فيه.. وكسبت منه.. وقدمت إليه الكثير من الوجوه الجديدة.. منحت الفرصة التى فشلت فى الحصول عليها إلى آخرين كانوا يستحقونها.. فملأوا الدنيا بهجة وغناء وفرحا وخضرة.. وساهموا فى الحفاظ على النور فى مواجهة طيور العتمة.. أو «طيور الظلام».

لكنها..

رغم ذلك.. أحسست بالبرودة.. بالوحدة.. بالغربة.. لقد مرت سنوات طوال انكسرت فيها الدهشة، والشهقة، واللمسة، والهمسة، والرغبة.. وتراجعت غريزة الكبريت.. غدة الاشتعال.. وانطفأت النيران المشبوبة.. وانكشفت الشفاه المشبوهة.. وبدأت أوراق خضراء كثيرة على شجرتها تصفر.. ووجدت نفسها تحن للرجل وللطفل معا.

لاتريد رجلا لا يمنحها طفلا.. ولا تريد طفلا بغير رجل.. تريدهما فى نفس واحد.. فى حب واحد.. بغير الحب لاشرعية لبناء بيت.. أو بناء أسرة.. بغيره يصبح الزواج وظيفة حكومية.. مناقصة لتوريد الحماية مقابل المتعة.

وعرفته فى بيت أمها كذلك.. لكن.. ليس فى سهرة من سهراتها ولا فى وجود رجل من رجالها.. لم يعد فى عمر أمها بقية.. ولا فى جسدها بقية.. كفت عن لعبة أو لعنة الزواج والرجال.. وتابت فى بيت الله الحرام.. ونذرت ما تبقى من حياتها لعمل الخير.. تطوعت لمساعدة الأطفال الصم والبكم فى التكيف مع الحياة.. جاء التطوع لعمل الخير متأخراً.. فهمت رسالة الحياة فى اللحظات الأخيرة التى تتسلل فيها الحياة.

إنه معارض سابق للسادات.. رفض انقلابات السادات الحادة وتحولاته الحادة وانعطافاته الحادة.. وخرج من مصر يقاومه، ويقاوم سفره للقدس، وصلحه مع العدو، وانحيازه ضد الفقراء.. تنقل بين بغداد وطرابلس، والجزائر.. المدن العربية التى كانت معارضة للسادات.. صرخ.. شجب.. غضب.. انفعل.. انشطر.. احترق.. لكنه اكتشف أنه يعارض وهو فى فقاعة صابونة ضخمة.. اكتشف أنه يواجه أكذوبة بأكذوبة أكبر.. فهو مجرد زناد يضغط عليه آخرون.. لهم مصالحهم وصراعاتهم التى ليس من بينها حرية الرأى.. وحرية الاختلاف.. إنهم يستعملونه أسوأ استعمال.. ولو تصالحوا مع السادات فإنهم سيسلمونه وباقى المعارضين - فى قفص فراخ - للسادات.. أسوأ من سيدتى.. سيدى.

كان يحلم بالراحة من الغربة خارج الوطن.. وكانت تحلم بالراحة من البرودة فى الوطن.. كان يحلم بالكتابة فى صحف المعارضة.. وكانت تحلم بالرضاعة فى فراش الأمومة.. كان يحلم بشوربة العدس فى ليالى الشتاء الباردة.. وكانت تحلم بمشاهدة التليفزيون تحت غطاء ثقيل مع رجل لا يهرب فى هذه الليالى بعد أن يأكل لحمها بالمايونيز.. وفى لحظة أن التقيا أحس كل منهما أنه فى حاجة إلى الآخر.. وقعا فى الحب.. وتزوجا.

لم يكن يملك سوى جسد نصف مرهق يمنحه لها.. لا المقالات التى كتبها فى صحف المعارضة غيرت وجه المجتمع.. ولا أطعمته خبزاً.. اليسارى العجوز فقد دوره وحماسه.. فقد ثقته بنفسه وإيمانه بمساواة المرأة.. انقلب من «جنتلمان» إلى إنسان غاضب شرس.. يخلط بين العنف والحب.. بين القسوة والمتعة.. بين أسنان يعض بها وشفاه يمسح بها جسدها.. إنه عاجز عن الإنفاق عليها.. وعاجز عن لفت الانتباه إلى جوارها.. وفى أعماقه إحساس بأن الثروة التى جمعتها والشهرة التى حظيت بها سببها فساد نظام السادات الذى قلب الأوضاع والطبقات رأسا على عقب.. لقد تزوج صورة مصغرة مكثفة للنظام الذى كان يعارضه.

وهى لا تفهم ما فى أعماقه من صراع وما فى مشاعره من تمزق.. إنه رجل تحبه وتريد منه طفلاً.. لا تعرف الفرق بين الليبرالى والشيوعى.. بين الأمير والخفير.. لاتعرف أنها حصلت على الثروة من أقصى اليمين وأنها تنفقها على أقصى اليسار.. كل ما تعرفه هو أنها تريد من هذا الرجل طفلاً.

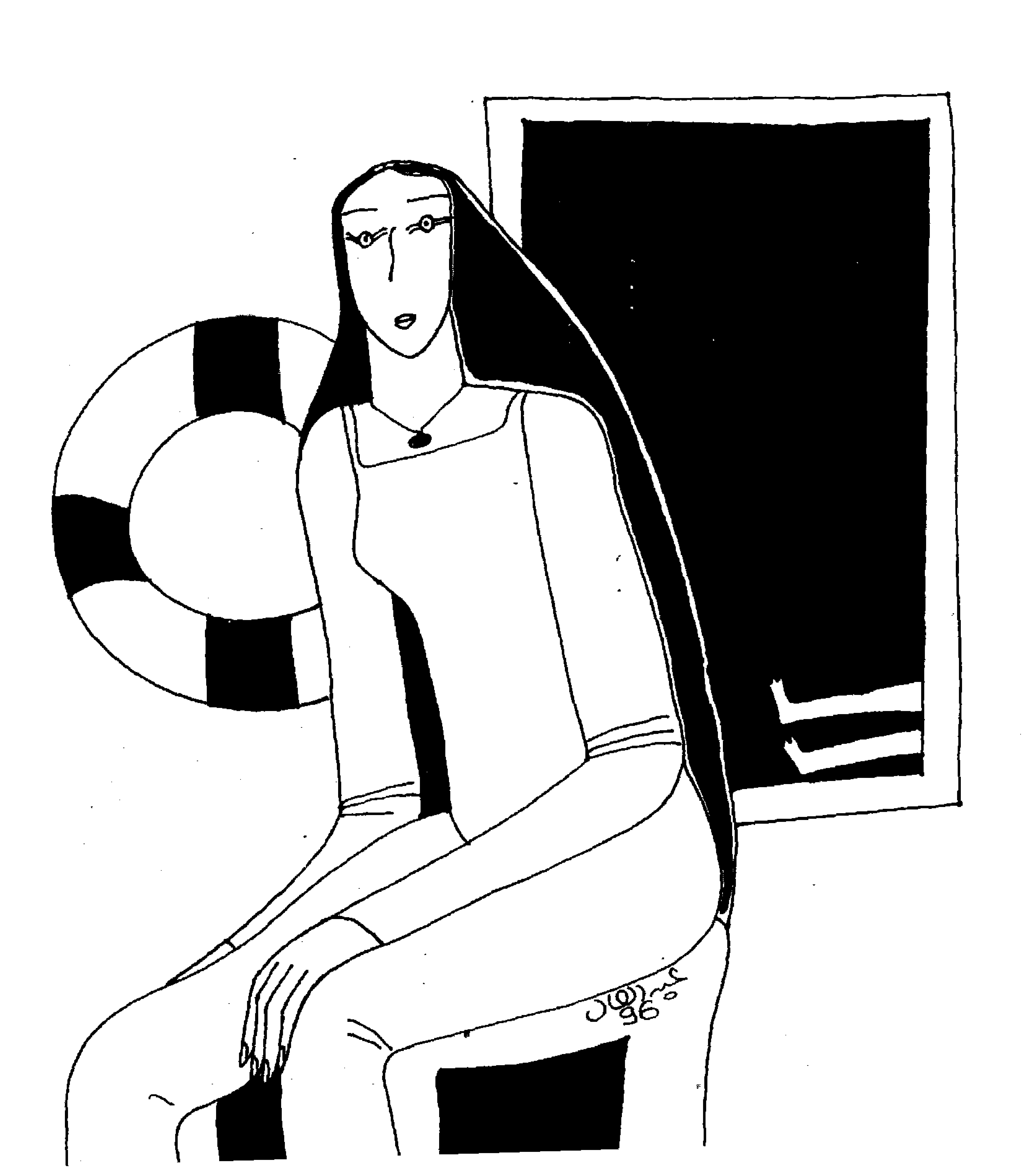
وقد تحقق لها ما تريد.. أصبحت حبلى.. وفرحت.. فرحت أكثر من اللازم.. فقد فقدت الجنين.. ثلاث مرات فرحت فيها أكثر من اللازم.. وصدمت فيها دون إنذار.. وهو لايعرف شعوره بالضبط.. أحيانا كان يشعر بالفرح لأنه سينجب طفلا.. وأحيانا كان يشعر بالفرح لأنه لن ينجب طفلا.. مشاعره مضطربة.. غير مستقرة.. وألوان

الحمل التى تراها هى تضاعف من ذلك.. أبيض.. أخضر.. أحمر.. أسود.. أبيض.. أخضر.. أحمر.. أسود وهكذا.

والأطباء لا يعرفون سببا لهذا الإجهاض المتكرر.. وهو لايعرف.. لكنه قرر أن يعرف.. لابد أن يعرف.. وراح يسحبها إلى الماضى.. إن الماضى هو خزانة متاعبنا النفسية التى قد تصبح متاعب عضوية دون أن نفهم.. وكان من الصعب فتح هذه الخزانة.. إن الصدأ الذى يفرضه العقل الباطن على الماضى المؤلم يجعل المهمة صعبة.. لكنه.. مثقف. وصبور.. ولابد أن ينجح فى محاولته.. وقد نجح فعلا.. وضع يده على عقدتها.. على مافعل الأب بها.

وأخذها من يدها إلى طبيب نفسانى.. إنها فى حاجة إليه - ليست فى حاجة إلى طبيب أمراض نساء.. فرحمها يرفض قبول الطفل.. لأنه يشعر بأنه طفل حرام لايجوز له البقاء.. رحم يتصور أن كل رجل يقترب منها هو أبوها.. وكل طفل سيزرع فيه هو من بذوره.

وكان لابد أن يفقد هذا الرحم المعقد نفسيا ذاكرته السوداء.. أن تعلم الفرق بين الحلال والحرام.



٩

امرأة مثل أغـسـطس!

لا شيء فى الدنيا أجمل من النساء فى الشتاء.

إنه شعار كل الرجال الذين مروا بحياتها.. أو اخترقوها.. أو عاشوا فيها..

وهو ما كان يشعرها بأنها مجرد امرأة «بطانية».. أو امرأة «بطانة».. أو أنها امرأة منحوتة من حطب.. يشعل فيها الرجل النيران بأنفاسه الساخنة.. تتوهج.. تُدفئه.. تحترق.. تصبح فحماً.. هباباً.. رماداً.. لابد من التخلص منه.

وهى امرأة صيفية.. مثل المانجو والعنب والتين والمشمش.. رشيقة تكره السمنة مثل يونيو.. ساخنة تحلم بالماء مثل يوليو.. غامضة تعشق الليل مثل أغسطس.. مجنونة بالسهر والسفر.. بالبحر والقمر.. بالحرية والإسكندرية.. بالانطلاق والانزلاق.. لا تطيق الفرو والصوف والاسترتش والألوان الغامقة والأغطية الثقيلة والملابس الداخلية.. لا تطيق جلدها.

إنها فراشة فى باليه بحيرة البجع.. سمكة ملونة فى مياه البحر الأحمر.. تحررت من عقدة البر.. طاردت المحار فى أعالى البحار.. غسلت نفسها من الغبار.. تخشى الدمار. أحياناً تسيطر عليها الرغبة فى الانتحار.. وكثيراً ما تشعر أنها عاجزة عن اتخاذ القرار.. وعقدتها المزمنة أن تصبح فى العراء.. بلا بيت.. بلا جدار.

عندما تراها تؤمن أن الحب بخير.. وسنابل القمح بخير.. وبراءة الأطفال بخير.. وأن الزهور لن تكف عن التفتح.. ونهر النيل لن يكف عن التدفق.. والشعراء لن يكفوا عن كتابة الشعر.. لكنها.. مكتومة الحنان.. مسكونة بالأحزان.. تحلم برجل لا ينهرها إذا ما طوقت خصره، ومشت معه فى عرض طريق مزدحم بالناس والسيارات.. رجل لا يُطفئها إذا ما اشتعلت كالبرق ذات مساء.. لا يطردها إذا ما طلبت اللجوء العاطفى إلى صدره.. لا يقمعها إذا ما شعرت معه بأنها طفلة تخرج عن المألوف.. لا يسحقها إذا ما انكسرت فتافيت حب وضوء على قدميه.

الألم فى حياتها قدر لا يخطئ. الأب مدمن شراسة.. لا يعرف سوى لغة الحجارة.. كلماته تسبب الورم والنزيف.. عيناه خنجران مسقيان بالسموم.. أصابعه

أظافر ترسم أشجاراً من حمـرة الدم على أجساد أطفاله.. قسـوته تتكرر مثل قطار لا نهائي من الملل والعذاب.. نهاره بلا رحمة.. وليله بلا ضمير.

كانت في الثـامنة من عمـرها عندما عـرفت لماذا يُولد الحزن في المسـاء.. إن الحزن أعمى.. ضرير - لذلك - يُولد في الليل.. ولا يفرق بين الصغار والكبار.. الأغنياء والفـقـراء.. الأبرياء والأشـرار.. بين الناس في القطب الـشمـالي والناس على خط الاستواء.

كـانت تلعب لعبـة العريس والعـروس.. والتـبـات والنبـات.. والورد علـى خـد البنات.. إنها لعبة الغريزة.. والميل إلى الجنس الآخر قبل النضج والاستدارة.. قبل أن يأتي خراط البنات فـيضع أرنبـين في الصدر.. وتفاحتـين في الوجه.. ورمـحـين في السـاقـين.. كانت مـثل البنات في سنهـا تنتظر الرجل دون أن تعرف مـاذا تريد منه بالضبط.. كانت ترقص وتغني لتغطي على دقات قلبها الصغير.. فرحة.. مكسوفة.. متوترة، عندما وجدت ديناصـوراً يرفعها من فستانها وضفـائرها في الهواء ثم يتركها لتسـقط على الأسفلت.. ثم راح يركلهـا بحذائه.. ويسبـها.. ويلعن الزواج ويومـه الأسود، وخلفة البنات التي تجلب العار.. وجرها كشاة مذبوحة إلى أمها.

لقد عرفت في تلك اللحظة كيف تـتعذب أمها؟!.. كيف يطلع عليهـا الصباح كل نهار فـلا تبتـسم ولا تتكلم؟!.. إن صمت الأم ليس عـلامة رضـاء، بل أمنيـة موت.. وأيام تفوت.. وقد خافت الأم أن تأخذها في حضنها.. إن الحنان يستفز الأب ويزيد من قسـوته.. ويضاعف من غـضبه.. الحنان في هذا البيت مـثل المخدرات.. بضـاعة محرمة.

وهي لا تعـرف سر قـسوة الأب.. إنه غبـار في حالة إعـصار.. عاصـفة في حـالة غاضبة.. لا يهدأ.. لا يشرح.. لا يتفاهـم.. فما هو السر؟!

هل السر أنه لم ينجب ذكراً؟!.. لقد تزوج ثلاث مرات.. وأنجب سبع بنات.. ظل

يعاند قدره حتى كف عن الاقتراب من النساء.. فتحول من رجل إلى جلاد.. ومن أب إلى عزرائيل.

هل السر فى وظيفته؟!.. إنه محقق كبير، شهير فى قضايا أمن الدولة.. قضايا السياسة والمعارضة والتنظيمات السرية ومحاولات قلب نظام الحكم.. من جيل خاف بطش السلطة فقرر أن يكون خنجراً فى يدها.. وقد كان يتلقى الأحكام بالتليفون قبل أن يبدأ التحقيق.. ومن ثم كان عليه تلفيق الاتهامات والأدلة وتكييف القضايا وتفصيلها حسب الطلب.. وكثيراً ما كان يواجه بالسخرية من المساجين السياسيين وهم فى القفص.. إنهم يستفزونه ويطالبونه بإخراج ورقة الأحكام من جيبه.. ولا داعى للمرافعات.. وتقديم المذكرات.. والحرص على الإجراءات الشكلية.. وهو ما كان يجعله يصدر الأحكام ورأسه فى الأرض.. إن السجان أحياناً أقل حرية من السجين.. والقاضى أحياناً فى حاجة لمن يمنحه الأمان قبل أن يمنح الناس العدل.

هل السر فى مشاعره؟!.. إن إحساسه بالضعف أمام السلطة السياسية جعله متوحشاً على قبيلته من النساء والبنات.. لقد أذلته السلطة وخوفته وعلبته وصادرت ثرواته العقلية والعاطفية.. فلم يعد قادراً على ممارسة الحب دون الحصول على تصريح من وزارة الداخلية.. ولم يعد يتصور وجود رجل وامرأة إلا وكانت أجهزة التسجيل والتصنت ثالثهما.. إن مشاعره أصبحت مُطاردة.. تخشى الاعتقال والتلفيق وقانون الطوارئ. وهو يعرف أن المرأة هى دليل الاتهام.. دليل الفضيحة.. وسيلة التشهير بالمعارضين.. إنها نقطة الضعف.. وهو محاصر بنقاط الضعف.. وهكذا.. أصبحت أسرته الخالية من الذكور، رهينته.. مطيته.. مزرعته البشرية التى يُمارس فيها إقطاعه التاريخى.

لم يعد يرى فى المرأة ريش العصافير.. لم تعد بالنسبة له رمالاً دافئة.. ولا أعشاباً بحرية.. ولا سيمفونية تعزف فيها الريح والأمواج.. أصبحت المرأة فى عينيه

فضيحة.. وفى جسده مسماراً.. وفى قلبه شوكة.. وفى عقله زلطة.. فنسى نبضه.. وتغيرت دورته الدموية.. ودخل فى مرحلة التكلس.. وأصبح منحرف المزاج.

على أنها لم تكن مشغولة بالتفسير أو التبرير.. كانت مشغولة بتجنب القسوة وتلافيها.. لقد حكمها الخوف من عقاب الأب وسيطر عليها.. تنجح فى المدرسة حتى لا يضربها.. لاتخرج مع صديقاتها حتى لا يجرحها.. لا تهمس لأمها حتى لا ينفجر فيها.. لا تسمع أغانى عبد الحليم حافظ.. حتى لا يصفها بالسفالة.. لكنها تحب أغانى عبدالحليم حافظ.. إنه مهزوم مثلها فى مشاعره.. محبط مثلها فى عواطفه.. الوحيد الذى يفهمها ويعبر عنها.. لا تستطيع الاستغناء عن شرائطه.. وهى تهربها مثل الممنوعات.. وتضعها فى جهاز «الوكمان».. وتسمعها تحت السرير.. إنها أسعد الناس بالوكمان.. قطعاً اخترعوه من أجلها هى وحدها.. فهى تسمع فى صمت.. تسمع وحدها.. وهو ما جعلها تتصور أن عبدالحليم حافظ يغنى لها.. هى فقط.. فقلبها موعود بالعذاب.. لا يهدأ.. ولا يرتاح.. وهى تتنفس تحت الماء.. لا تشعر بالحرية إلا فى الحمام.. ويوم عيد ميلادها تشعر بالشقاء.. بل.. إنها لا تختلف عن المرأة فى قارئة الفنجان.. إنهما توءم.. «عيناها.. سبحان المعبود.. فمها.. مرسوم كالعنقود.. ضحكتها.. أنغام وورود.. وشعرها الغجرى المجنون يسافر فى كل الدنيا».. وهى مثل بطلة الأغنية.. معزولة.. مرصودة.. مهجورة.. «من يطلب يدها».. من يدنو من سور حديقتها.. من يحاول فك ضفائرها.. من يدخل حجرتها.. مفقود.. مفقود.

إنها تخاف الحب.. ترتعش منه.. تنتفض.. تغرق فى كلمة حب.. أو نظرة حب.. «لاتعرف فن العوم».. فعلمت نفسها «ألا تشتاق».. و«كيف تقص جذور الهوى من الأعماق».. و«كيف تموت الدمعة فى الأحداق.. كيف يموت القلب.. وتنتحر الأشواق».

لم تحب ابن الجيران.. ولا ابن خالتها.. ولا مدرس اللغة الفرنسية.. ولا نجوم السينما.. ولا أبطال إحسان عبدالقدوس.. ولا قصائد نزار قبانى.. الحب عندها ظل

قضية أمن الدولة.. قضية انقلاب على السلطة.. لقد كبرت.. لكن.. جرحها لا يزال في طفولته.. جرحها لا يزال يرضع.

لا يزال في سنة أولى.. يتعلم الكلمات الأولى.. وقد تصورت أن الحزن يمكن أن يكون تاريخاً.. لكنه ظل صديقاً.. ظل بيتاً تسكنه.. وطعاماً تتناوله.. وزوجاً تنجب منه أطفالاً.

كانت طالبة في كلية الآداب عندما شن أبوها حملة تفتيش بوليسية على حجرتها.. قلب الحجرة رأسا على عقب مثل مخبر قاس.. كانت الممنوعات كثيرة هذه المرة.. علبة سجائر.. سبعة شرائط لعبدالحليم حافظ.. رواية «صباح الخير أيها الحزن» لفرانسوا ساجان.. مشط كبريت.. زجاجة بارفان.. قلم روج.. ديوان شعر لصلاح عبد الصبور.. قضية مغرية لجلاد على المعاش.. جلاد لا تعرف أحكامه البراءة ولا الاستئناف.. لقد لعب في دقائق دور المخبر وضابط المباحث والمحقق ووكيل النيابة والقاضي ومأمور السجن.. ووجدت نفسها تجر من شعرها إلى مخزن الفيللا.. حيث الكراكيب والفئران. ودفعها إلى الحجرة المظلمة.. وأغلق عليها الباب.. لقد حكم عليها بالسجن لمدة أسبوع.. انفرادياً.

لكنها.. لم تنهرْ.. لم يُغمَ عليها.. لم تسقط من طولها.. على العكس.. وجدت في أعماقها طاقة تتفجر.. وبركانا يثور.. إن المرأة عندما تيأس من التعب تولد من جديد.. وعندما تدرك أن العواطف التي تلمسها وتلسعها من أسمنت وخشب تصبح عنيدة.. لقد حلمت مثل البنات بأن تكون حبيبة أبيها.. يدللها.. يسقيها.. يطعمها.. يغمرها برحمته.. فتحلم بعودته.. وتبحث عنه في أرجاء غرفته.. لكن.. الحلم أصبح كابوساً.. والكابوس أصبح واقعاً.. فلا مفر من تغييره.. أو الهروب منه.

هربت من الحبس الانفرادي.. جرت بلا حذاء من المعادي إلى الزمالك.. حيث تعيش خالتها.. ستبقى هناك بعض الوقت.. إقامتها ستكون ترانزيت.. فسرعان ما سيقبض عليها الأب ويجبرها على تنفيذ الحكم.. كان الحل أن تسافر مع زوج

خالتها.. وتعمل معه بعيداً عن الأرض.. بعيداً عن الأحزان.. إنه قبطان سفينة ركاب... تربط الموانىء المتفرقة فى عقد من اللؤلؤ والأصداف.. تركت البر.. حيث الدموع والقهر والعذاب والعقد النفسية.. عملت مضيفة فى المطعم.. إنها جذابة.. تعرف رغم الزوابع كيف تبتسم.. لقد خرجت من القمقم إلى عالم واسع.. رائع.. فيه البشر ألوان.. والمدن ألوان.. وبدأت تتذوق طعم الحنان.

كانت فى نابولى عندما عرفت أن أباها مات.. وجدوه فجراً فى ميدان السيدة زينب.. مهشم الرأس.. ممزق الثياب.. غارقاً فى الدماء.. بلا أوراق.. بلا رفاق.. نقلوه إلى مشرحة زينهم.. تعرفوا عليه بصعوبة.. لم تنشر الصحف أنه قُتل.. خشيت الحكومة من شماتة المعارضة.. وصدرت التعليمات بفبركة القضية.. وتلفيقها.. وتوصيفها توصيفاً جنسياً لا سياسياً.. ولصقت التهمة بامرأة ليل.. أنهت عملها فى الشوارع الخلفية، وخرجت إلى الميدان وهى تمسح بدموعها ماكياچها الصارخ.. وعبرت الميدان إلى المسجد الكبير لتطلب من «أم هاشم» الرحمة والمغفرة والتوبة والتخلص من الوعد المكتوب على جبينها.. وعلى جسدها.

عرفت الخبر.. تلقت العزاء.. تناقضت مشاعرها بين دمعة غائرة فى مقلتها وعصفور راح يقفز فى قلبها.. لكنها.. قالت فى نفسها وهى تشرب فنجانا من قهوة الاكسبرسو.. «لقد مات وجفت رحلته».

فى تلك اللحظة أحست أنها خرجت من برج القهر.. وأن الوقت قد حان لتخرج من شرنقتها.. ولتغزل أول خيط من خيوط الحرية.. حان الوقت لتختار.. هل تصبح موجة لا تتوقف عن السفر؟. هل تصبح قطة متوحشة تنهش الحياة بمخالبها؟. هل تصبح جزيرة من الكبرياء لا تصل إليها مراكب القراصنة؟. هل تصبح سجادة «شنواه» يتمدد عليها رجل تحبه تنجب له فرقة من الأولاد؟

لكنها.. لم تتعذب بالاختيار.. لقد كان على ظهر السفينة المخرج السينمائى عاطف سالم.. إنه مولع باكتشاف الوجوه الجديدة.. وهو قادر على التقاط الموهبة دون اختبار

بالكاميـرا.. عيناه كـاميـرا وإضاءة ومافـيولة مـونتاج.. وهو يمـزج بين الواقـعيـة والرومانسـية.. ويصوغ عيوب المجـتمع وعوراته دون عنف أو ابتذال .. وقد أقنعـها بأنها تملك نعـومة آثار الحكيم.. وجاذبيـة بوسى.. وابتسامة فـاتن حمامة.. وجـرأة يسرا.. وكان شرطها الوحيد ألا تتعرى.. وأن تحذف من السيناريو مشاهد القبلات.. إنهـا لاتزال تخـاف الأب.. ربما عاد من مـدينة الموتى ليجرها من شعـرها إلى الحبس الانفرادى.. إن الضريح المدفون فيه أبوها هو فى عقلها لا فى مقابر البساتين.

ولمعت مثل سهم نارى فى مزرعـة الضوء التى يسكنها النجوم.. إن السينما كانت فى حـاجة إليـها.. فى حاجة إلى نجـمة يحبها الشبـان ويحلمون بالزواج منها.. لا بالسهر معها.. إنها نحيفة.. تلم شعرها.. ترتدى الجينز.. ابتسامتها مريحة.. لا تقبل التنازل عن الحب مهمـا كان الإغراء.. مستعدة أن تظل إلى جـوار من تحب حتى يعبر عنق الزجاجة بين الحلم والواقع.. بين الفقر والثراء.. بين بولاق والزمالك.

لكنها.. لا تعرف الحب.. لم تجربه.. لم تتذوقه.. ظلت تخشاه.. إنها ترسمه فقط على ملامحها قبل التصوير.. وتحشو به حنجرتها قبل التسجيل.. إنه تمثيل فى تمثيل.. أمـا فى الواقع فكانت تبـحث عن زوج لا رجل.. إن الحب فى رأيهـا أسرة، وأطفـال ومدرسة، ودروس خصوصية، وعـشاء فى البيت، وبوليصة تأمين ضد الزمن.. وهـى مسـتعدة أن تتنازل عن كل شىء فى سـبيل ذلك.. الشـهرة.. النجـومية.. الثـروة.. الأضواء.. أغلفة المجلات.. جوائز المهرجانات.

لقد عرفتها عن قرب خارج مصر.. جمعتنا صدفة السفر.. والسفر يقرب الناس.. والغربة تحل عـقد اللسان.. تحرر الإنـسان.. وكأن ما يقـوله لن يحاسب عليه.. وقـد روت لى عذاب طفولتها فى الجزائر.. وكشفت عن عقـد أبيها فى بيروت.. وحكت قصة اكتشافها فى تونس.. وتعرضت لمتاعب أمها فى باريس.. وطالبتنى بالبحث عن عريس.. يقدس الأسرة.. ويحترم المرأة ونحن فى واشنطن.. عرفت قصتها فصلاً بعد فصل بعيداً عن القاهرة.. بالصدفة.. على مدى ١٢ سنة.

لم أبحث لها عن عريس.. لا أومن بزواج الوسطاء والإعلانات.. بل لم أرها فى

القاهـرة إلا عابراً.. ولـم نتبادل الحديـث عبر الهاتف.. فهى تخاف أن يسمـعها أحد.. عقدة الأب لاتزال طازجة.. لـم تجف بعد.. كنت أقرأ أخبارها فى الصحف.. وأشاهد مسلسلاتها التليفزيونية أحياناً.. ولـم أغير رأيى فى تمثيلها.. إنها ستؤدى أدوار الحب أفضل لو عـرفت الحب.. إنها تستلف أحاسـيس الحب من غيرها .. فهى مـرة تحب مثل فاتن حـمامة .. ومرة تحب مثل مـريم فخر الدين.. ومرة تحب مـثل ليلى مراد.. لكنها .. لـم تحب ولامرة من أعماقها.

كان لابد أن تحب حتى تصـبح نفسها..حتى تنضج ثمرة المانجـو الخضراء.. وتفوح رائحـتهـا برائحة الرغـبة فى أن يقـشرهـا من تحب، ويغرس أصـابعه وأسنانه فـيهـا، ويأكلها دون شوكة أو سكين.

على أنها لـم تحب..لم تؤمن بالأدوار التى تؤديها.. تزوجت أول رجل أقنعها بأنها ستكون أم أولاده.. وبأنه سيكون الأب والخيمة والشجرة.. ولـم تتردد فى أن تترك كل شىء مـن أجلـه.. هى التى اشـترت الشـقة.. وفرشـتهـا.. أما هو فـأقنعهـا أنه رجل أعمال.. فى بداية حياته.. يحتاج حماسها.. وتشجيعها.. لـم ينفق مليما. لـم يتحمل مسئـوليته.. لكنها.. كانت سعيـدة بدور الأب الذى يلعبه.. لقد راحت تنـجب طفلاً كل سنتين.. وترددت بين الفن والاعتزال.. كلما احتاجت مالاً قبلت فيلما.. وكلما شعرت بالـيسر.. انزوت بعيداً عن الأضواء.. إنها تمثل حسب حاجـتها المالية.. تمثـل لتدفع مصاريف الولادة، وأقساط المدارس، وتكلفة الطعام، وأجرة السائق.

لقـد اشترت أسـرة وأطفالاً وزوجـا يلعب دور الأب.. اشـترت مـا حُـرمت منه.. اشتـرت طفولتهـا وأحزانها وأحلامـها.. اشترت حـريتها وحبـسها فى مخـزن البيت المظـلم.. والمذهل أنها حمدت الله وأحـست بالزهو لأن أطفالها كلهم ذكور.. لـم تنجب بنتا واحدة.. واعتبرت ذلك إنجازاً لـم يقدر عليه أبوها.

لـم تكن لتميل إلى الاقتـراب من زوجها إلا لتنجب طفلاً.. إن شهيتـها لا تتفتح إلا علـى ذلك.. عقدتها من الأب لا تزال تفـرض نفسها.. إن الحب جريـمة.. والجنـس خطيئة.. هى تشعر بذلك.. لكن.. لا جريمة ولا خطيئة إذا كان الإنجاب هو السبب..

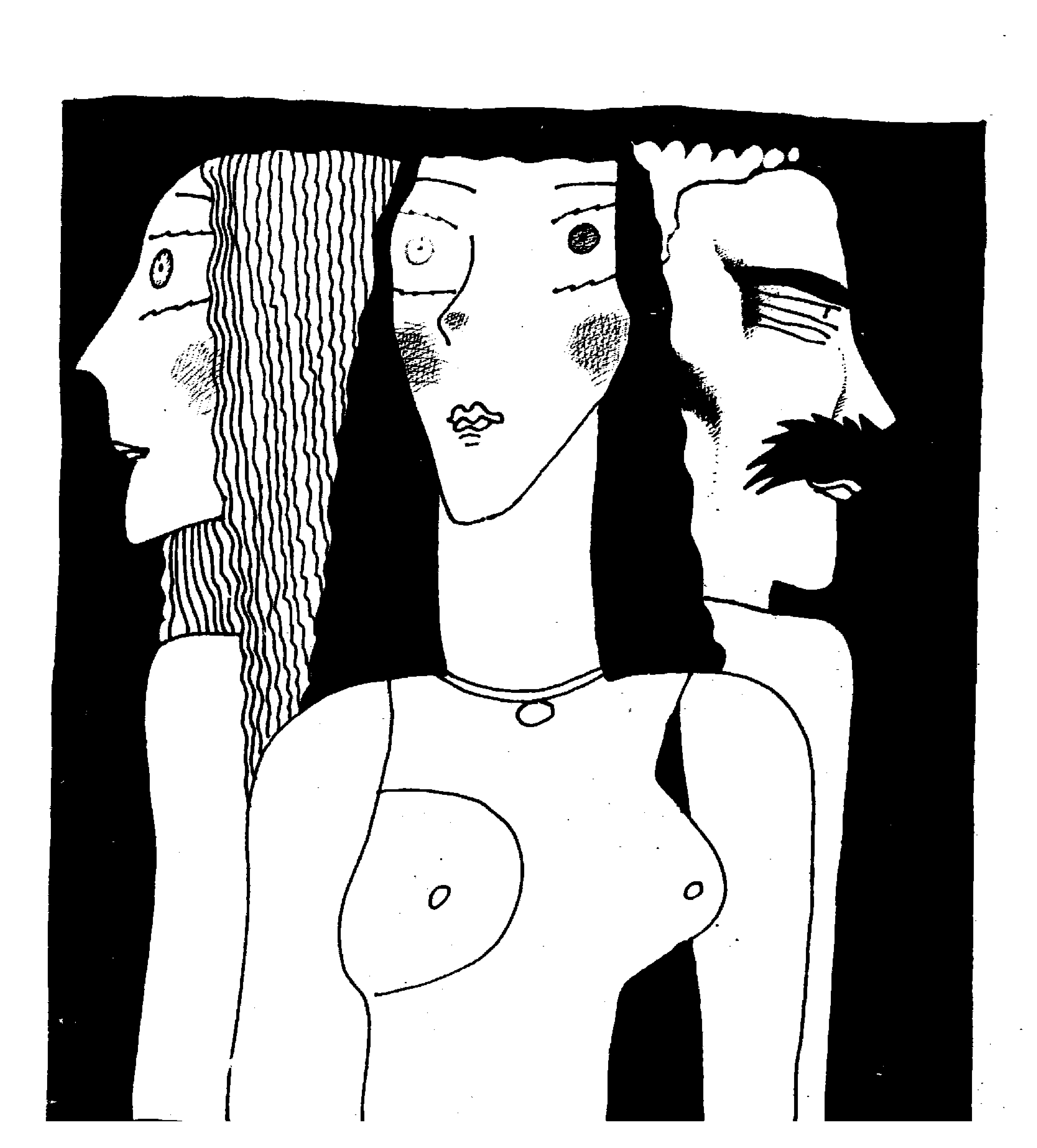
وهذا ماجعلها تعطى زوجها ظهرها فى معظم الليالى.

وكان أن قرر الزوج الحفاظ عليها مصدراً للمال وللأمومة.. زوجة تطبخ وتغسل وتربى الأولاد.. أما هو فقد وجد فى بنات الليل متعته.. إن عمله يفرض عليه السفر.. وفى كل مدينة يصطاد النساء من المواخير والكباريهات.. وهو حريص على ألا يصاب بالأمراض السرية.. يتناول «كورس» من الأقراص والكبسولات قبل الدخول.. وبعد الخروج.. ويطمئن على نفسه بالتحاليل والفحص.

لكنه.. رغم الحذر.. أصيب بمرض ما فى نيروبى.. كان فى بيت دعارة.. يشرب.. ويغنى.. ويرقص.. وفوجئ بامرأة صامتة.. تتكور على مقعد من القش الرخيص.. لاترتدى الألوان الفاقعة.. ترتدى قميصا عاريا من الستان الأسود.. وتدخن فى هدوء.. إن لونها الأسمر كان الدرجة الفاتحة من لون قميصها وباقى ثيابها.. وفى غرفة النوم انقلبت الأنثى الصامتة إلى لبوءة شرسة.. لم يكن جنساً.. كان قتالاً بالأسنان. والمخالب.. بالمشاعل والحراب.. بالخناجر والسهام.. عرف فى تلك الليلة الجنس البرى.. المتوحش.. الجنس فى الغابات الاستوائية.. وعرف أنه كان يعيش مع زوجته فى ثلاجة ممددة على هيئة فراش.

كان لابد أن يقع الطلاق.. إننا فجأة نكتشف أننا نعاشر شخصا لا نعرفه.. أو لم نعرفه.. شخصاً غريباً عنا.. يسبب البرودة والجفاء.. ونكتشف عيوبه.. لكنه فى الوقت نفسه يكشف عيوبنا وعقدنا التى لم نتخلص منها.. ويجعلنا نستعيد إحساس الغربة عن أنفسنا بعد أن تصورنا أننا نسيناه.

لقد حسمت ترددها وعادت للفن.. وفى اليوم الأول للتصوير، طلبت من السائق أن يغير طريقه.. ويأخذها إلى مقابر البساتين.. لقد قررت أن تعيد علاج نفسها بالطريقة الصحيحة.. وأمام ضريح أبيها بكت لأول مرة عليه – لا منه – وراحت تقرأ الفاتحة.



١٠

امرأة مهزوزة
ورجل بـنـوتة!

رغم اختلاط دموعها بالكحل.. كان وجهها مثل القمر.

رغم صراخ ثيابها من وجع التمزق.. كان جسدها مثل قالب زبد يغرق فى قارب مربى مصنوع من التوست الساخن.

لكن..

لا أحد فى تلك اللحظة كان يقدر على أن يراها أنثى.. فى تلك اللحظة كانت مثل فارة مذعورة فى حارة مظلمة يتشاجر فيها قطيع من القطط الشرسة.. لكنها.. تشعر بمواء القطط ولا تراها.. تشعر بمخالبها ولا تلمسها.. تشعر بأنيابها ولا يتمزق لحمها.

كانت غرفتها مدهونة باللون الأصفر.. لون الرمال والصحراء ومستشفى الأمراض النفسية.. على الجدران علقت مجموعة من أطواق النجاة.. الأثاث غطته بأكياس البلاستيك.. الشفافة.. والنوافذ وأسلاك الكهرباء والتليفزيون وجهاز الاستريو والثياب والماكياج.. كل شىء يغطيه البلاستيك.. وهى كذلك.. كانت تبدو فى الثياب الغريبة التى ترتديها مثل رواد الفضاء.. أو أبطال مسلسلات الأطفال الكرتونية.. الذين جاءوا من كواكب أخرى.

كان من السهل على الطبيب النفسانى المعروف جمال ماضى أبوالعزايم أن يكتشف للوهلة الأولى أنه أمام فتاة مريضة بالبارانويا.. وأنها تخشى أن تضرب إسرائيل السد العالى بقنبلة نووية.. فيفيض النيل.. ويغضب.. ويثور.. ويُجن.. وتندفع فيه المياه بقوة الطوفان حتى تصل إلى الدور الخامس.. حيث تسكن.. فتغرقها هى الأخرى.. لذلك.. لاتتوقف عن الشجار مع أبيها لينتقلا إلى الدور العاشر.

البارانويا نوع من الفصام.. أو الانقسام فى العقل.. أو الانقسام فى التفكير.. أو الاضطراب فى الأفكار.. أو عدم ترابطها.. فما نراه قد لا يقبله العقل.. وما يقبله العقل لا يقبله الناس.. ومن ثم يعانى المريض بالبارانويا من أوهام.. مثل الاضطهاد أو الغيرة أو العظمة.. أو الاعتقاد الخاطئ الذى يصبح بمرور الوقت اقتناعاً راسخاً..

مثل حالة سماح الزينى.. التى تنتظر الغرق فى النيل بعد تدمير السد العالى وهى فى شقتها بالعجوزة.

إنها ابنة وزير اقتصاد سابق.. يعانى هو الآخر من إحساس خفى بالاضطهاد المغطى بجنون العظمة.. وقد خرجت هذه الحالة على السطح بعد خروجه من الوزارة.. ورفع كشك الحراسة.. واختفاء صورته من الصحف والمجلات.. وإصابة تليفونه بمرض الخرس.. إنه يبدو مثل النسيم فى رقته.. يتكلم باتزان وثقة.. ثم.. فجأة يفتقد التركيز.. ويسب من حوله.. ويحطم ما يصادفه.. وقد قدم للطبيب النفسانى الدليل على أن الوزارة الجديدة التى خرج منها ضده.. وأنهم يتهمونه بأنه غير طبيعى.. كان الدليل.. ورقة مالية من فئة الجنيه.. قدمها للطبيب.. رقمها ١٣٥٤٩٤٥ .

- اجمع هذه الأرقام.. يادكتور.

- إنها تساوى ٣١ .

- آه.. لقد قلتها بنفسك.

وفهم الطبيب المغزى والمعنى.. فرقم «٣١» فى لغة الشارع، إشارة خفية لممارسة العادة السرية.

سأله الطبيب:

- كيف قدمت الوزارة الجديدة هذه الورقة المالية لك؟!

- أخفوها فى معاشى.

- كيف اكتشفتها؟!

- إننى أعرف ألاعيبهم جيداً.

- هل أنت متزوج؟!

- لقد طلقت زوجتى.

- وهل تمارس....

- لا تكمل يادكتور.. أرجوك.

لكن.. كان لابد للدكتور أن يكمل.. فعلاج البنت يبدأ بعلاج الأب.. إن المرض النفسى ليس بالوراثة فقط، وإنما بالعدوى أيضا.. وقد عرف الطبيب المحنك أن خوف سماح من نسف السد العالى والغرق فى مياهه قد سبقه نوع من القلق المجنون، سيطر عليها، ونهش عقلها، وحرمها من النوم.. إنها تقوم من الفراش وكأنها قطعة أسفلت مر عليها بلدوزر.. أو وابور زلط.. وتشعر بجفاف الحلق.. وضيق التنفس.. وبالرعشة.. والإجهاد.. والضعف.. والاضطراب.. وبالسرعة فى ضربات القلب.

قالت سماح للطبيب:

- أشعر بضيق.. بزهق.. لاآكل.. لاأنام.. الدنيا أصبحت مستحيلة.. لا أراها إلا من ثقب إبرة.. لا أكاد أجلس حتى أقف.. لا أكاد أرقد حتى أهب.. حجرتى تحولت إلى عوامة.. وزنزانة.. لكننى لا أريد الخروج منها.

- هل شعرت بذلك مرة واحدة؟!

- نعم!!

- متى؟!

- منذ أسبوع!!

- ما الذى حدث منذ أسبوع؟!

- أخى الوحيد.. تزوج.

- هل حزنت لأنه تزوج؟!

- أبداً.

بعد جلسات علاجية مؤلمة تذكرت سماح أنها وهى طفلة عمرها ست سنوات راحت هى وأخوها يتابعان من وراء النافذة.. بفضول شديد.. رجلا وامرأة عاريين يمارسان الحب فى اندماج جعلهما ينسيان العالم من حولهما، فلم يفكرا فى إغلاق نافذة حجرة النوم.. واقتنعت سماح بفكرة أخيها عن تكرار المشهد.. ثم أخبرت أمها.. وعرف الأب.. فضربهما حتى ناما من الألم.. وحرمهما من الطعام والمصروف.

لقد خرج المشهد - الذى انتهى بالألم - من اللاشعور الذى سقط فى أعماقه.. استيقظ الانفعال القديم ليأخذ صورة قلق مفاجئ، وخوف من الغرق والاختناق بالماء.

إن الشعور هو ماندركه مباشرة فى الواقع من خلال الإحساس والتفكير والتخيل والاستنتاج.. واللاشعور هو العقل الباطن.. الذى يخطف مايرفضه الشعور.. خاصة الأحداث المؤلمة فى سنوات مبكرة.. وتتفاعل هذه الأحداث فى تلك المنطقة المظلمة.. المعتمة.. وترقد فيها.. وفى وقت ما تطفو.. وتفرض نفسها على الشعور.

و«لاشعور» سماح كان مخزناً من التجارب السوداء.. الخفية.. فيه فئران.. وقمامة.. وطربوش.. وجندى حراسة.. وأم تجر عارية من شعرها.. وبقع دماء لاتزال طازجة تختلط بسائل أبيض لزج.. وأسماك عفنة.. وأطفال ملامحهم مشوهة.. وسماء تمطر أسناناً من الحجارة.. إنه مستودع هيستريا.

أما فى الشعور فالألوان تتشابه.. الأسود مثل الأبيض.. الأصفر مثل الأزرق.. والأشياء تتشابه.. الزهور مثل القبور.. الأضرحة مثل الأجنحة.. والزمن يموت..

والنغم حزين.. والبشر جميعاً يتشابهون.. ويصبحون بلا ملامح.. والحر قد يأتى فى الشتاء.. والبرودة لاتختفى فى عز الصيف.

وسافرت للعلاج فى الولايات المتحدة الأمريكية.. والعلاج هناك بالرقص والرسم. والموسيقى وجلسات الصراحة النفسية الموسعة.. وبتغيير موقف المريض من العالم.. فلا يكتفى بالفرجة على نهر الحياة.. وإنما ينزل النهر.. ويعرف معنى البلل.

إن الفصام أو الانفصام الرهيب الذى تعانى منه المرأة يضاعف من فرصة إصابتها بالأمراض النفسية.. ويؤخر شفاءها لو أصيبت.. إنها تتمزق بين الحلم النسائى بالانقلاب على الرجل.. والزواج منه.. بين التشهير بخيانته ونذالته نهاراً.. ومضاجعته ليلاً.. ومن ثم.. بقيت المرأة فى مكانها بـ«حطة يد الرجل».. وبقى شهريار حياً يرزق حتى اليوم.

لكن.. الحياة فى أمريكا أعفت سماح من هذا الانفصام.. أخرجت طلقات الرصاص المحبوسة فى جسدها مكتوم الصوت.. لم تعد أشواك الصبار إلى الداخل.. عكست اتجاه مواسير البنادق الموجهة إليها.. صوبتها ناحية العالم.. اقتنعت بحكمة الأحمق واليائس والأنانى والمحاصر والمتطرف الذى لايملك شيئاً يخسره.. ياروح ما بعدك روح.. ياعمرى مايذهب منك لن يعود.. ياحياتى.. من يفكر فى أن يسرقها منى.. لن أتردد فى تفجيره.

لقد راحت ترسم بجرأة فان جوخ.. وتهور جوجان.. وألوان بيكاسو فى مرحلته الزرقاء.. رسمت تمثال الحرية يرقص فى زار.. ورسمته مذبوحاً فى مجزر.. ورسمته يحمل رأسه بين يديه وهو جالس على كورنيش النيل فى القاهرة.

وعزفت الجيتار ببراعة.. وهزت جسدها بليونة.. ورقصت برشاقة.. ودخنت الماريجوانا ببراءة.. ومارست الجنس وهى منهارة.. ولكن.. البلبل وحده لا يستطيع أن يصنع الربيع.. والنار التى فى صدرها لاتكفى لإذابة الصقيع.. إنها فى حاجة إلى

نار أخرى.. صديقة.. فى حاجة إلى الحب... لتواجه بقوة زمننا القبيح.. الشحيح.. وتغير فى حياتها.. اتجاه الريح.

وقابلته صدفة فى السفارة المصرية فى واشنطن.. كانت تجدد جواز السفر بعد إقامة فى نيويورك.. ثلاث سنوات.. إنه معروف.. لكنها لاتعرفه.. يعاملونه باحترام زائد لايحظى به غيره.. وقد عرفت قيمة المساواة.. وعرفت كيف تطالب بحقوقها وتتشاجر وتقاتل من أجلها.. ثم.. إنها ابنة وزير سابق.. فابن من هذا الشاب؟!

وتلقت صدمة.. أو مفاجأة.. إنه ابن رئيس وزراء سابق.. الأب كان لامعاً أيام الرئيس السادات.. وزوجته أيضاً.. لقد تولى الوزارة أكثر من مرة.. وقلب سياساتها أكثر من مرة.. فتح بوابات الاقتصاد القومى على مصاريعها.. فدخل السماسرة وتجار المخدرات ومستوردو السلع الفاسدة إلى خزائن البلاد.. فنهبوها.. وأسسوا شركات وهمية لإقامة مشاريع معطوبة.. مُولت من مليارات القروض.. فلا المشاريع أفادت.. ولا القروض استغلت.. وتحولت الديون إلى مشانق.. وخناجر.. وأعباء.. وقيود.. وعلى طريقة صندوق الدين الذى جاء بالاستعمار القديم إلى مصر.. وجدنا صندوق النقد الدولى الذى جاء بالاستعمار الجديد.. تخلصنا بعد ٧٠ سنة من بريطانيا. فكم سنة نحتاجها لنتخلص من أمريكا؟!

أما زوجته فكانت أكثر بريقا.. وأشد نفوذا منه.. لقد كانت ظلا لجيهان السادات.. المرأة الجذابة، القوية، التى لاتزال تقرأ الدفاتر القديمة.. وتحلم برجوع الساعة إلى الوراء.. وتتحدى دورة الفصول.. ودورة الأيام.

إن الزوجة كانت مسيطرة على ابنها.. وزوجها.. وعلى الحكومة.. وعلى الوزراء.. والتجار.. ورجال الأعمال.. والسوق السوداء للعملات.. وأذونات الاستيراد والتصدير.. إنها تعرف أن من يملك السلطة يملك كل شىء.. ومن يفقدها يخسر كل شىء.. فراحت تغرف من كل ماتصادفه.. ورغم جمالها أيقنت أن القوة أهم..

فنسيت عواطفها.. أهملتها.. حتى غطاها الفطر الأخضر.. أصبحت عواطفها مثل المخطوطات القديمة.. وتحول جسدها إلى وعاء بارد من النحاس.. وكان ماتحرص عليه هو أن تلف ابتسامتها بورق سوليفان ملون.. وأن توزع صورها كطوابع البريد على صفحات المجتمع.. وتقص شرائط الأنشطة النسائية أمام أضواء الكاميرات.

أغلقت كل مشاعر الحب.. وكل دفاتر الحب.. حبها الحقيقى كان السلطة.. رغم أنها تقول نعم كل يوم ألف مرة للسأم.. النرجسية غطت على الملل.. الأرباح جعلت الاكتئاب - ولو مؤقتا - فى عتاد الرياح.. لقد جمعت لبناتها أزواجا من مختلف القبائل.. قبيلة الأرستقراطية الإقطاعية.. وقبيلة الثروة العقارية.. وقبيلة المقاولات العمومية.. أما ابنها الوحيد.. فقد دخل الجامعة بالغش.. وأصبح طبيبا بالتزوير.. وعندما اعترض البعض فى الجامعة.. نقلوه.. وشردوه.. وطردوه.. هو والوزير الذى تشدد له.. على أنه من حسن الحظ أنه لم يعمل بالطب.. وأصبح رجل أعمال.

لقب كل من هب ودب.. أو لقب من لا لقب له.. أو لقب كل من يقدر على أن يدفع ثمنه.

لكنه.. يملك الثروة.. والقوة.. وهو ماجعله يتاجر فى السلاح.. وطائرات رش المبيدات.. ويخوت الأثرياء.. والسيارات الفارهة.. لقد كان له نصيب من الصفقات الدسمة.. الصفقات الكلبوزة.. المربربة.. وأحيانا يتاجر فى هذه الصفقات.. يكسب منها بمجرد التنازل عنها.. لذلك كان يوصف بمقاول الصفقات.. وهو آخر وصف حظى به.. أما الوصف الذى ظل يلازمه.. ويؤلمه.. فهو «البنوتة».. لقد أطلقه عليه زملاؤه فى المدرسة الابتدائية بعد أن اكتشفوا أنه يكتب اسمه بخيوط ملونة على ثيابه الداخلية.. وفضحوه.. وقالوا: إن أهله فعلوا ذلك حتى لايسرق أحد ثياب ابنهم الداخلية.. فهو غير قادر على الحفاظ عليها.

ولم تمنحه أمه فرصة ليصبح رجلاً.. إنه مدلل.. يحصل فورا على مايريد.. على الشهادات.. والصفقات.. والفتيات.. والمدلل.. ملول.. والملول غير مسئول غالبا.. وقد كبر على ذلك.. أصبح طفلا فى الثلاثين عندما خرج أبوه من السلطة ومات مقهوراً بعد أيام.. أصبح يتيما فى هذه السن.. أصبح مسئولا عن أسرته التى أصبحت بلا سلطة.. فكان عليها أن تدفع الثمن من سمعتها وثروتها بأثر رجعى.. لكنه لم يقدر على تحمل المسئولية.. وتركها لأمه وهرب إلى نيويورك.. إلى حيث هربت سماح الزينى.. إنهما هاربان التقيا.. ضائعان تقابلا.. طفلان لم يكبرا.. وكان لابد أن يكبرا.. فهما فى غربة بلا سلطة.. فى محيط بلا وسيط.. وجها لوجه مع الأمواج.

أحبها فى لحظة.. من أول نظرة.. وجد فى عينيها مفتاح حريته.. فك قيود رجولته.. لم يعد بنوتة.. جمع أجزاء نفسه المهشمة.. المبعثرة ولصقها بعد طول خصام وتمزق.. وقال لها: إنه قبل أن يحبها كان ضريراً.. يفتش عن شمعة فى الظلام.. ويعجز مع النساء عن الكلام.. ولايعرف فى المنام.. الأحلام.. إنه قبل أن يحبها لم يخبئ امرأة مثل فرخ الحمام تحت قميصه.. أو تحت ثيابه الداخلية التى لم يعد ينقش عليها اسمه الثلاثى.. «أنت مسك الختام».

وهى أيضاً أحبته.. أنساها الحزن والموت والخوف.. وذكرها بالفرق بين البرد والحر.. الفجر والعصر.. الأسود والأحمر.. القرنفلة والقنبلة.. وعرفت فى أحضانه مذاق النوم بعمق.

وبدا الوطن - بكل مافيه - بعيدا عنهما.. بدا وطنا معلبا.. مطبوعا عليه صورة السادات.. الرجل الذى رفع أسرتيهما إلى السماء.. ثم سقطتا على الأرض.. أو سقطتا على حجر النائب العام والمدعى العام والرأى العام.. فأصبح الوطن فى عيونهما مكهربا.. يخشيان لمسه.. أو بدا مثل مكان مهجور لا يملكان خريطة

الوصول إليه.. ثم إن بوصلتهما مكسورة.. وأشرعتهما ممزقة.. وليس أمامهما سكة سفر.

وتزوجا فى نيويورك.. وانزعج أبوها.. وانزعجت أمه.. إن كلا منهما سلطة قديمة.. والسلطة القديمة لاتقترن بسلطة قديمة وإلا زادت ضربات وطعنات السلطة الجديدة.. إن كلا منهما يريد تجديد سلطته.. فإن لم يستطع اكتفى على الأقل بوقف الشيخوخة.

وركبت أمه أول طائرة إلى نيويورك.. كانت أعنف وأشرس من أى يوم مضى.. أما هو فقد قابلها بفتور.. وأمامها قال لزوجته: لن أتنازل عنك.. فأنت بالنسبة لى غريزة حفظ البقاء.. بدونك سأعود أكثر شحوبا.. وانكسارا.. وحزنا.. وأشار إليها.. ثم قال لأمه:

- هنا إقامتى.. هنا عنوانى!

وعرفت أمه.. المرأة الأسطورة أن ابنها مع سماح حتى ولو قتله الحب.. وأحست أنه يخرج عن طوعها.. وأنها فقدت آخر رعايا دولة نفوذها.

لكنها.. لم تيأس.. إنها تعرف أن فى أمريكا الحقيقة.. فضيحة.. وتعرف أن الفضيحة فى عرف المصريين.. مصيبة.. فاستأجرت مخبرا سريا ليفتش فى تاريخ سماح قبل أن تعرف ابنها.. إنه أسلوبها القديم فى مصر عندما كانت صاحبة نفوذ.. لكنها فى مصر لم تكن تدفع.. فمثل هذه الخدمات.. قطاع عام.. وتقدم مجانا لمن هم مثلها.

وجاء التقرير فى ٥٠ صفحة.. دفعت فى كل صفحة ألف دولار.. ووضعت فى كل صفحة خطوطا حمراء على كثير من الفقرات والمعلومات.. إن بعض هذه المعلومات كان من الممكن ومن السهل استعمالها لتشويه سمعة سماح.. لكنها قفزت

فوقـها.. ولـم تـتوقف عندها.. توقـفت عند تفاصيل مرضـها النفـسى.. وابتسـمت ابتسامة شيطانية.. صفراء.

إن سـمـاح وضـعت أدوية العـلاج فى أنبـوبة أسـبـرين حـتى لا تلـفت النظر إلى مرضها.. وقد تقـدمت فى العلاج بعد أن انتظمت فى تناول أقراص الدواء التى بدت للآخرين أقراصا لقتل الصداع.. وكان من السهل على الأم أن تعرف ذلك.. فكان أن استـبـدلت أقراص العـلاج بأقراص أسـبرين.. إنـها تريد أن تعـيد سـماح إلى حـالة الفصام والتمزق.. والأوهام.. والهلاوس.. لتقنع ابنها بأنه تزوج من مجنونة.. فقدت عقلها.. فيتخلص هو منها.

بدأت سماح تشعر بالاضطراب. وقامت مفزوعة فى منتصف الليل.. ونظرت إلى زوجها.. وصرخت.. لقد بدا فى عينيها وكـأنه شقيقها.. وراحت تدفعه بعنف، وهى تستر لحمها.. وراحت تصفه بالشذوذ والوقاحة.. وجاءت الأم لتأخذها فى أحضانها مدعية الحنان.. وقالت لها: إنه زوجك وليس شقيقك.

لكن سماح.. لم تصدق.

قالت الأم وهى تدرك أنها تضاعف من جنونها:

- كونى عاقلة.. ودعيه ينام فى فراشك!

- كلا.. إن هذا انحراف.

- إنه حقه الشرعى.

- إنه أخى.

- بل زوجك.

واشتعلت نيـران الغضب أكثر.. وراحت سـماح تحطم كل ما يصادفهـا.. وفتحت

النافذة وألقت منها بقايا ما حطمته.. وكما توقعت الأم.. طلب الجيران البوليس.. ثم طلب البوليس الإسعاف.. ثم طلبت الإسعاف مصحة نفسية.

ووجد زوجها نفسه يعود إلى مرحلة «البنوتة» من جديد.. فطلقها.. وراحت الأم تمسح على شعره.. ورغم الحزن الذى غطى ملامحها كان قلبها يرقص من الفرح.. إنها لا تزال قوية ومسيطرة وقادرة على الحيلة.. لكنها.. فى تلك اللحظة التى فاضت بالغرور والنشوة لم تكن تعرف أن ابنها عندما سيعود معها إلى القاهرة سيقع فى شباك امرأة.. شمامة.. ش. م. ا. م. ة.



١١

سهيلة لا تنتظر القمـــــر!

عيناها مثل قنديلى زيت فى المسجد الأقصى.. أو فى كنيسة القيامة.. شعرها شلالات من الحزن تنافس الدموع فى حائط المبكى.. جسدها كالشمعة المصلوبة.. المسلولة فى ظلام لا يهدأ.. لايخمد.

إنها حفيدة السيدة العذراء التى أسندت ظهرها إلى جذع نخلة.. فى أرض طيبة تنبت القمح والزيتون والأنبياء.. فتساقط عليها رطباً جنياً.. فأكلت.. وشربت.. وقرت عينا.. غير أن الجنود الإسرائيليين أطلقوا عليها النار وهى فى لحظات المخاض.. وانصرفوا بعدما تصوروا أنها لم تلد.

إنها سهيلة سامى أندراوس.. وهو اسمها الحقيقى.

امرأة قالت: إن البطولة لا جنس لها.. وإن الرجال لا يحتكرون مجد الحياة.. ولا مجد الموت.. وإن المرأة يمكن أن تعشق أنبل بكثير مما يعشقون.. وتذوب أروع بكثير مما يذوبون.

لذلك.. كان لابد أن تقع فى هوى شاعر.. ليس أقل من شاعر.. إنه هوى تشتد فيه العواطف فى العواصف.. ويندمج فى هموم البشر أكثر من ضوء القمر.. إنه حب سنوات الخطر.. وقبل ثورة أطفال المقاومة بحجر.. حب عوضها عن الحياة بدون جواز سفر.. بين البشر.

جذورها فى حيفا.. وُلدت فى بيروت.. تربت فى الكويت.. قرأت ما ينشر فى القاهرة.. تحول جسدها إلى غربال من ثقوب رصاص أطلق عليها فى مقديشيو.. أنثى من الموزاييك العربى... أنثى من الأرابيسك.. وردة جميلة خرجت من جرح.. حبة حنطة خرجت من النكبة.. كان خنجر إسرائيل فى ظهر أسرتها التى خرجت من فلسطين إلى لبنان فى سنة ١٩٤٨ .. لم تقبل الأم ليلى السايح أن تجلس على رصيف الأمم المتحدة تبيع شعرها مقابل لتر حليب.. وعلبة سردين.. ولم يقبل الأب سامى أندراوس أن يقايض شكسبير وفولتير وأوسكار وايلد بطاقم من الملابس المستعملة من وكالة غوث اللاجئين.

فى بيروت.. حيث المنقوش.. وفطائر الزعتر.. والروشة.. ومكتبات شارع الحمراء.. والثورة التى لها ألف لون.. وألف مقهى، صرخت سهيلة صرخة الحياة.. ثم .. سافرت مع أسرتها إلى الكويت.. حيث خلقت أمها من حروف صحيفة «الرأى العام».. أقدم صحيفة هناك.. نورا وثقافة.

لكن.. سهيلة عادت من جديد لبيروت لتتعلم فى جامعتها.. فى سنة ١٩٧٢ .. وكان عمرها ١٩ سنة.. عرفت فى وقت واحد وليم شكسبير.. وجورج حبش.. «حكيم» الثورة الفلسطينية.. عرفت المعنى المحدد لعبارة شكسبير الخالدة.. «نكون أو لا نكون».. قررت أن تكون.. وتعلمت كيف تكون.

رفضت أن تكون لاجئة.. مسروقة.. ميتة.. مسطولة.. دائخة.. مقتولة فى زار.. أو فى سيرك.. حتى لو سموها مخربة.. فما هو القانون الذى يجعل منها إرهابية.. مخربة.. ويجعل من جولدا مائير رئيسة وزراء.. إنها قررت أن تستعيد وطناً هو فى الأساس ملك لها.. تأخذه من جولدا مائير التى كانت تتربع عليه بعد أن قلبت الآية.. وأضاعت المنطق.

قررت ألا تكون أحد الغرباء عن التاريخ.. وألا تبدو كرقاب المذبوحين.. أو كدموع المهزومين.. أو كأحزان المحزونين.. وتركت الحياة الناعمة فى بيروت.. حيث الكتابة على اللحم الأبيض باللون الأبيض.. وحيث خصيان الفكر يغرقون فى الخمر!!

قالت سهيلة لنفسها:

– ما عاد لأعصابى.. أعصاب.. لن أمكث فى قبو لأكون من الحريم أو من الأسلاب.

كنا فى سنة ١٩٧٧ .. سنة شعاع الوهم الذى ركبه السادات إلى القدس المحتلة.. سنة الغزل بين القنفذ والوردة.. والتفاوض بين الذئب والحمل.. فمن يمزق الورق إلى فتافيت فوق مائدة المفاوضات.. من يدلق الماء فوق رؤوس المتفاوضين.. من

يجبرهم على تذكر اسم فلسطين مليون مرة قبل أن يدخلوا الفراش ويطفئوا الأنوار ويحبلوا فى بنيامين نتانياهو؟!

قالت سهيلة: أنا!!

وخيم الصمت.. وانطلقت أسراب الدهشة من عيون الثوار.. الرجال.. كيف تقدر فتاة دافئة مثل مزارع البن.. بريئة مثل شجرة الصنوبر أن تلغى الحسابات السياسية.. والكونجرس.. والكنيست.. والسادات.. وتلغى الخرائط القديمة.. وترسم خريطة جديدة؟!.. كيف تتجاوز الكلمات العربية الكسيحة إلى أفعال عربية مكتسحة؟!

سافرت من بيروت إلى مايوركا.. فى أسبانيا.. ومن مطارها الغارق فى حبات اللؤلؤ البيضاء.. وأهداب الفجر السوداء ركبت طائرة «لوفتهانزا».. وبعد دقائق اختطفت الطائرة هى وثلاثة من رفاقها.. وأمرت قائدها بالتوجه إلى عدن.. ثم إلى مقديشيو.. وهناك أوقفت العالم على رجل واحدة.

كانت مطالبها الإفراج عن المعتقلين الفلسطينيين فى إسرائيل وألمانيا وإيطاليا.. وكانت تحلم بأن تصل إلى حكومة بون رسالة احتجاج وألم، لأنها تعطى لإسرائيل المال والسلاح، وتدفعها وتشجعها لوضع شعبها فى أحذية عفنة وتلقى بها فى البحر الميت.

فى مطار عدن.. فوجئ المختطفون بقائد الطائرة يترك الكابينة ويهرب كفأر مذعور.. إنه مثل حشرات السفن.. أول من يهرب منها.. لم يكن مثل الفرسان النبلاء.. آخر من يترك المكان.. وكان أن بدأ أحد أفراد العملية التهديد بالقتل حتى يعود الطيار.. ولكن بعد أن عاد احتدم بينهما النقاش.. فُقتل الطيار.

فى مطار مقديشيو كانت الخيانة تنتظر الرشوة.. كانت الرشوة مغرية ١٢ مليون دولار.. أخذها رجل باع بلاده للسوفييت.. وللأمريكان..

وللقبلية.. وللطائفية.. هو الرئيس سياد برى.. إنه مستعد أن يرهن شمس بلاده لدى كل المرابين.. وأن يبيع القمر والغابات والمحيط والقرن الأفريقى بالملاليم.. أن يبيع الكحل الطبيعى فى عيون الصوماليات، وأن يُجهضن قبل أن يعرفن الحبل.

وافق سياد برى على اقتحام الطائرة بعد أن اطمأن على أن الرشوة استقرت فى حسابه فى سويسرا.. ووافق على أن يتولى الاقتحام أفراد من الكوماندوز جاءوا على جناح السرعة من بون ولندن.. ولعلع الرصاص فى المطار الراقد فى حضن المحيط.. وقُتل ثلاثة من المختطفين.. وأصيبت سهيلة بعشر رصاصات فى مختلف أنحاء جسدها.. وحاصرتها كتيبة إعدام لإطلاق الرصاص على رأسها.. لكن.. ضابطا صوماليا كان مع المقتحمين.. وجد ذرة فى قاع ضميره تؤلمه.. فتدخل لإنقاذ ما تبقى من شرف حكومته.

لقد سقطت سهيلة على أرض مطار مقديشيو.. لكن.. شعرها المتناثر كان يفرش تراب وطنها.. وكانت ابتسامتها بريئة مثل ابتسامة طفل فى انتظار سانت كلوز.. الذى لم يأت ليعطيها هدية غالية عليها.. اسمها فلسطين.

إنها من شدة الزهو والزهد تمنت أن تموت.. أن يعود النهر إلى منبعه.. والشجر إلى منبته.. والمشرد إلى وطنه.. لكنها.. وجدت نفسها فى مستشفى.. ثم فى محكمة.. ثم فى زنزانة بعد أن حكمت عليها محكمة صومالية بالسجن ٢٠ عاماً.. أمضت منها عاماً ونصف العام.. ثم أفرج عنها سياد برى إفراجاً صحيا بعد أن تدهورت حالتها الصحية.. وخشى أن يعلق موتها فى رقبته.

وغادرت سهيلة مقديشيو إلى بغداد.. ومنها إلى براغ للعلاج.. ومنها إلى بيروت.. حيث قال لها ياسر عرفات: سهيلة.. أنت بطلة من أبطال شعبنا.

ولم تكن هذه العبارة تكفى.. كان لابد أن يقول لها العرب من الماء إلى الماء.. من دبى إلى طنجة.. سامحينا يا سهيلة.. فقد حولتنا التبعية إلى

لاجئين فى بلادنا.. إلى مهاجرين فى أنفسنا.. إلى مسحوقين.. متعبين.. قرفانين.. يحكمنا ملوك سيرك.. وزعماء يضعون على صدورهم نياشين فى أغطية زجاجات السفن أب.

لكننا.. خرسنا.. وهربنا من البرودة والغربة إلى الحشيش والجنس وبلاد النفط.. بحثاً عن دفء لم يأت.. وسهيلة نفسها بحثت هى الأخرى عن الدفء الذى لا يأتى.. عادت إلى بيروت لتكمل دراستها.. وبينما مصر وإسرائيل تتبادلان السفراء، حصلت على البكالوريوس.. وعندما كانت تتسلم شهادة آداب اللغة الإنجليزية وجدت نفسها تبتسم وهى تتذكر عبارة شكسبير الخالدة: نكون أو لا نكون؟!

فى صيف غزو لبنان.. صيف ١٩٨٢ .. تحول السؤال إلى إجابة قاطعة.. لانكون.. على الأقل فى بيروت.. وكانت دمشق المحطة التالية فى قطارها الذى يمد خطوطه الحديدية حسب مؤامرات النظم العرمكية.. أى العربية الأمريكية.

فى العام التالى أحبت أحمد أبومطر.. إنه شاعر وكاتب من بلادها.. ومن جنسها.. وطرازها.. يصر على أن يكون داخل الأشياء لا خارجها.. لا يبيع كلمته فى سوق البغاء.. ولا يعيد فى مقالاته وأشعاره «رجوع الشيخ إلى صباه».

وبعد عامين من الحب والشعر والحلم والألم.. جاءت طفلتهما.. ليلى.. اللام.. ليمون يافا.. الياء.. يوم حلو.. ويوم قادم مر.. وكان اليوم المر خروجها من دمشق فى صيف ١٩٩٠ إلى قبرص.. لكن.. قبرص لم تحتملهم.. ولماذا تحتملهم والدول العربية.. الثورية.. والرجعية.. والواقفة على السلالم رفضت إقامتهم.. ولم تسمح بدخولهم.

«سرقوا منا الزمان العربى

«أطفأوا الجمر الذى يحرق صدر البدوى

«علقوا لافتة البيع على كل الجبال

«سلموا الحنطة.. والزيتون.. والليل..

وعطر البرتقال..

«منعوا الأحلام أن تحلم.. ساقوا

«كل أنواع العصافير التى تكتب شعراً

«إلى السجن.. فهل جاء زمان؟!

«صار فيه كل من يحمل صندوق سلاح

«كالذى يحمل صندوق حشيش..

«ثم هل جاء زمان؟!

«أصبح التحرير والتخدير فيه توأمين..

«ثم هل جاء زمان؟!

«أصبح الفعل به ضد اليدين

«ثم هل جاء زمان؟!

«صار فيه الحرف ضد الشفتين؟!

نزار قبانى - ١٩٧٧.

نعم.. جاء هذا الزمان.. وألعن منه.. فقد اضطرت سهيلة.. وأحمد.. وليلى أن يسافروا إلى النرويج.. وأن يطلبوا حق اللجوء السياسى فى أحد بلاد الشمال.. بعد أن ضاق الوطن الأكبر بهذه الأسرة الصغيرة.

فى أوسلو عاشت.. وفى أوسلو تفاوض ياسر عرفات سراً مع إسرائيل.. فى أوسلو حبلت القضية الفلسطينية باتفاق غزة وأريحا.. وتساءل الناس عن نوع المولود الذى يأتى من دخول فيل وحمار مخطط الفراش.. ولم يهتم أحد بالإجابة.

لكن.. بينما الصواريخ النارية تطلق فى القاهرة وواشنطن وطابا وغزة احتفالاً بالمولود.. كانت السلطات النرويجية تعتقل (فى ١٣ أكتوبر ١٩٩٤)، سهيلة بناء على توصية من السلطات الألمانية.. بتهمة عمرها ١٧ سنة.. سبق أن حوكمت عليها.. وسقطت بالتقاضى.. هى خطف طائرة (لوفتهانزا).

تحركت الأصابع الخفية للصهيونية.. فتشت فى الدفاتر القديمة والملفات القديمة.. وكان أن وجدت عملية سهيلة.

وطالبت بون، أوسلو بتسليمها.. لكن المحكمة رفضت فى ديسمبر ١٩٩٤ الطلب، وقضت بعدم شرعية تسليمها لألمانيا.. واستأنف المدعى العام الحكومى.. ومرة أخرى رفضت المحكمة التسليم.. وكرر المدعى العام الاستئناف، وتدخلت وزيرة العدل النرويجية لتغير المحكمة والقضاء والحاجب والحراس والأوراق.. وكان أن سُلمت لألمانيا فى نوفمبر ١٩٩٥، ولم يحتمل أحد انتظار سهيلة لتجرى جراحة فى ركبتها.. وبدأت محاكمتها فى هامبورج فى أبريل ١٩٩٦ فى جو مشحون بالعداء والكراهية.. وحشدوا ٨٢ شاهداً ضدها.

وقبعت سهيلة فى حبسها.. ترفض الحياة.. والحوار.. وعرب الملح.. وعرب النفط.. وعرب الصلح من كامب ديفيد إلى أوسلو.. الأمطار أصبحت فى عينيها رمز الجفاف.. والأرحام رمز الشوك.. والجلود رمز الحجارة.. والفراش رمز البرودة.. والنظم العربية رمز القش والكرتون وزواج المتعة من إسرائيل.

المآذن مقلوبة.. والعباءة العربية مشنوقة.. ومنصات الإعدام منصوبة.. وأجهزة الإعلام مصابة بالخرس.. كل القوى الموجودة فى هذا العالم العربى الممتد من المحيط إلى الخليج عاجزة عن إنقاذها.. فلماذا لاتموت.. لماذا لاتستسلم للموت.. حتى لاتعيش الأسوأ.. حتى لاترى ماهو قادم..

●●

سجن هامبورج..

١٦ مايو ١٩٩٦ ..

من سهيلة أندراوس إلى أحمد أبومطر..

أحمد.. غال أنت، ولكننى أريد أن أرفض كل ماهو غال لدى ابتداء بك.. ثم ليلى ثم إياى ثم Sveim ثم جميع الآخرين.

لقد تخلصت من جميع أسلحتى أو بالأحرى فقدتها.

لن أقاوم رغبتى القوية بالاستسلام.

إننى أتعرض لإهانات دائمة، وأنت تعرفنى جيداً وتعلم أن الموت، الضرب الجسدى، القصاص.. كل هذا أهون عندى من أن أهان، أن أعامل كمجرمة!!

حتى أستطيع مواجهة الإهانات والتشريح المستمر يجب علىّ أولاً أن أتحول إلى إنسان آلى.. دون عواطف.. دون مشاعر.

لأحقق ذلك يجب أن أتخلص من مشاعرى نحو من أحب، وأن أحاول جهدى (هذه هى معركتى الحقيقية) بأن أجعلكم تنسون وجودى وخاصة ليلى.

عادة وجود «ماما» لابد أنها قد بدأت تختفى من حياة ليلى.

متأسفة.. إن قرارى هذا كان يتطلب نقاشاً معك إذ أنك الوحيد الذى على عاتقه كل نتائج مثل هذا القرار.

لن أطيل رسالتى لأننى لا أقوى على التعبير أو على مواجهتك بأفكارى وأحاسيسى.

لاحقاً ستصل Sveim (أغلب الظن أنه اسم صديق) رسالة مطولة تشرح كل شىء.. سوف أطلب منه أن ينقل لك ما تتضمن.

لا أريد أية زيارات من أحد، وخاصة من ليلى، حاول أن توجد عوائق طبيعية فى

المرحلة الأولى اللاحقة، بعد ذلك يصبح الأمر أسهل.. الأطفال قادرون أكثر منا على التطبع والنسيان.. بالطبع لا يخلو الأمر من ألم، ولكن الألم سيكون أشد إن لم تبدأ ليلى، وأنت منذ الآن بتقبل الحقيقة أنه لن يكون لى وجود فى حياتكما سنوات طويلة.

وربما أبداً.. من يعرف قدره؟!

لا تقطع علاقاتها بالوطن العربى، بل وثقها.. ليلى مستقبلها فى النرويج.. سنوات قليلة، وسوف تعتمد على نفسها، ففكر أنت بنفسك أيضاً.

لا تُضحِ، عمرك وطموحاتك أكثر.

لقد ضحيت بما فيه الكفاية.

لن يلومك أحد.

ليلى ستجد طريقها سواء كان مليئاً بالأشواك أو بالزهور، مهما فعلنا فقدرها مثل قدرنا الفلسطينى: ألم ثم ألم ثم ألم.. لا مفر، وهى ليست أغلى من أطفال فلسطين.. كل التضحيات كانت من أجلها، من أجل أن ننقذها من القدر الفلسطينى.. لقد فشلنا.. فلنعترف.. الاعتراف بداية لتقبل الواقع المر.. والأهم أننا هذه المرة حاولنا نسيان فلسطينيتنا.

ولكنهم أصروا على أن يذكرونا! يؤلمنى أيضا بالإضافة إلى كل البديهيات الأخرى أن نصبح «شحاذين» كلمة قوية وصاعقة، ولكن هذا ما أشعره.. أصدقاء يجمعون نقودا لمحكمة (أو محاكمة) نتائجها واضحة لى.. لا.

الكرامة أولا وأخيرا يا أحمد.

كرامتى. كرامتك وكرامة ليلى وأهلى تمنعنى من الاستمرار بهذا الشكل.

كنا نوزع المال والهدايا على الناس، واليوم..

لذا سأستغنى عن Heidi (محاميتها) فالتكاليف لامعنى لها بنتائج معروفة مسبقاً.

لن أستقبل أى زيارات.

لن أجيب عن رسائل.

لا أريد محبة أحد.

لا أريد أن أحب أحداً.

لا أريد أن أكره أحداً، لذا سأتحول إلى آلة.

قرارى النهائى.. فتناسوا أننى وجدت يوما..

أعلن فشلى.. وليكن ما يكون!

أعلن فشلى باختيارى، وهذا يعنى كرامة!

وأعرف أن هذه صدمة لكل من يثق بى، بقوتى وقدرتى على المقاومة.

أعرف أننى بذلك سأسقط فى عيون كثيرة.

إننى لا أسقط أو أتساقط.

العدل فى هذا العالم هو الذى يتساقط.

سقوطى وفشلى هو التحدى الوحيد الذى أملكه لمواجهة سقوط العدل.

فشلى هو تحد للاعدل.

وهم يصنعون منى شهيدة جديدة.. وأنا لا أريد هذا!

لن أوقع رسالتى، فليس لى اسم، جردونى منه، كما جردونا من أى انتماء. من أرضى.. من وطنى.

اسمى وأنا لا معنى لهما مقارنة بالوطن.

أصبحت أكره اسمى!

وصيتى الوحيدة.. حافظ على كرامتك البدوية الأصيلة مهما كانت التضحيات!

انتهت.

وتنتظر سهيلة الموت..

ولن نستطيع أن ننقذها.. إذ كيف ينقذ موتى من لا يزال على قيد الحياة.

●●

لكن..

الأحزان تختلط بالأحلام.

والحياة تصر على قهر الموت.

وضوء الشمس يقاوم بشدة عتمة زنزانة سهيلة.

أوسلو - النرويج.

أول يوليو ١٩٩٦ .

من أحمد أبو مطر

إلى عادل حمودة

أخي وأخي عادل حمودة:

«لا قمر في بلادنا يمكن انتظاره».

إنه ليس كلام شعراء، ولا نفر من (الغاوين) الذين يتبعونهم.. فالقمر يغار ويخجل من الإطلال على ربوعنا وأطلالنا..

سرقوا منا القمر

وباعوا الحلم

وأوهمونا بـ(وطن)

وصاح الجلاد

لا حلم ولا مفر

هربنا من جحيم الأنظمة القومية المهمومة بالتحرير، إلى جنة الديمقراطية (أوسلو)، فإذا الجحيم والجنة عندما يتعلق الأمر بـ(فلسطينى) سيان.. فجنته جحيم، وجحيمه جحيم..

العدالة هنا تمشى على رأسها، والديمقراطية لا تعنى العدالة.. مواطن نرويجى أشقر (ناصع البياض) أمضى فى السجن سبعة عشر عاماً بتهمة القتل، ثم اكتشفوا براءته، وأن القاتل الحقيقى من أقارب القاضى الذى حكمه.. بحثوا عن القاضى لمحاسبته، وجدوه قد مات..

مات القاضى!

ماتت العدالة

العدالة للقوى

ليلة الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٩٤ ، جاءت (العدالة) النرويجية - عرّابة اتفاق أوسلو البائس - لتعتقل سهيلة أندراوس، عشرة أنفار مدججون بالسلاح المخفى خلف ظهورهم، ووراء بطونهم، وكافة أنواع أجهزة الاتصالات، والشارع والبناية مطوقان بالجند والعسس وحراس أول الليل وآخره..

عندما دخلوا الشقة المتواضعة، هالهم المنظر وأفزعهم..

■ سيدة شقراء - مثلهم - جميلة، فى عمر الورود..

تنام فى حضنها طفلة.. طفلة..

والجدران كل الجدران مغطاة بالكتب والصحف والمجلات.

■ أنت جميلة الجميلات!

امرأة طالعة من حروب الإلياذة؛

اسمك منقوش فى نشيد الأناشيد؛

يطلع صبحا مع أشعة الشمس؛

ينثر شعرك الفضى على رمال حيفا؛

يعشقك الشعراء؛

يكتبون فيك ولك (أوديسا) العصر.

■ من قال أنك (سهيلة)؟!

أنت (صعبة) المنال.

ركبت الصعب طريقا لوطن؛

حلمت به؛

تضخم الحلم.

فصار الوطن،

ابنا وزوجاً،

طفلة عرفت منك أن الأم وطن.

■ لم أعرف، ولم أسمع، ولم أقرأ عن شابة، امرأة، أنثى، حلمت بفلسطين مثلك.. عرفت فلسطين من كتب الجغرافيا والتاريخ فقط، فصارت كافة تضاريسك منسوخة من جغرافيا فلسطين، والعبورإلى قلبك لابد أن يمر بالتاريخ...

■ قبل أن أسرق قلبك؛

كتبت الوطن شعرا ونثرا

وعندما استقررت فى وجدانك؛

صار شعرى أكثر بلاغة.

ونثرى صار شعراً..

وكلاهما يمتطيان الوعر

وصولاً للوطن

وإقامة فى قلبك!

■ معك زادت، ترعرعت، مواهبى؛

صار شعرى رسماً.

عرفت الكتابة بالألوان؛

الذهبى منها،

فهو لون شعرك، وبرتقال يافا،

والشاطئ الرملىّ فى حيفا.

سأل واحد من حراس آخر الليل، تلك الليلة، بعد أن تفقد الكتب كلها: هل يوجد فى البيت أسلحة؟ أجبته: نعم.. نعم، وهى كثيرة. استنفر زملاءه، فقد صعقتهم الإجابة الصريحة التى لا تصدر إلا عن مجنون أو متهور.. قال: أين هى؟ وهل هى تخصك أم تخص سهيلة؟. أجبته: إنها تخصنا جميعاً، سهيلة وأنا والطفلة ليلى! أسرع يسأل: أين هى؟ أجبته: هى تلك الكتب والمصادر والمجلات، فهى سلاحنا الذرى الرهيب، وأنت فقط لم تشاهد بقية مستلزمات الأسلحة، وفتحت الدرج، ونثرت فى وجهه مجموعة من الأقلام والأوراق.

ارتاح الحراس، فهذه الأسلحة لا تخيفهم، وأيضا لأنهم لا يعرفون (أنه فى البدء كانت الكلمة)، فهم لا يقرأون إلا سفر (يشوع)، وينسون أن المسيح قد قال: «ماجئت لألقى سلاماً، بل سيفاً».

■ صحافى نرويجى، كتب يذكر حكومته أثناء محاكمة سهيلة فى أوسلو، بأن

السجن الذى تعرضت له سهيلة فى الصومال لمدة عام ونصف، يساوى أكثر من سجن عشرين عاما فى سجون النرويج، فلا أحد بحاجة لتوصيف سجون الصومال عام ١٩٧٧، خاصة معاملة (امرأة) غريبة، قالوا للسجّان إنها (خاطفة طائرة)، وتستحق العقاب..

■ البروفيسور أندرس براثهولم، أستاذ القانون الدولى فى جامعة أوسلو، فى مقابلة تليفزيونية، بعد قرار وزيرة العدل النرويجية بتسليم سهيلة لألمانيا، سألها ساخراً: هل قرأت القرار سعادة الوزيرة قبل توقيعه؟. وكان يقصد أن قرار التسليم، كان معدا وجاهزاً، وكل دورات المحكمة، كانت مجرد ديكور لتزيين ديمقراطية مزيفة لا تعنى العدالة!

■ سيلفيا روفائيل، أول امرأة نرويجية (الآن) كتبت تطلب عدم تسليم سهيلة لألمانيا؟

سيلفيا روفائيل واحدة من عصابة الموساد التى اغتالت المواطن المغربى (أحمد بوشيكى) عام ١٩٧٢ فى مدينة (للى هامر) النرويجية، معتقدة أنه المناضل الفلسطينى (أبو حسن سلامة).

آنذاك كانت (سيلفيا) تحمل الجنسيتين الإيطالية والإسرائيلية، طالبت بها حكومة إيطاليا، فرفضت حكومة النرويج، لأن إسرائيل يدها طويلة، وتحمى مواطنيها ومجرميها أيضاً..

■ ورغم ذلك يريدون إقناعنا بسلامٍ ما بعد أوسلو.. إنه سلام لإسرائيل فقط كما قالت سهيلة فى محكمة هامبورج.. «إن الذين يقدمون المال والسلاح لإسرائيل لقتل شعبى، هم الذين ينبغى أن يحاكموا وليس أنا».. هكذا قالت سهيلة فى محكمة هامبورج يوم ١٧ / ٦ / ٩٦، فضجت قاعة الزوار بالتصفيق من العرب والألمان أيضاً..

■ لو أنهم يملكون قليلاً من الحياء فقط!

لو أنهم يملكون قليلاً من العدالة فقط!

لو أنهم يملكون قليلاً من الضمير فقط!

لأجابوا:

● كيف يمكن محاكمة (إنسان) على نفس العمل مرة ثانية وثالثة؟!

■ هل تصدقون.. فى لحظات الإحساس بالهزيمة، وغياب العرب العاربة والمستعربة، واستباحة الشرف والعرض العربيين، كثيرا ما فكرت فى غبائى، لأننى لم أحاول منذ سنوات العمل من أجل الحصول على الجنسية الإسرائيلية؟!!

■ لزوم ما يلزم معرفته.

كلنا.. صحفيين وكتاباً.. شعراء وفنانين، وكل من تضامن مع هذه (السهيلة)، كتب متضامنا مع المناضلة التى أعطت فلسطين جسدها وروحها..

ووسط هذا التضامن الضرورى والرائع نسينا، أن هذه (السهيلة) أيضاً صحفية وكاتبة ومترجمة. فهى حاصلة على درجة البكالوريوس فى آداب اللغة الانجليزية، وقد عملت صحفية عدة سنوات فى جرائد عربية، ومجلات أجنبية، أهمها (Arab Buisness Rebort) فى بروكسل.

وهذه (السهيلة) هى التى ترجمت عام ١٩٨٦، من الإنجليزية إلى العربية كتاب (عمليات ضد العالم الثالث - اغتيال أنديرا غاندى) للكاتب والمناضل الهندى (شيل بادرا ياجى)، وصدر عن دار صبرا للنشر فى قبرص ودمشق..

■ فقط للعلم، بأننا نتضامن مع مناضلة، ومع زميلة سلاحها مثلنا القلم والكلمة!

■ هل صحيح ماورد فى كتب التاريخ العربى؟. هل صحيح أن (المعتصم) استباح (عمورية) فقط لسماع صيحة امرأة عربية قالت: (وامعتصماه)!

● إلى كل (معتصم) اليوم، فقط أرسلوا مذكرة، نداء، استغاثة، فلا مكان للجيوش اليوم، بعد نظرية (الأرض مقابل السلام)..

● أخذوا الأرض والعرض.

استباحوا أجسادنا.

واغتصبوا (أرواحنا).

ونقايضهم:

أرضاً بسلام!

■ ■ أيتها السهيلة الصعبة

يا امرأة أعطت الوطن - الحياة كل ما تملك؛

رغم ضعفك الآن،

وهزال جسدك؛

وقسوة سجّانك؛

إلا أنك:

سوف تخرجين قوية كما عرفتك.

فيك الأنوثة والعنفوان؛

جسدك زورق نحو الوطن؛

ينتظرك محبوك والقمر!

أحمد أبو مطر

■ ■

انتهت..

ولاتزال النهاية مفتوحة.

فمن يغلق مثل هذه الملفات الإنسانية!



١٢

امرأة سندويتش
بمليـــون جنيه

مثل كل بنات القمر كان يشغلها الحب.. يؤرقها.. يفرض نفسه عليها.. لكنها.. لم تكن تريد الوقوع فى الحب.. وإنما تريد أن تعرف ما هو الحب.. ماعمره.. ما أصله.. من أين جاء.. وبأى جواز سفر يتنقل؟

إنها تعرف أنه ليس للحب صورة فوتوغرافية.. لا سكن له.. لا عنوان.. لا شهادة ميلاد.. لا عمر افتراضى.. لا انتهاء للصلاحية.. ورغم ذلك عليها أن تتعرف عليه لتضعه فى رسالة الماچستير التى تعدها عن: بارتولدى.. الحياة.. الحب.. الحرية.

إن بارتولدى هو النحات الفرنسى الذى حفر وجه حبيبته جان فى أشهر تمثال صلب فى العالم.. تمثال الحرية.. الذى يرتفع ٣٠٠ قدم فى وجه القادمين إلى نيويورك منذ أن كانت أمريكا حلم الهجرة والحرية.. قبل ١٠٠ سنة وحتى أصبحت رمزاً للإمبريالية.. الآن.

لقد كان بارتولدى متشوقا للحرية فى وقت كانت فيه فرنسا تعانى من القهر والقسوة تحت سطوة وسيطرة نابليون الثالث وشعارات الزهو، والمجد التى لم تكن تكفى نصف كاتب واحد ليعبر عن نفسه.. وكانت جان الموديل التى أحبت الفنان.. منحته الحب.. وفجرت فيه الحرية.. وجسدتهما معا فى التمثال الشهير.

كان عليها أن تصل لتعريف الحب حتى تفهم سر النار المقدسة التى تسرى فى عروق الفنان.. فتحول الحجر بين أصابعه إلى لغة وألوان وثورات ونيران تُدفىء برد الفقراء.. والمعذبين.. والطامحين إلى فجر يوم جديد، ترسل فيه شمس الحرية جدائلها الذهبية.

قال لها المعمرون: إن الحب يهبط فجأة من مغارة فى رأس الجبل ليشترى خبزاً وقهوة وكتباً وصحفاً ومجلات.. ثم يختفى.

قال لها سكان الشواطئ: إنه يخرج من أعماق البحر راكبا الأسماك والأمواج

ليلعب مع الأطفال.. ويرش مسحوق النار فى ثياب استحمام الرجال والنساء.. ويصنع قصوراً وقلاعاً من رمال.. ثم يغوص مع الغروب عائداً إلى بيته البحرى.

طلاب الجامعة اندهشوا من السؤال.. ارتبكوا.. لكنهم قالوا: إن الحب يخرج من الكشاكيل وهوامش الكتب والمدرجات المزدحمة والأتوبيسات المزدحمة.. ويبتسم لهم، ويعطيهم زهوراً وأقماراً وأفلاماً وفطائر محشوة عسلاً.. ثم فجأة لا يجدونه أمامهم.. يذوب فى الزحام.

فى أرشيف البوليس وجدت صورة مرسومة بالقلم الرصاص.. اسكتشا لرجل عصبى الملامح.. متوتر مضطرب.. يدخن كثيراً.. يشرب جالون قهوة.. وجالون بيرة.. وطن أقراص مهدئة ومخدرة.. ويغرق فى أحزانه.. ومطلوب فى مليون جريمة على الأقل.. وقالوا لها: هذا هو المتهم .. هذا هو الحب الذى تبحثين عنه.

قالت لها أمها: لا تحيرى نفسك ياابنتى.. الحب وجبة شهية تصنعها فى مطبخها المرأة الشرقية.. مثل المسقعة والفتة والملوخية.. خذى ثلاث ملاعق من العواطف وضعيها فى نصف لتر حليب، وقالب زبد يذوب من حرارة قلبك.. وبعد نصف ساعة من الغليان على نيران الرغبة اقتسمى الوجبة أنت وزوجك فى الفراش.. فى لحظة ما يتوحد فيها اثنان سيقدم الحب نفسه إليك.. سيكون فى خدمتك.

لكنها.. جربت هذه الوصفة كثيراً، ولم يخرج الحب من تحت الأرض أو من تحت الغطاء ليكون فى خدمتها.. إن المصباح الذى فى فراشها ليس مصباح علاء الدين.. مجرد مصباح من النحاس البارد.. لا عفريت يرقد مكبوتا محبوسا فى قاعه.. ولا تدليك يستنفر سطحه أو جلده.. ولا نيران تمكث طويلا على طرفه.. وشعلته.. الزيت جف.. والزمن جف.. والدماء والعروق جفت.

لقد سرق منها الدفء وأعطاها كرة من الزجاج الملون تلعب بها وتسلى وحدتها وغربتها فى الفراش.. أجبرها على أخذ أجازة بدون جنس من أنوثتها.. ثم أقنعها

بالاستقالة.. وكانت مكافأة نهاية المتعة مغرية. عائلة الأشياء الشبح.. سيارة شبح.. فيللا شبح.. حساب فى بنك سويسرى.. شبح.

إن الشبح أصبحت كلمة سحرية في هذا العصر الذى يضع على كل شيء طاقية الإخفاء.. الثروة.. السلطة.. الكلمة.. الصفقة.. المرأة.. المعارضة.. كل شيء يظهر فجأة ويختفى فجأة.. لا تعرف لماذا لمع؟.. ولا لماذا انطفأ؟

لكنه.. والحق يقال.. معروف.. لم يظهر فجأة.. ولم يلمع فجأة.. وقاوم كثيرا حتى لا يكسروا مصباحه المعلق فى حبل من حبال السلطة.. حتى لا يحطموه من مكانه المرتفع فيصرخ وهو يرتطم بالأرض مهشما.. مبعثرا.. منثورا.. على أنه من شدة حرصه على أن يبقى مضيئا وجد نفسه يشد حبل السلطة المعلق فيه من رقبته أكثر .. وأكثر.. حتى اختنق ومات.. على الأقل فى عيون الناس.

إنه كاتب سياسى مشهور.. يهوى اللعب بالتاريخ.. ويعرف كيف يفصل منه حذاء فى قدم الواقع.. وهو لا يعرف كيف يهرب من تاريخه.. لقد أخذ الفقر فى سندوتش معه إلى المدرسة.. ونام على وسادة من الحجارة فى غرفة تحت بئر السلم، لها رائحة وليس لها لون.. لها طول وليس لها عرض.. وحاول أن يأكل الكتب بدلاً من الخبز.. وباع تفوقه فى صورة.. «برشام» لزملائه الكسالى والأغنياء.. وباع جسده لزوجة تاجر مخدرات يقضى سنوات العقوبة فى السجن.. وتقضيها هى فى الفراش.. كان يريد نار الشواء، وكانت مشتعلة بنار الاشتهاء.. اللقمة مقابل القبلة.. اللبس مقابل الجنس.. لكنه بعد فترة لم يعد يقنع بهذه المقايضة.. النقود أكثر حرية.. وهو يحتاجها لأشياء أخرى.. مصاريف الدراسة.. وثمن الكتب.. والمواصلات.. مثلاً.. ولم يتردد فى توسيع نشاطه.. إن جسده هو البضاعة الوحيدة التى يملكها والتى يقدر على بيعها.. والدعارة ليست امرأة فقط.. إنها رجل أيضاً.. بل إن الرجل فى الدعارة يكون أكثر ثمنا، وأكثر عهراً وأكثر تفريطا لأنه يقدم خدماته مجردا من المشاعر لمن يدفع بسخاء.. عواجيز وشواذ.

لقد تعلم بعرق جسده.. وكافح طويلاً ليخرج من تحت الأرض.. حيث لا حرام ولا حلال.. فليس بعد الفقر ذنب.. إن الجوع هنا كافر.. والشبع هناك كافر.. وبينهما مسافة من الشك ومن اليقين.

وفى رحلة الخروج من تحت الأرض عبر بالوعة مجارى أحب التاريخ.. فالتاريخ كان يمنحه الأمل فى أن يصبح مثل الأبطال والنجوم المسحوقين الذين أصبحوا زعماء.. والتاريخ يعيد نفسه.. يكررها فلماذا لا يأتى عليه الدور ليصبح مثل هؤلاء؟.. إن جمال عبدالناصر ابن بوسطجى.. وأنور السادات ابن ممرض.. وهتلر بدأ مشواره نجارا.. وموسولينى حفيد جزار.. ومرجريت تاتشر ابنة بقال وخياطة.. وماوتسى تونج باع جسده مثله قبل أن يصبح ثائراً.. ويقود مليار إنسان إلى الخلاص.. فما المانع أن يصبح ابن بواب معدم مثله.. مثلهم؟

إن العالم لا يحترم الضعفاء.. ولا يشفق على المذبوحين.. ولو كانت ظاهرة قتل النجوم هى تسلية المعقدين والفاشلين الذين يمارسون عبادة الظلام، وينزعجون إذا بقيت نجمة واحدة تتلألأ فى سماء هذا الوطن.. فلا فرق أن تكون محترما أو منحرفا.. المهم أن تظل موجودا وطافيا على السطح.. هكذا أقنع نفسه.

وهكذا.. قرر أن يعيش كنباتات الفطر على جلد السلطة.. ليكون فى خدمتها.. إن السلطة فى حاجة - دائما - لمن يفسر التاريخ على هواها.. ويعيد روايته بما يرضيها.. فى حاجة لمن يشنق التاريخ من رجليه لتراه مقلوباً.. وهو ما يسعدها كثيرا.. لأنه يشعرها بالزهو والإنجاز والتميز.. فلو كانت السلطة اشتراكية احتاجت لمن يقرأ لها التاريخ بعيون كارل ماركس.. ولو كانت السلطة إسلامية احتاجت لقراءة التاريخ بعيون سيد قطب.. ولو كانت السلطة فاشية استدعت هتلر ليعيد رواية التاريخ.. ولو كانت السلطة.. سلاطة.. استمعت للتاريخ من شهريار.. البطل المتوج لألف ليلة وليلة.

وهو كان مستعداً لأن يكون ماركس وقطب وهتلر وشهريار حسب الحاجة.. لقد كان فى خدمة ثورة يوليو.. فوضع فى كتاباته قنبلة موقوتة تحت سرير النظام الملكى.. وحفر قبر سعد زغلول.. وأخرجه من أكفانه ليشهر بحياته.. وثورته.

ثم. مات جمال عبدالناصر.. فقام بتفجير ثورته بما فيها، ومن فيها.. وجرد أبطالها من ثيابهم، ومن جلدهم وتركهم عرايا بغير ملامح ولا هوية. ثم.. مات أنور السادات.. فتحول عصره.. على سن قلمه - إلى عجينة رخوة.. وكائنات رخوة لا تنتمى إلى هذه الأرض.. ولا تتكلم لغتها.. ولا تعانى همومها.. ولا تشبه الناس فى مصر من قريب أو بعيد.

إنه لم يعد كاتبا.. وإنما قاطع طريق.. قلب الآية.. أصبح مع القبح ضد الجمال.. ومع العتمة ضد الشمس.. ومع القنفذ ضد الخضرة.. ومع المرض ضد العافية.. ومع الحيتان ضد الفقراء.. ومع البنادق ضد العصافير.. ومع أكلة لحوم البشر ضد الإنسان.. ومع سارقى الأكفان ضد الحياة، ونسى دروس التاريخ ودروس العشق التى تقول: أن السلطة مثل المرأة.. مثل كل ما هو مؤنث.. الأكثر ابتعادا هو الأكثر اقترابا.. والأكثر اقترابا هو الأكثر ابتعادا.. إنها مسافة الشوق التى تحدد حرارة الرغبة.. فالشفاه الأكثر تساهلاً هى شفاه تعانى الإهمال والحرمان.. فقد فقدت الشوق إليها.. وزمار الحى لا يطرب.. والولى البعيد سره باتع.. والكاتب القريب من السلطة هو موظف عمومى، غير مسموح له بخيانة الحكومة مع المعارضة.. أما الكاتب المعارض.. أو الكاتب المستقل فهو حلم السلطة إلى أن تناله.

لكنه.. لم يفهم ذلك.. ولم يحاول أن يفهم.. ويوما بعد يوم.. ومقالة بعد مقاله ازداد انهياره.. وبعد أن كانت التعليمات تأتى له أصبحت تنبع منه.. أصبح حكوميا أكثر من الحكومة.. بل.. إنه تجاوز الكتابة إلى تقديم خدمات أسوأ.. لبعض الأجهزة السرية.. التشهير بخصومها.. والترويج لشائعات قذرة عنهم.. إنه نفسه تولى حملة

تشهير ضد كاتب معروف.. فشلوا فى الرد عليه.. ولم يجدوا فى سمعته أو ذمته ثغرة.. فوصفوه بالشذوذ الجنسى.. إنها ضربات الضعفاء تحت الحزام، وهو قد استخدم كثيراً فى مثل هذه المهام القذرة.. لقد باع جسده.. ثم باع روحه.. ثم باع قلمه.. فلماذا لا يبيع ضميره ولسانه؟.. إنه مستعد دائماً للبيع.. وبأى سعر.. مع تقديم تسهيلات فى الدفع.. وهو يحب من يبيع مثله.. وقد باعت له نفسها وجسدها وطفولتها وأنوثتها وحيويتها وجمالها.. وأخذت منه مليون جنيه.. جزء منها «كاش» وجزء آخر «بضائع».. دفعها راضيا.. فهو فى الصفقات يفضل أن يكون كل شىء واضحا.

إنها مثله رغم فرق العمر.. فقيرة ومتفوقة.. معدمة وطموحة.. تحلم بالنجاح وتكره الفقر.. وقد قررت تغيير جلدها كما غير هو جلده.. وقررت تغيير صوتها وشكلها وأوانى الطعام، وطراز الفراش.. مثله.. لكنها.. وهى تعد رسالتها الجامعية كان عليها أن تعرف الحب حتى تحصل على مرتبة الشرف.. إنها لا تعرف الحب.. لم تجربه.. وتتعامل معه أكاديميا كما تتعامل مع المصطلحات الجافة.. الحرب.. الحرية. الاستراتيجية.. الرأسمالية.. الكونية.. مثلاً.. لكن هذه المصطلحات واضحة.. محددة.. قاطعة.. لا خلاف عليها.. أما الحب فله ألف وجه.. وألف شكل.. وألف وزن.. فأى تعريف له تختار؟

سألت أستاذها المشرف على الماچستير: كيف تنجو من هذه المشكلة التى تعطلها؟

قال لها: إن رسالتك عن فنان.. اذهبى إلى فنان مثله.. وخذى تعريف الحب من فمه وألوانه!

تركت سيارتها الشبح أمام مسجد سيدنا الحسين، واخترقت الشوارع الخلفية والحوارى الضيقة التى أعادت لها ذاكرتها القديمة فى حى باب الشعرية الذى عاشت فيه أيام الشقاء والحرمان.. ووجدت نفسها فى وكالة الغورى.. إنها لا تعرف فنانا

بعينه.. لكنها.. تعرف أن هذه الوكالة الأثرية.. المملوكية قد أصبحت اتيليهات للفنانين.. يرسمون فيها وينحتون ويبدعون.. وهى ستطرق أول باب.. لتحصل على ما تريد من أول فنان يصادفها.. إن الأمر لن يستغرق نصف ساعة.. لا أكثر.

طرقت بابا.. لم تجد ردا.. فتحت الباب.. دخلت المرسم.. وجدت نفسها فى مخزن من اللوحات والألوان.. وجدت نساء فى صورة غابات مشتعلة.. وجنرالات فى صورة أحذية سوداء ثقيلة.. يغرقون فى مياه فى لون الحبر.. وجيوش أطفال من الياسمين.. وغزالة نائمة فى حضن قمر فى عمر الهلال.. وجدت ألوانا غير الألوان.. وكائنات غير الكائنات.. وعالما من السحر جعلها تجلس صامتة فى انتظار أن يتنبه إليها الراهب الزاهد.. الذى اقتحمت عليه صومعته دون إنذار.

قال لها:

- سؤالك يصعب الإجابة عنه.

- لكن.. لابد من الإجابة عنه.. مستقبلى يتوقف على هذه الإجابة؟

- مستقبلك أم حياتك؟

- ما الفرق؟

- شوفى.. أن نعيش الحب أسهل من أن نتكلم عنه.. الحب مثل الرقص، والكلام عنه مثل مراقبة الخطوات.. مجرد التفكير فيما نفعل يفقدنا التوازن.. ونسقط.

- إنك تعقد الأمور.. أكثر.

- الحب هو التوتر العالى الذى يلغى ماسبقه ويعيد صياغته من جديد.. هو الجنون الذى يختصر العقل.. والفوضى التى تختصر النظام.. والتوتر الذى يلغى الهدوء.

- هل هو السعادة؟

- هو أكثر من السعادة.. السعادة أحياناً هى أن ندمن خداع أنفسنا بأنفسنا.. لكن الحب لا يعرف الخداع.

- من يفسره لنا بسهولة .. ونستريح؟

- تفسير الحب كتفسير الأحلام.. فيه الكثير من الشعوذة والنرجسية والرغبات المكبوتة.

وأخذهما الكلام عن الحب حتى غابت الشمس.. واتفقا على أن يواصلا الحوار مرة أخرى.. وجاءت فى موعدها.. وظلت حتى غربت الشمس.. ولم يتوقف الحوار.. وجاءت مرة ثالثة ورابعة.. وعاشرة.. ولم يتوقف الحوار.. إنها أصبحت تشعر بالحب.. لكنها.. لاتزال عاجزة عن تعريفه.. وبدلاً من أن تتكلم عن الحب.. تكلمت عن نفسها.. فتحت نوافذها.. وخزائنها.. اكتشفت أنها لاتزال قادرة على البكاء.. وأن جزءا كبيراً من إنسانيتها لم يبع.

وطلبت منه أن يرسمها.. إنها تريد أن ترى نفسها فى عينيه.. فى فرشاته.. فى لوحاته.. وأخذها من يدها إلى الفراش دون أن يفتح فمه.. وخلع ثيابها.. قطعة قطعة.. لم تقاوم.. إنها عاشت هذا المشهد من قبل.. ربما رأته فى الحلم.. لكنه ليس غريباً عليها رغم أنه يحدث لأول مرة.

لقد أحسها.. ثم.. بدأ فى رسمها.. عرفها بأصابعه قبل أن تمسك هذه الأصابع الفرشاة وترسمها.. إن الفرشاة ليست مجرد مساحة رفيعة من الخشب الملفوف.. إنها لو كانت كذلك لتحولت إلى أداة فى يد نقاش لا فنان.

إن التاريخ يعيد نفسه.. ولو فى أماكن مختلفة.. ولو بأبطال غير الأبطال.. لقد حدث للملكة فريدة ما حدث لها.. عرفت فنانا بريطانيا جاء إلى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية اسمه الكابتن سيمون إلويس.. فقد كان مجنداً فى جيش الامبراطورية العظمى.. وقادته خدمته فى مصر - حسب رواية محمد حسنين هيكل - إلى

التعـرف على بعض العائلات الكبـيرة.. ورسم قرينة حـسين سرى باشـا الذى كان رئيسـا للوزراء، وفى نفس الوقت خالة المـلكة فريدة.. وهكذا فـإن سيمـون إلويس دخل القصـر أول مرة يرسم صورة زيتـية للملكة.. ثم تذرع بأن زحام الـقصر يفـسد إلهامه فدعـاها إلى تكملة الصورة فى «مرسمه».. وتطورت الأمـور بينهما.. وحـين انكشفت العلاقـة قام السفير البـريطانى نفسه بالتحقـيق مع الضابط الفنان الذى قال: «إنه لا يستطيع أن يرسم صورة إلا إذا أحس مباشرة بموضوعها».

لقد نشـر محمـد حسنين هيكل هذه الرواية فى كـتابه عن المفاوضـات السرية بين العـرب وإسـرائيل.. لكنه كان قد رواها لى قـبل أن ينشر الكتاب بأكثـر من عامين.. كنت قد أهديته كتابى عن الملك أحمد فؤاد.. ابن الملك فاروق.. ولاحظ دفاعى عن الملكة فريدة.. فقال:

- إن ملاكك الحارس ليس بهذه البراءة التى تتصورها.

ثم راح يروى لى قصة سيمون إلويس معها.

لكنها..

لـم تكن تعرف هذه القصة التاريخيـة رغم أن زوجها يهوى التاريخ ويركبه.. علـى أنها فى ذلـك اليوم.. عرفت إجابة السؤال الذى حيرها: مـا هو الحب؟ فقد عاشته.. على أن المشكلة التى لا تزال مزمنة هى كيف تعبر عما تحسه.. وتكتبه.. كيـف تفسر ما لا يفسر. وتشرح ما لا يشرح.. وتفسد بالكلام ما تعيشه بالمشاعر؟.. وكان أن قررت تغيير موضوع رسالتها.. من الحياة والحب والحرية عند بارتولدى.. إلى الحياة والحب والحرية عند مختار.. وأن تستبدل تمثال نهضة مصر بتمثال الحرية.

إن الحب يجعلنا أكثر وطنية أحياناً.



١٣

امـــرأة مـغـلـقـــة
طوال أيام الأنوثة

الحب فى حياتها كان مثل مسافر «ترانزيت».. مسافر عابر.. قصير الإقامة.. ما إن فتح حقائبه حتى أغلقها.. ما إن وصل حتى قرر الرحيل.. لكنه.. ترك على قلبها حرائق لم تخمد.. وعلى أصابعها رمادا لم ينثر.. وعلى جسدها إهانة لم تمسحها الأيام.

ملمسها ناعم كوبر الخوخ.. أنوثتها تفوح منها رائحة المانجو.. جسدها يبدو خاليا من العظام كثمرة التين.. عقلها يقطر منه العسل كعنقود عنب.. إنها تبدو امرأة تخترق الحياة كالخنجر.. وللوهلة الأولى تعتقد أنها ستسحبك إلى جزر المتعة الخارقة.. والتوابل الحارقة.. لكن.. سرعان ماستتذكر فروضك الغائبة.

منذ سنوات طوال صافح وجهى ملامحها أول مرة.. كنا فى عرض الطريق العام أمام بوابة الجامعة. لنتظاهر فى غضب ضد المحاكمات الهزيلة لقادة الهزيمة.. أضاعوا وطنا وأرضا وأجيالاً.. لكنهم عُوقبوا وكأنهم ارتكبوا جريمة التحرش بامرأة فى أتوبيس مزدحم.. كأنهم ارتكبوا فعلاً فاضحاً فى الطريق العام.. وليس إشعال النار فى الحلم العام.. والرأى العام.

كانت تلبس ملابس الهيبز.. وتعلق فى شعرها الزهور.. وفى رقبتها أجراسا من الفضة.. وترفع لافتات الحرية.. وتمشى فى المظاهرات الطويلة وتهاجم بجرأة زعماء الهزيمة.. كانت تحفظ تعاليم ماو، وأشعار أحمد فؤاد نجم، ولوحات فان جوخ، ومقالات لويس عوض، وروايات يوسف إدريس، وكاريكاتير صلاح چاهين.. كانت تطالب بأن يحكم الطلاب العالم.. وأن يتحدوا ويتضامنوا ويسعوا لإسقاط حكم الچنرالات وحكم النقابات.. كانت أول من ترجم لنا أفكار هربرت ماركيوز.. فيلسوف اليسار الجديد الذى أشعلت كتاباته نيران التمرد فى كل جامعات العالم فى ذلك الوقت، وجددت الدماء فى عروق امرأة أصبحت عجوزاً اسمها الثورة.. لقد أخرج ماركيوز العمال من صفوف الثوار بعد أن ترهلوا وأصبحوا مستريحين مثل

البرجوازيين.. بعد أن نشف زيت الغضب فى مفاصلهم، وتصلبت عضلات الحركة فيهم.. ونسوا غريزتى المشى والتغيير.. أما الثوار.. الثوار الذين لن يكفوا عن الانقلابات الحادة.. والتحولات الحادة فهم الطلاب.. لا مصالح مادية لهم مع أحد.. لا مع البيروقراطية الحكومية.. ولا مع اللعبة الرأسمالية.. ولا يمكن رشوة الثورة أو شراؤها من عروقهم بالعلاوة الاجتماعية.

كانت تجمع بين الثورة والثروة والأنوثة.. بين الغضب والعشب والعنب.. بين التمرد والتردد والوقود.. كانت تبهرنا.. ففيها إيقاع المطر.. وسحر القمر.. وجرأة القضاء والقدر.. كنا نتحدث عنها بحماسة وكانت الفتيات يتحدثن عنها بعصبية.

لم نكن نعرف أنها ابنة أحد قادة الهزيمة.. لم نكن نعرف أنها تتظاهر ضد سلطة الأب وسلطة الدولة معا.. ولم نكن نعرف أنها رغم أناقتها تختار أسوأ فساتينها.. ورغم ثرائها تضع فى جيبها نقوداً قليلة.. ورغم سطوة عائلتها تترك السيارة وتركب الأوتوبيس.. كانت تريد أن تصبح مثلنا.. مثل غالبية الطلاب الذين استفادوا من مجانية التعليم.. وصعدوا السلم الاجتماعى بشهادات التفوق.. وتجاوزوا طبقاتهم المتواضعة بمصباح سحرى مدموغ بكلمات أصبحت مفترسة ومكروهة الآن.. مثل.. العدالة الاجتماعية.. وتكافؤ الفرص.

وأعترف بأنها سحرتنى.. لكننى لم أسقط فى هواها.. فالحب الذى أعرفه ليس كائناً خرافياً.. خيالياً.. وهمياً.. إنه حب لا يقرأ الأساطير.. ولا ألف ليلة وليلة.. ولا يشاهد الأفلام الرومانسية.. ويفتش فى جيوبك ويحصى نقودك، ويختار ثيابك وطعامك وسهراتك والكوافير الذى يصفف شعر حبيبتك.. كانت الحواجز التى أراها بيننا أقل من الحواجز التى لا أراها.. لذلك.. صرنا صديقين.. ولا نزال.. يلجأ كل منا للآخر عندما تضيق الدنيا فى عينيه.. عندما تُسد أو تسود.. يلجأ كل منا للآخر فى لحظات الانهيار والانكسار.. لحظات الظلام والآلام.. وفى هذه اللحظات

يتعرى الواحد للآخر.. يفضح نفسه وعيوبه وعوراته.. يخرج غضبه.. يفجر حزنه.. ثم ما إن يهدأ ويتطهر ويستريح حتى يختفى.. إننا فى حاجة دائمة لصديق من هذا الطراز.. أشبه بخيط ماء رفيع فى صحراء العطش.. أشبه بلمسة ناعمة على جسم مزروع بالورم والأشواك.. أشبه بباب اعتراف يحفظ السر ويكشفه وقت الغضب أو يبيعه مقابل مصلحة أو نميمة.

قالت لى ذات يوم:

- إن الأيام التى نتحدث فيها معاً هى الأيام غير العادية فى حياتى.. وهى أيام قليلة جداً.. فيها أخرج من سجنى البشرى وأصبح عصفورة.. حرة.. أقول ما أشاء.. أتصرف كما أشاء.. إن حياتى كلها مثل صندوق مختوم بالشمع الأحمر الذى هو القيود الاجتماعية والتصرفات اليومية.. إنك الوحيد الذى يرانى على الطبيعة.

قلت لها:

- الإنسان ليس حراً كما يقول وكما يتصور.. إنه مدعى حرية.. إنه ليس حراً حتى فى علاقته بجسمه وثيابه وكلامه.. إنه مقيد بصمغ النفاق الاجتماعى.. محبوس فى مغارة الحرام والحلال.. مغطى بصندوق القوانين.. وهو لا يعرف الحرية إلا خارج هذه الأشياء.. لا يعرفها إلا مع صديق لن يحاسبه مثل الأسرة والمدرسة والمحكمة والمسجد والكنيسة وقسم الشرطة.

للمرة الأولى أحاور امرأة لا تريد أن تحولنى إلى بيت وسقف ومفتاح.. للمرة الأولى تدفن امرأة وجهها فى صدرى، ولا يحرضنى جسدى عليها.

للمرة الأولى أقيم نقاشاً طويلاً مع جسد صديق لامرأة.. مجرد جسد صديق.

لقد راحت تتدحرج.. تشهق.. تبكى.. تصرخ.. تشرح.. تفسر.. تروى.. وراحت تغرق فى الماضى.

إنها لم تعد تتذكر ماو، وماركس، وماركيوز.. لا تتذكر أيام الدراسة التى لم تكملها.. اختفت فجأة كأنها امرأة من البرق.. ركبت الأسانسير فى الدور الثالث وتركته فى الدور الرابع.. نسيت ثوريتها.. تذكرت بورجوازيتها.. سرير لويس السادس عشر الذى تنام عليه.. حقائبها المصنوعة من جلد التمساح.. ولاعتها الذهبية التى تشعل بها سجائرها الأمريكية.. هاجمها الحب فى صورة شاب ثرى الموهبة، فقير المحفظة.. ثائر.. ماركسى.. صدقها.. لكنها ارتعشت أمامه كفأرة مذعورة.. ولجأت باكية إلى صدر جدتها.. وقبل أن يمر العام تزوجت على طريقة جدتها.

افترسها ابن معالى الوزير على سنة الله ورسوله، بعد أن تمددت له على طبق من فضة وفراش من حرير.. إنه دبلوماسى ابن دبلوماسى.. أسرته العريقة خليط من باشوات انقلبت عليهم الثورة وضباط أحرار قاموا بالثورة.. أسرة تضم الثورى والرجعى.. الضارب والمضروب.. الراكب والمركوب.. الحاكم والمحكوم.. فلم تفقد نفوذها وسطوتها وثروتها.. وإن اختفى ذلك تحت الجلد حتى أعلنته من جديد.

لكنه..

لم يكن من الرجال الذين يستلمون رسائل الحب.. ولا يستمعون لكلمات الحب.. ولا يستمتعون إلا بالمرأة المحترفة.. المرأة الاستريو.. والاستربتيز.. والكباريه.. والبورنو.. والبقشيش السخى الذى تحرص عليه مكافأة لها على ممارسة الحب.

إنه لا يفضل سوى المرأة مزيفة الإحساس.. القادرة على إقناعه بأنه الرجل الوحيد فى العالم الذى يستحق نيشان الفحولة.. دون أن يتذكر أنه دفع ثمن هذا النيشان.

وقد تصور أنها باردة.. لوح ثلج.. فريزر.. فهى لا تنهار من أول لمسة.. ولا يغمى عليها من أول قبلة.. ولا تموء كما يجب بين ضلوعه.. ولم يتذكر أن زوجته لا تزال بريئة كطوق الفل.. أمية فى الجنس.. فى حاجة لمن يجعل جسدها يتهجى الرغبة والرعشة.. كما أنها ومنذ أن كانت طفلة يعلمونها أن المرأة يجب ألا تفضح

أحاسيسها.. لا تعبر عنها.. وإلا كانت عاهرة.. أو مجربة.. إن ذلك يجعل المرأة تخاف المتعة.. فلا تصل إليها.. لم يفهم أن الجنس يسبق الفراش.. وأن السيطرة على المرأة لا تكون إلا بالسيطرة على الأشياء الصغيرة.. والتفاصيل الصغيرة.. فلا زهرة يشمها بدونها.. ولا فيلم يشاهده.. ولا طعام يأكله.. ولا موسيقى يسمعها.. ولا كتاب يقرأه.. بدونها.. إن هذه الأشياء تكون بين فم المرأة وصوت الرجل.. بين رأسه ومخدتها.. بين أصابعها وسجائره.. بين يده وجسدها.

لا هو فهم.. ولا هى عرفت كيف تشرح له.. فتركها بليدة فى الفراش.. وراح يلتقط فتيات الرصيف والملاهى الليلية ويعاشرهن فى غابة من دخان الحشيش الأزرق.. فى شقته الصغيرة بوسط القاهرة.. شقة العزوبية.. استمرت حياته الخاصة كما كانت.. أما هى فهى مجرد زوجة للوجاهة الاجتماعية.. كرافتة أنيقة.. سيارة مودرن.. قرنفلة فى عروة الچاكتة.

وقبل أن تفيق.. وجدت جنيناً يتحرك فى أحشائها.. جاء الحمل على طريقة الأفلام العربية.. من أول مرة.. وحاولت أن تجهض نفسها.. إنها تعرف أنه ليس لها.. لكن.. الطفل بقى ليكون دليلاً على سوء اختيارها.. وفى الاحتفال بالسبوع، أصرت على الطلاق وحصلت عليه.

لقد طلقها بالتليفون.. لم يحضر السبوع.. طلبته فى الجارسونيرة.. كلمها من بين ساقى امرأة.. قفز فوق جسدها ليرد على التليفون.. تخيلت المشهد.. غضبت.. انهارت.. هددته بالفضيحة إذا لم يطلقها.. طلقها.. أغلق السماعة.. وراح يغوص من جديد فى اللحم الرخيص.. وفى هذه الليلة لم يتهمه أحد بحيازة أكثر من امرأة فى فراش واحد.. فى زمن الحرب.

وتصورت أنها تحررت من القيود الاجتماعية.. لكنها.. فوجئت بها تزيد.. بل وتحولت إلى قيود سياسية.. وقيود أمنية.. لقد قُبض على الأب.. بتهمة التآمر على

رئيس الجمهورية الجديد.. أنور السادات.. قبضوا عليه فى ليلة ١٥ مايو ١٩٧١ .. لفقوا الشرائط والاعترافات.. وسجنوه مع كل أعمدة السلطة.

وكأنهم حبسوها هى أيضاً.. فقد بقيت فى البيت مع أمها وطفلها.. عاطلة عن العمل.. عاطلة عن ممارسة الحب.. وآمنت أن الله لن يوزعها على رجل.. آخر.. فأصيبت بمرض التردد.. إنها كمن يلبس ثياب السفر ولايسافر.. كمن يكتب رسالة ولا يرسلها.. كمن يحجز تذكرة طائرة ويبقى فى المطار.. فهى لماحة ولا تعمل.. جميلة ولا تحب.. أنثى وجسدها كسول.. تملك مصباحاً وتعيش فى العتمة.. تملك شفاها ولا تعرف طعم القبلة.. لقد أقنعت نفسها بأنها تحافظ على تقاليد الأسرة فعطلت حياتها.. وأقنعت نفسها بالأمومة فحبست هذه الحياة فى قمقم.

أصبحت متحفاً مغلقاً للأنوثة.. لا يفتح طوال أيام الأسبوع.. لا يفتح فى المناسبات والأعياد.. مغلقا فى وجوه جميع الرجال.. لا رجل شم عطرها.. أو التقط ثمرة فراولة واحدة من شفتيها.. أو اصطاد سمكة ملونة من بحار عينيها.. أو اشترى لها عقداً من الفل.. أو لخص نفسه فى مكتوب من مكاتيب الحب.

وبعد أربع سنوات قضاها زوجها فى الخارج عاد ليجدها كما هى.. اشتاق إلى امرأة نظيفة.. وإلى امرأة أنيقة يعلقها فى ذراعه وهو يدخل نادى السيارات.. أو النادى الدبلوماسى.. أو حفلات السفارات.. فسعى من جديد لردها.. وأقسم لأمها أنه شفى من مرض العاهرات.. وأنه سيعوضها مافات.. وسيعلمها كيف تمحو أمية جسدها.. وعادت إليه.. وحاولت أن ترضيه.. لكنها فشلت.. شعرت بالغثيان.. بالقرف.. وجرت عارية إلى الحمام.. أما هو فكان يعرف إلى أين سيذهب؟!

ووجدت طفلاً فى أحشائها يتحرك.. إن الله وزع عليها الأطفال.. لا الرجال.. من جنس بارد.. فاشل يأتون.. كتب لها أن تلدهم لا أن تعاشرهم.. سبحانه وتعالى.. يصعب فهم حكمته.. يصعب استيعابها.

لقد عاشرته ثلاث مرات.. وأنجبت ثلاثة أطفال.. وطلقت ثلاث مرات.. إننى لا أبالغ.. ولا أثير التعجب بميلودراما لا تحدث حتى فى الأفلام.. لكن.. كل ما أقوله حقيقة، والحقيقة أحياناً أغرب من الخيال.

لقد مارس سعادة السفير الحب معها بعقلية رئيس عصابة.. أصاب جسدها بعقدة جنسية.. حبسه فى مقبرة ضميره التى دفن فيها عشرات العاهرات.

ولم تجد أمامها سوى الصوفية.. فشلت أن تكون فتاة ثورية.. ومطية جنسية.. فاندفعت إلى الصوفية.. إن الصوفيين يتقبلون الحقائق كما هى.. لا يعترضون.. فما نحسبه خيراً قد يكون شراً.. ومانحسبه شراً قد يكون خيراً.. والعشق الحقيقى هو العشق الإلهى.. فيه يذوب المريد فى الكون.. فيصبح سحابة.. أو شجرة.. أو سنبلة.. أو قطرة مطر.

اختارت أن تكون رابعة العدوية.. لكن.. دون أن تعرف أو تجرب النصف الأول من حياتها.. فلا هى تذوقت المتعة.. ولا هى مشت على رمال شواطئها.. وراحت تقهر جسدها بنفسها.. إنها لا تأكل ما يسخن الجسد.. وما يحرض الرغبة فيها.. لا تأكل اللحم.. ولا الأسماك.. لا تأكل سوى الخضروات.. مثل النباتيين.. فهم يتحررون من ثقل الجسد.. ويفكون قيود الروح.. يحررونها.. يجعلونها تحلق فى السماء.. وهو ما يفجر القدرات الخفية للإنسان.. فيرى ما لا يراه غيره.. ويسمع ما لا يسمعه.. ويتنبأ بما هو غير متوقع.

وأعترف بأن ذلك لم يعجبنى.. فأنا أرفض الانسحاب من الحياة.. قبل أن نختبرها وتختبرنا.. لقد قاتلت وهى فى غرفتها.. قاتلت طواحين الهواء على طريقة دون كيشوت.. وأعلنت أنها خسرت الحرب.. لا فقدت ظفراً.. ولا شعرة.. ولا نقطة دم.. لم تدخل معركة واحدة مع رجل حقيقى.. لا لمست ذراعه.. ولا شمت عرقه.. ولا صرخت من طعناته.. وكل الرجال الذين عرفتهم.. اخترعتهم.. كانوا رجالاً من ورق.. وأصناماً من ورق.. وقد أحبتهم وعشقتهم وقاتلتهم على الورق.

وقد مزقت الورق!!

طلبت منها أكثر من مرة.. طوال سنوات ممتدة أن تستيقظ من وهمها.. ونومها.. وتغسل وجهها.. وتعود إلى الحياة.. وتتعامل مع رجال من لحم ودم.. من حنان وأحزان.. من شهامة ونذالة.. أن تختبرهم حتى تختبر نفسها.. أن تعرفهم حتى تعرف كيانها.

قلت لها:

- إن جسدك لم يأكل منذ طلب الطعام فلا تجبريه على الصيام.. وشفتاك فى حاجة إلى الاحمرار فلا تخافى من الزكام.. اخلعى قفاز الملاكمة وأنت تصافحين البشر.. اخلعى جلد الراهبة.. ومعلمة المدرسة.. والماكينات الحاسبة.. لا تكونى فى الحب وفى الحياة صفراً على الشمال.. سطراً مكتوباً بالقلم الرصاص على الهامش.. إن الدنيا سمكة ذهبية رماها إلينا الله من فيض الخير.. فلماذا تسحقينها بين أصابعك؟!

لكنها...

لم تسمعنى.

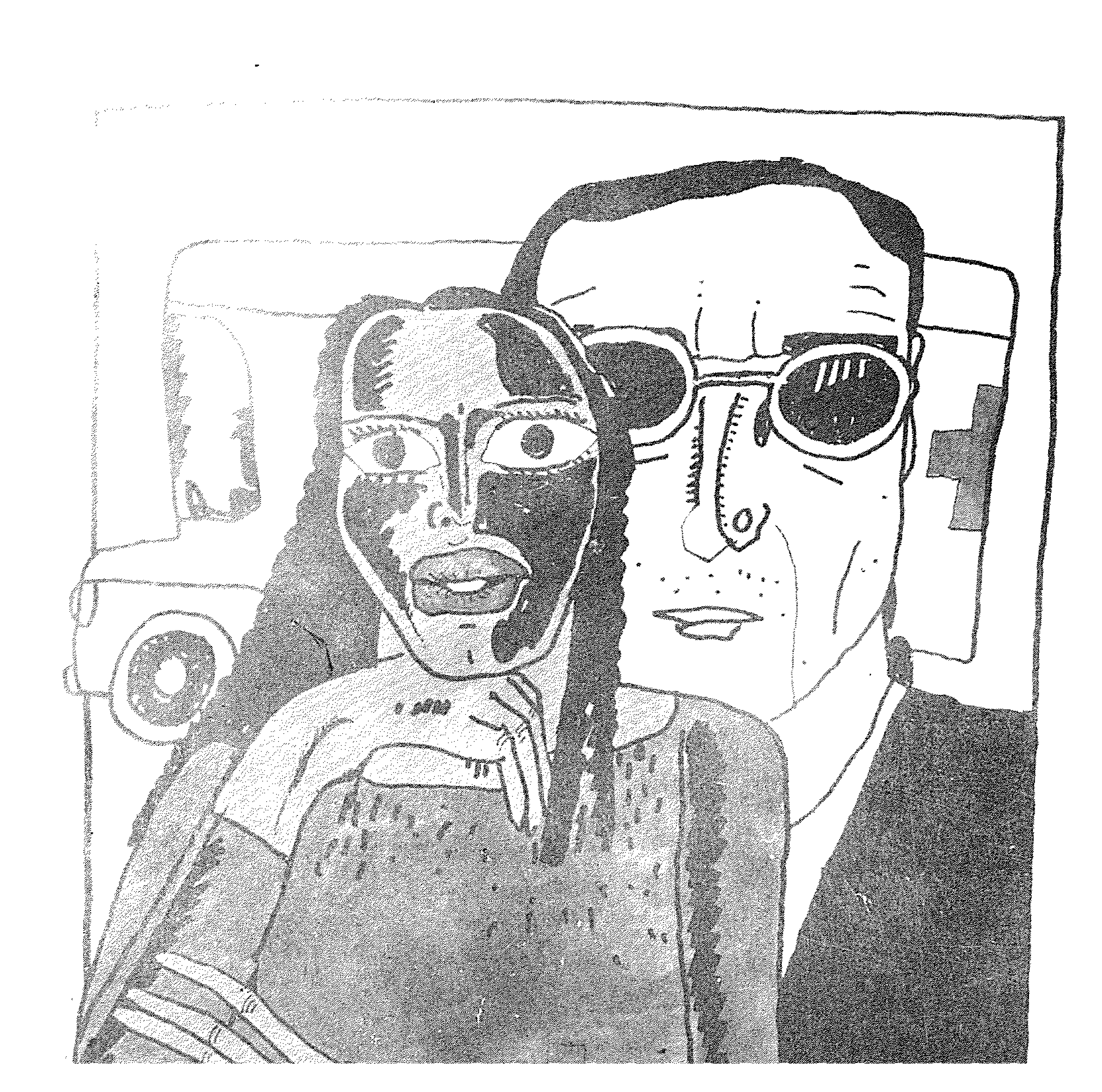
وظلت تطلب التأجيل.. تأجيل ممارسة الحياة.. إنها أول امرأة سمكة.. تدفعها الأمواج إلى الرمال.. وترفض أو تخاف أن تعود إلى المياه.

وفى عيد ميلادها الأربعين أرسلت إليها زهرة وقصيدة لنزار قبانى كتبتها بأقلام فلومستر ملونة!!

كونى.. كونى امرأة خطرة.. كى أتأكد.. حين أضحك أنك لست بقايا شجرة.. احكى شيئاً.. قولى شيئاً.. غنى.. ابكى. عيشى.. موتى.. كى لا يُروى يوما أن حبيبة قلبى.. شجرة.. كونى السم.. كونى الأفعى.. كونى السحر.. كونى السحرة.. لفى حولى.. لفى حولى.. كى أتحسس دفء الجلد، وعطر البشرة.. كى أتأكد - ياسيدتى

- أن فروعك ليست خشباً.. أن جذورك ليست حطباً.. سيلى عرقاً.. موتى غرقاً.. كى لا يُروى يوماً عنى أننى كنت أغازل شجرة.. كونى فرساً.. ياسيدتى.. كونى سيفاً يقطع.. كونى قبراً.. كونى حتفاً.. كونى شفة ليست تشبع.. كونى صيفاً أفريقياً.. كونى حقل بهار يلدغ.. كونى الوجع الرائع.. غنى.. ابكى.. عيشى.. موتى.. كى لا يُروى عنى يوماً أننى كنت أعرف شجرة.

ولم تصل إليها الزهرة ولا القصيدة.. فقد كانت فى بيت الله الحرام.. تؤدى العمرة.



١٤

امـــرأة جنـــان
فـــى فنجـــان

امرأة من الشطة والشيكولاتة.. حارة وحلوة.. عقد من اللؤلؤ الأسود.. الأغلى والأحلى والأكثر إثارة.. بحر من الكحل.. ينبع من عينيها.. ويصب فى فراش الكبار.. على جسدها الأسمر أكثر من شامة.. وعلامة.. تدلك مثل إشارات الطريق.. أين كهف المتعة.. أين تزرع الرماح الوثنية.. أين تغطس الشمس الساخنة وتنام!

سألها: من أنت؟

قالت: اسأل عنى ملوك الجان!

- من أنت يا أميرة الزمان؟

- أنا امرأة صغيرة تعيش فى فنجان!

- ما عنوانك؟

- أخذوا كل عناوينى.. ولم يبق أمامى غير هذا الشارع الضيق.. بين النهدين.. أو بين الشفتين.

- لايهمنى أكثر من ذلك.. أن أتغلغل فى أدغالك.. فمنذ أعوام يعلنون فى الجرائد أننى مفقود.. ولازلت مفقوداً.. حتى إشعار آخر.

- أنا أيضا لا أعرفك!

- لم يعد بوسع اللغة أن تقولك.. صارت الكلمات لكمات.. تركض وراءك ليلا ونهاراً.. ولا تطالك.

ابتسمت ابتسامة يمتزج فيها الحزن والمكر وهى تقول لنفسها: الآن.. الآن فقط ستطولك اللكمات والطلقات والمؤامرات واللعنات وأجهزة المخابرات.

إنه التيش راميرز سانشيز.. الذى له ألف وجه.. وألف مكان.. وألف امرأة.. وألف اسم... كارلوس.

كان يبدو كقوة غير مرئية.. مثل البرق والرعد.. والزلازل والبراكين والعواصف.. «سوبر مان» يخطف كتيبة مسلحة من الكوماندوز ويهرب فى وضح النهار.. يجرى فوق قطارات مسرعة ليسابق الريح.. وفى الليل ينام فى طائرة مخطوفة.

كان أسطورة.. خلعت قلب العالم منذ منتصف السبعينيات إلى منتصف التسعينيات.. فقد تسبب فى قتل ٨٣ شخصاً بقلب بارد.. لايهتز.. وهو يخرج من أكمنة مخابرات العالم كالشعرة من العجين.. وهو يدخل الدول من تحت عقب الباب.. ويذوب متنكرا فى ذرات الهواء.. وينقض على خصومه مثل شعاع الليزر.. لكن.. الأسطورة انتهت نهاية ساذجة.. لا تناسب الصورة الخرافية التى رسمت لصاحبها.. فقد شحنوه من الخرطوم إلى باريس.. مثل علبة «بولوبيف».. مخدرا فى تابوت بعد أن كتبوا عليه بكل اللغات: «انتهت مدة صلاحيته».

إن أميرة الزمان التى تعيش فى فنجان.. فى السودان كانت تعرفه عندما قالت له: أنها لا تعرفه.

لقد زرعتها المخابرات السودانية فى جسده.. فى قبلاتها أجهزة تسجيل.. وفى أصابعها أجهزة لاسلكى.. وفى صدرها أجهزة تصوير.. إنها غرفة عمليات للجنس والتجسس.

كانت تحلم بأن تكون امرأة مهمة.. وزيرة.. سفيرة.. صحفية.. مذيعة.. إنها تعشق القوة والسيطرة.. وتعشق أيضاً صورتها فى المرآة.. وفى عيون الرجال المهمين.. ما أحلى النرجسية حين تتيح لنا أن نتخذ من عيون من نحب مرايا نرى فيها شكل وجهنا وشكل عواطفنا.. لكن ما أقسى هذه النرجسية حين تتحول عيون الآخرين إلى مرايا نرى فيها اللون الأحمر.. لون الرغبة الذى ينقلب إلى اللون الأسود.. لون الظلم والظلام.

كانت وحيدة فى مدرج الشعر تشخبط بخواطرها على أوراق ملونة.. «كيف

نُخرج من الصخر الـذى يحاصرنا ماءً.. ومن العطش السياسى الذى يطاردنا عشبا.. ومن العتمة الاجتماعية التى تغطينا نجوماً».. «هل جاء اليوم الذى أصبح فيه الحب فى السودان بالمراسلة.. وهل جاء الزمن الذى أصبحت فيه المصفاة التى تكرر النفط أهم من القلب الذى يكرر الدم»... «لقد أدخلونا الكرنتينا.. لا لأننا نحمل جرثومة الكوليرا أو الملاريا ولكن لأننا نحمل جرثومة الحرية»... «كلام الرجال أوقفوه..نون النسوة أدخلوها سجن النساء.. والأسماء والضمائر والأفعال أخذوها إلى أقبية المخابرات»..

وكأن أحداً كان يتصنت على أعماقها.. وأوراقها.. فما إن كتبت جملة «أخذوها إلى أقبية المخابرات».. حتى وجدت أمامها من يأخذها إلى أقبية المخابرات.

أزالوا الغمامة من على عينيها.. وجدت نفسها أمام رجل تراه على شاشة التليفزيون يجلس فى الصفوف الأولى بين العمائم والحكام.. كان يضع نظارة سوداء فى الليل.. فى مكتب مغلق.. إنها من علامات الغموض.. والسرية.. التنكر وراء نظارة من «بيرسول».. محددة الموديل.. وكأنما صنعت خصيصا لهؤلاء.

شعرت أنها مثل ضحية ساقوها إلى مؤسسة لتعليب الإنسان ولسانه وعقله.. وسلخ جلده.. واستعماله فى صناعة الأحذية.. أو فى صناعة الطبول.. شعرت أنها ستخرج محطمة.. مذبوحة.. مسلوخة.. مهلهلة.. السياف خلف الباب.. وصوت الريح والكلاب.. والحراب.. فلماذا لا تنقذ نفسها بالسلخ فى السرير؟

إن غريزتها أنقذتها.. فهذا الطراز من الرجال يضيف إلى هرموناته الذكورية هرمونات أخرى حكومية.. أمنية.. سلطوية.. فيشعر أنه كتيبة من الرجال.. وينسى أن الرعب الذى تكون فيه المرأة يجعلها عصفورة.. إنها تشعر أن هذا الرجل.. مثل الموت فى كل مكان فى السودان.. فى فنجان قهوتها.. ومفتاح شقتها.. وأزهار شرفتها.. ودولاب ثيابها.. وكراسات محاضراتها.. فلماذا يبقى خارج جسدها.. لماذا لا يكون فى جسدها؟

وقد كان.. عرفت طعم الجنس والسلطة فى لمسة واحدة.. وأحست أنهـا أصبحت امرأة مهمة فى قبلة واحدة.. إنها تريد ذلك.. لا تريد أن تكون مناضلة.. أو شهيدة.. تريد أن تكون شهيرة.

لكنهـــا.. طالبتـه بالحلال.. إن الشعـارات التى يرفعها النظام الذى يخـدمه ترفض العلاقـات الخاصة.. تعتبرها حراما.. نوعـا من الزنى.. يطبق عليه حد الرجم.. فهـو متـزوج.. وهو مسـئول.. وهو قـدوة.. أمسكته مـن يده الموجوعة.. وأجبـرته على الزواج.. وإن لم تجبره على إعلانه.. أو إشهاره.

وغضـبت الزوجة الأولى.. لقد سربوا الخـبر إليها.. إنها ابنة أحد زعـماء الأحزاب الذين تحالفوا مع النظام.. وانصهروا فيه.. وناسبوه.. وخاف زوجها من الفضيحة.. ونصحـه النظام بأن يحافـظ على صورته المرعبـة التى يهزها الحـب والزواج من امرأة صـغيـرة.. فيـها الشطة والشيكولاتة.. ويطـلقـهـا.. وفى الوقت نفسـه يبقى عليـها عشيقة.. إن السلطة واحدة مهما كانت الأقـنعة التى تضعها على وجهها.. ليبرالية.. فاشـية.. أو إسـلامـيـة.. السـلطـة هـى السـلطـة.. القوة فيـها أمنية.. والواجـهة إعلامـية.. دعائـية.. والـدعـاية المناسـبة لـرجـل السـلطـة أن يكون مـخلصا.. وفيا.. غير زائغ البصر.. لا ينظر إلى امرأة أخرى غير زوجته.. أم أولاده.. ولو تزوج غيرها.. تحطمت هذه الصورة.. والأفضل الحفاظ عليها.. على السلطة علنا.. وعلى العشيقة سراً.

وقبلت عقـد اللـؤلـؤ الأسـود العشـق فى الظـلام.. بعيداً عـن العيون.. فى غرفة فى فندق يتـسامح مع الذنوب.. فى كوخ فى غابة تعلو فيـها أصوات الحيوانات على أصوات الأنفاس المـشتعلة.. فى بيت آمن من بيـوت المخابرات.. حيث تخـتلط المهام الرسمية بالرغبات الشخصية.. أحيانا.. أو غالبا.. لايهم.

وفى إحدى المرات كـانا فى كوخ مهجـور فى إحدى الغابات البعـيدة.. غـجـرية

سـمـراء.. تداعب بخلاخيل سـاقيها الثعـالب فى جسده.. وتستـفزها للـخروج عن حدودها.. للخروج من أسنانه وأطرافه ولحمه..

وخلع ثيـابه.. لكنه لم ينزع عن عينيـه نظارته السوداء.. إنه لا يستـغنى عنها.. ولا يقدر على مواجـهة أى شىء بدونها.. إنها تخـفف من قسـوة الضوء.. ومن قـسوة الحقيـقة.. بدونها سيـرى «مولانا» كاذبا.. وسيـدنا زانيا.. والجنرال لصـا.. والقائد الموهوب مقاولا.

وبعد أن دخل جـسدها على ظهر حـصانه.. وبعـد أن استـحلبت السكر من تحت لسانه.. حاول أن يفتح باب الكوخ ففشل.. حاول أن يحرك الأرض بأطراف بنانه.. ففـشل.. لقد أغلقوا عليـه الباب من الخارج.. تركوه وحـده للأهالى.. وللفضـيحة.. وللشائعات.. والقيل والقال.. وتداول الناس سيرته وسيرتها بجلاجل.. إنها إحدى ألعاب الكواليس.. صار فيها نجم الأمن اللامع فحما.. احترق.. سقط ضابط وجاء ضـــابط.. طارت الجـرائد من أكشـاكهـا.. وطارت «المفـارش» مـن فـوق طاولات المقاهى.. وطلبت عيناها اللجوء العاطفى.. لكنهم.. حولوها من عشيقة إلى مندوبة.. من سفـيرة فى الحلم إلى عـاهرة فى الواقع.. وكانت مهـمتها تحويل ثور عنيـد اسمه كارلوس إلى علبة بولوبيف.

إن كارلوس - الذى وُلد فى كـاراكاس عاصمة فنزويـلا فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٩ .. كان يوصف فى طفولته بالبلاهة.. وجهه سمين.. عيناه بنيتان.. شعره فى لون الحنة.. وكان منطويا على نفسه.. بدينا.. دائم البكاء.. يكره اللعب.. لا يميل إلى الاختلاط.. وإذا ما بدأ فى تناول طعامه يصعب إقناعه بالتوقف.

لكـن.. والده المحامى الثرى والشيـوعى المتطرف أورثه الحماس للثورة.. وانقـلب هذا الحماس إلى عنف بعد أن تدرب على فنون التـخريب والانقلابات فى معسكر.. مونتانزاس على التلال المشرفة على العاصمة الكوبية.. هافانا.. والذى كانت تشرف

عليه المخابرات السوفيتية.. لكن.. رجال المخابرات السوفيتية فى المعسكر كانوا يشكون فى أنه عميل مدسوس عليهم من المخابرات المركزية (الأمريكية).. ولعل هذا الشك كان وراء طرده من موسكو التى ذهب إليها للدراسة فى جامعة «لومومبا».. فى سنة ١٩٦٨ .. ووُصف بأنه متطرف.. لكن.. قبل طرده من موسكو التقى هناك برجل سيطلب منه المساهمة فى كثير من العمليات الانتحارية.. هو جورج حبش.. زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.. والمؤمن بالكفاح المسلح على طريقة لينين.

كان ذلك فى سنة ١٩٧٠ .. وقد أقنعه جورج حبش بالسفر إلى عمان للقتال إلى جانب الفلسطينيين ضد الملك حسين.. لمواجهة مذابح أيلول الأسود.. ثم أقنع جورج حبش السوفيت بأنه فى حاجة إلى كارلوس لتدريب مجموعة من الفلسطينيين على أعمال المقاومة فى أحد المخيمات القريبة من موسكو.

وفى عام ١٩٧٣ نفذ كارلوس أول محاولة اغتيال فى حياته.. كانت ضد رجل أعمال يهودى اسمه يوسف سييف.. أطلق الرصاص على أسنانه.. لكنه نجا من الموت.

ورغم أنه يكره اليهود فإن كثيرا من الناس كانوا يعتقدون أنه يهودى.. وكان يقول: «ماذا يمكن أن أفعل إذا كان وجهى يبدو يهودياً».. لكنه.. رغم ذلك كان يعتبر العدو رقم واحد لإسرائيل.. وكانت الموساد تطارده وتطالب برأسه.. وقد نجحت الموساد فى تجنيد عميل لها من الجبهة الشعبية كان ملازما لكارلوس فى باريس.. وقد أبلغت الموساد بوجوده فى شقة فى المبنى رقم ٩ من شارع فولتير فى المنطقة الخامسة والمعروفة بحى الطلبة فى باريس.. فتح كارلوس الباب بنفسه.. وخلال تبادل النيران الذى أعقب ذلك قُتل العميل الفلسطينى للموساد.. وتمكن كارلوس من الهرب.

كان ذلك فى خريف ١٩٧٥ وفى شتاء ١٩٧٥ قام كارلوس بأكبر عملية فى حياته.

فى صباح يوم الأحد ٢٢ ديسمبر ١٩٧٥ كان ١١ وزيراً للنفط يجتمعون فى مقر

منظمة الأوبيك فى ١٠ شارع كارل لـوجر وينج فى فيينا.. بعد نصف ساعة من بدء الاجتماع دخل خمسة رجال وامرأة يرتدون معاطف طويلة ويحملون حقائب رياضية.. وكان يقودهم رجل ذو شارب ولحية صغيرة فى سترة جلدية، بنية اللون، وقبعة عالية، وسروال فضفاض وحذاء بني.. هوكارلوس..الذى اقتحم قاعة الاجتماع هو ومن معه، وفى دقائق سيطر عليها وأخذ كل من فيها رهائن.

كانت مطالبه التى أبلغها للنمساويين من خلال وسيط عراقى: تجهيز طائرة تقله والرهائن إلى أى مكان فى العالم.. وقال أنه أقدم على هذه العملية «لمجابهة مخطط رفيع المستوى يهدف إلى إقرار الوجود الصهيونى فى فلسطين».. وأضاف: أنه ينوى ضرب مؤيدى هذه المؤامرة.. وأبطالها.

وأصر كارلوس على قراءة رسالة من سبع صفحات فى الإذاعة النمساوية قبل أن يستجيبوا لمطالبه ويسمحوا له بطائرة تحمله هو والرهائن من فيينا إلى الجزائر.. وفى الجزائر أصر الرئيس هوارى بومدين على تسليم الرهائن أحياء، فانتهت العملية.. وخرج منها كارلوس بثلاثة ملايين دولار.. دفعها العراق.

بعد ٥ سنوات قررت دول الرفض العربية قتل السادات ورصدت للعملية ٥٠٠ مليون دولار.. واختارت كارلوس لتنفيذها أثناء زيارة السادات للنمسا.. لكن المخابرات النمساوية عرفت بالعملية.. وأبلغت السلطات المصرية.. فألغيت زيارة السادات.

بعد ١٥ سنة على هذه الواقعة تغيرت الدنيا.. وتغيرت المواقف.. والتحالفات.. ولم يعد كارلوس مطلوباً.: انتهى دوره.. فقد اندفعت الدول العربية إلى قطار الصلح مع العدو الصهيونى.. دولة بعد دولة.. لا فرق بين دولة تغرف الثروة.. ولا دولة تؤمن بالثورة.

وكان من الممكن أن يعتزل كارلوس الحياة ويعيش إلى آخر العمر فى بلاده.. وكان

من الممكن التخلص منه برصاصة طائشة تنهى حياته بصورة مناسبة للأسطورة، وتجعل الناس يتساءلون: هل الذى قُتل هو كارلوس أم أن كارلوس مثل الزمن لايموت بهذه السهولة؟.

لكن.. الذين ساهموا فى صناعة الأسطورة قرروا أن تكون نهايتها ساذجة.. لا تخلو - مثل بدايته - من البلاهة.

لقد تخلى عنه أصحابه ومساعدوه ومساندوه فى الشرق الأوسط.. عاش فى سوريا من سبتمبر ١٩٨٥ إلى ديسمبر ١٩٩٠ تحت اسم مايكل عساف.. وبغطاء رجل أعمال مكسيكى.. وكانت معه زوجته ماجدلينا كوب وهى إرهابية ألمانية سابقة، تحمل جواز سفر باسم البا وهو اسم والدة كارلوس.. بعد حرب الخليج طلب السوريون منه مغادرة دمشق هو وأسرته فى سرية وسلام.. فسافر إلى ليبيا... لكنهم رفضوا البقاء هناك.. فسافر إلى عدن.. ثم تسلل هو وأسرته إلى عمان وبقى فيها حتى صيف ١٩٩٢ .. لكن المخابرات الأردنية طلبت منه الرحيل.. فسافر إلى العراق.. لكن صدام حسين رفض استقباله رفضاً قاطعاً.. فعاد إلى الأردن.. وبدأت حالته النفسية فى التدهور.

فى هذه المرة تعرف على فتاة أردنية عمرها ١٣ سنة.. ترك زوجته من أجلها وأهمل ابنته وأمه.. اللتين سافرتا إلى فنزويلا.. وتركتاه بمفرده معها.

الثورى العجوز يحاول تجاوز إشارات الزمن الحمراء.. لم يعد قادراً على ارتكاب المخالفات والحماقات السياسية.. فلماذا لا يرتكب المخالفات والحماقات الجنسية؟.. لقد تصور أن الحب يجعله يكسر جميع ألواح الزجاج التى ركبوها حوله.. وجميع البلاغات الرسمية والأمنية التى وزعوا فيها صورته.. لقد شعر بنشوة لا حدود لها حين اصطدمت شظايا الزجاج المكسور بعجلات جسده.

وبموافقة المخابرات الأردنية تزوج كارلوس الفتاة الصغيرة.. التى رقصت معه

التانجو الأخير فى عمان.. وأكلت معه الحب المسلوق.. والجنس المسلوق.. والحلم المسروق.

وانتقل من مخابرات إلى مخابرات.. ومن مراهقة أردنية إلى مراهقة سودانية.. ومن عمان إلى الخرطوم.. ومن التطرف الشيوعى إلى التطرف الدينى.. ومن لينين إلى حسن الترابى.. لقد وصل إلى الخرطوم فى خريف ١٩٩٣ بجواز سفر لبنانى يحمل اسم عبد الله بركات وزوده جورج حبش بثلاثة حراس من رجاله.. واستقر كارلوس فى فندق «جراند أوتيل».. المبنى على طراز السفارى الانجليزى.. وساعده على ذلك ثروته التى تصل إلى خمسة ملايين دولار، والموزعة على بنوك مختلفة فى سويسرا وبلاد أخرى.

وأصبح التاجر اللبنانى الثرى عبد الله بركات نجماً فى فنادق الخرطوم الكبرى والنادى الدبلوماسى.. وفى هذا النادى - الذى يمتلئ برجال الأعمال والصحفيين والدبلوماسيين - عرفته.. أو أجبرت على معرفته.. لقد فقدت الكثير.. لم تعد عشيقة مدير المخابرات.. أصبحت مجرد عميلة.. أو عاهرة.. لا فرق.. بل.. إنهم حرموها من الهدايا والأموال.. أخذوها منها.. قالوا لها : إنها ممتلكات عامة.

كان عليها أن تراقب تحركاته.. وأنفاسه.. فى الفراش.. فى النادى.. فى كل مكان.. لكن.. بشرط ألا يكتشفها أحد.. ألا يقرع أحد أجراس الفضيحة.. لو فُضحت سيتخلصون منها.. إنه الشرط الأهم فى اللعبة.. إذا كسبت العميلة كسب جهازها.. وإذا خسرت، خسرت بمفردها.

فى النادى الدبلوماسى كان هناك من يراقب كارلوس بعيداً عن فطنة المخابرات السودانية.. رجل أعمال مصرى.. غامض.. أغرق كارلوس فى النساء والشراب والكافيار والموسيقى والثياب.. وصوره.. وأرسل الفيلم إلى القاهرة التى تأكدت أنه كارلوس.. فأرسلت نسخة مما لديها إلى باريس وواشنطن.. التى تركت العملية

للمخابرات الفرنسية.. الأكثر تضرراً من أعمال كارلوس.. وبمساعدة مخابرات أربع دول عربية بدأ الفرنسيون فى تنفيذ الخطة.

فى أبريل ١٩٩٤ افتعل البوليس السودانى حادث سيارة بسيارة كارلوس وحدثت مشادة بين رجال البوليس وحراس كارلوس انتهت بذهابه إلى قسم البوليس.. وبهدوء قال:

- إنه ثرى وله الكثير من الاتصالات.

وأفرجوا عنه.

لكنه شعر بالمراقبة.. فظل فى بيته يشاهد أفلام الفيديو.. ويمارس الحب مع صديقته السمراء.. مثل الشطة الحمراء.. وقد لاحظت أنه يدفن جسده الضخم فى جسدها النحيل.. وكأن فيلا يريد الاختباء فى بطن غزالة.. وكانت لا تكف عن سؤاله:

- من أنت؟

وكان لا يكف عن الإجابة:

- لا وقت لدينا للتاريخ.. فكل حوادثه تزوير.

كان يريد منها فقط أن تقترب منه.. ليكسر معها آلاف الأشياء.. فلا تعمير بلا تكسير.. لكنها كانت مكسورة مثله.. محطمة مثله.. تريد غيبوبة الجنس والعنف والخمر مثله.

مع نهاية شهر يوليو طلبت باريس من الخرطوم تسليم كارلوس.. فأصدروا أمرا بالقبض عليه باسمه الحقيقى «التيش راميرز سانشيز».. وكانت إحدى التهم الجاهزة فى قائمة اتهاماته الخارجية.. ممارسة الدعارة والزنى فى دولة تطبق الشريعة.. وكان هناك فى السلطة من هو مستعد لتنفيذ حد الرجم عليه وعلى عشيقته.. العميلة..

الحلـوة.. والحـارة.. لكن مدير المخابرات الفرنسـية الجنرال فيليب روندو أصر على استلامه.. فقد كان ينتظر لحظة القبض عليه بنفسه من ١٩ سنة و ٤٩ يوما كما حسبها بنفسه.. وكان ذلك يوافق يوم الأحد ١٤ أغسطس ١٩٩٤ .

لقد خطفوه فى سيارة إسعاف كانت ستقله إلى مستشفى لإجراء جراحة، واندفعوا بالسيارة إلى المطار.. حيث كانت ترقد طائرة تحمل رجال المخابرات الفرنسية.. الذين استلموه.. ولكن.. دون أن يعرفوا ماذا يمكن أن يفعلوا بامرأة سودانية صغيرة كانت ترافـقه فى سـيارة الإسـعاف.. وتنهمـر دموعها بعـد أن عرفت حقيـقة الرجل الذى ساعدت فى الإيقاع به.

وجاءت التعليمات من فوق : اقتلوها.

وكان على رجال غامضين من نفس جنسها أن ينفذوا الأمر...

وقد كان.



١٥

امـرأة فى باب دوار!

هذا الزبد الطافح

فى سبابتى اليمنى

فى منبت ساقيك..

الزبد اللامع فى زغب الدلتا

.... سيظل هنا

.... ملتصقاً باللحظة حين تغيبين..

سعدى يوسف - زبد

تشهق كـأنها ترى الموت.. تصرخ كـأن عقربا أصـفر لدغها فى دلـتا ساقيـها.. فى مجرى الرمح المحفـور بين شفتيها.. فى الطريق المفـتوح بين النهدين.. تبكى.. تلمع عيناها.. يسـتدير وجهـها.. تصبح بـشرتها فـضية.. تنهـار.. تجثو.. تسـجد.. تلحس ساقـيه.. ترعى كل شعرة فـى جسده.. تصبح خـفا فى قدمـيه.. وخاتماً فى أصبـعه.. وخادما تحت أمره.. إنها هكذا عندما تصل إلى ذروة المتعة مع رجل.

لكنها.. لا تسلم نفسها.. وجسـدها.. وكيانها لأى رجل.. لا تسلـم إلا لرجل مهم جداً.. ضـابط أمن.. زعيم حزب.. نجم سـينما.. كاتب مـعروف.. وزير فى الحكم.. إنها لاتشـعر بالرغـبة إلا فى وجـود القوة.. أو النفـوذ.. لايهمـها المال.. ولا الماس.. يهمها السلطة.. وهى لا تستغلها.. لكنها تحب أن تستسلم لها.

سأطبق جفنى على ذكرى صوتك

ذلك المرتعش، المبحوح بغيمة أمس.

سأحفظ صرختك المكتومة

حين عضضت ذراعى، هائجة أمس..

سعدى يوسف - استعادة

كانت تلميذة فى الإسماعيلية عندما تزوجت.. بدت مثل سعاد حسنى فى أفلام الأبيض والأسود وهى تركب دراجتها على شاطئ القناة وتضع أمامها حقيبتها المدرسية.. كانت كأحلى ما يكون الصبا.. كانت كمن يطير إلى مسافات خرافية.. وكانت وهى تحلق تحلم بأن تكون أغنية.. تمنت فى هذه اللحظة أن تمزق الحياة.. من شدة حبها للحياة.

فى يوم واحد من تلك الأيام تقدم إليها ثلاثة رجال.. مقاول ثرى فى ميناء السويس.. مرشد بارع فى القناة.. وضابط فى الأمن السياسى.. ووجدت نفسها تختار الأخير.. كان يبدو مسيطراً.. مهيمنا.. مؤثراً.. هو أول من يتكلم.. ويتحرك.. ويأكل.. وينام.. ويقوم.. على عكس الأب الذى كان يقضى ثلاثة أرباع وقته فى صيد سمك لا يستجيب له ولا يصدق غمزات سنارته.. ثم يعود وحيداً.. ليأكل طعاما بارداً.. ونوما بارداً.

لكنه.. ليس مثل أبيها.. إنه يملك الدنيا.. فهو يضع وشم السلطة على ذراعه.. وقد أسعدها ذلك.. وأسعدها أكثر أن تكون جاريته.. فى خدمته.. أن تكون رمادا فى سيجارته.. وحلما على مخدته.. ونهدا ينفر بين أصابعه.. وحبات عرق تذوب فى جسده.. إنها أنثى تعبد السلطة.. وهو السلطة.

لكنها لا تعرف ما الذى يفعله؟.. إنه غامض.. صامت.. يرد على تليفونات مجهولة.. بطريقة غير مفهومة.. حياته كلها شفرة.. كلماته كلها يسيطر عليها ضمير الغائب.. أنفاسه محسوبة.. وتحركاته.. وتصرفاته أيضاً.. إنه ليس سلطة.. حتى لو بدا غير ذلك.. إنه أصبع فى يد السلطة.. أو مخلب من مخالبها.. أو ضرساً من أضراسها.. لكنها.. لاتعرف سوى أنه سلطة.. وأن عليها أن تكون جاريته.. لم يكن لديها ما يشغلها سوى جسدها.. كيف يكون لامعا.. ليناً.. مشدوداً.. مستعداً.. منتظراً التعليمات الرسمية.. الفورية.. وقد راحت تثقف هذا الجسد بالأفلام والكتب.. إن الجنس علم وفن وثقافة وتجربة وذكاء وخبرة وممارسة.. إنه مثل اللغة..

يتكلمها الناس جميعاً.. لكن القليل منهم الذى يبدع فى كشف أسرارها، والتحلى بكنوزها.. وهى تجيد هذه اللغة.. بالصوت.. والأصابع.. والأطراف.. والأنفاس.. إنها فيلسوفة فى الجنس.. لها الحق فى الدكتوراة فيه.

أناملك الطرية.

أناملك السائلة التى تكاد تندلق على الطاولة.

.... أناملك التى لا يكاد يلامسها شىء.

أناملك:

حليب ورد....

... أناملك هذه

أى نسج أول، تدفق، بغتة فيها.

كى تطبق على عضوى

كماشة من فضة؟

سعدى يوسف - كماشة

فجأة توقفت عقارب الساعة.. والسلطة.. أصبحت مثل حوت أسود الشفتين يبلعه.. ويبلعها معه.. عقاربها.. ثعبان على الحائط.. مقصلة.. مشنقة.. سكين يمزقهما.

جاء رجال الحرس الجمهورى وقبضوا عليه.. اتهموه بالخيانة.. والمؤامرة.. وقلب نظام الحكم.. والتمرد على الرئيس الجديد.. والسخرية منه ومن زوجته.

قال أنور السادات: سأفرمهم.

وتحولت مصر إلى مفرمة.. إلى سلخانة سياسية.. انقلبت الأوضاع رأسا على عقب.. الضابط أصبح لصا.. القريب أصبح بعيداً..

القوى أصبح ضعيفاً.. وفى ذلك الوقت أحست بالشفقة على زوجها.. لقد أصبح مثل أسد عجوز تعبث الفئران بأسنانه.. فى ثوان.. تحول الجبل إلى كوم رمل.. والصلب أصبح مسحوق زجاج.. وارتعد واضطرب.. واختبأ كفأر مذعور فى الحمام.. وقد أذهلها ذلك.. وهى تعترف بأنها تعاطفت معه.. وخافت عليه.. لكنها.. أحست أن جسدها لم يعد يريده.. وأنه أغلق أبوابه فى وجهه.

هو نفسه لم يعد يطيق الحياة.. وفى السجن الذى ضم رموز السلطة من على صبرى إلى سامى شرف.. ومن شعراوى جمعة إلى الفريق محمد فوزى.. استسلم للسرطان الذى راح يضرب خلايا الدم حتى تتورم وتتوحش.. لقد فقد السلطة.. ففقد الحياة!

هدأت شفتاى

واستكن قضيب النحاس

ذابلا، دامعا،

وأنت مثورة الشعر

لاهثة

لا تزالين فى وقدة اللمس

تنتظرين قضيب النحاس

الذى يرتخى

ذابلا، دامعا.

سعدى يوسف - الهدوء

لم تشعر بالرغبة فى رجل آخر.. لا يثيرها فى الرجل سوى سطوته.. وهى تنظر

حولهـا فلا تجد أحـدا مما تتخيل.. لا تجد أحـدا يعيد السـيادة إلى صدرها الذى فـقد شمـوخه.. ويعـيد السخـونة إلى الساقـين الغارقـتين فى فـريزر.. ويعيد الـبريق إلى العـينين اللتـين انطفـأتا.. لا صوتهـا بح.. ولا لسـانهـا تحرك.. ولا أناملهـا السـائلة تدفقت.. إنها أنثى معطلة.. مغلقة.. فى حاجة إلى سلطة جديدة تهزها من جديد.

وراحت تقطع أيامـهـا بملل فى نادى الجزيـرة وقراءة الصـحف وتغـيير ديكورات البيت.. والانضـمام إلى جمعـية المرأة الوحيدة.. وهى جـمعية كـونتها نساء يشـعرن بالفراغ واليـأس.. فيجـتمـعن مرة كل أسبـوع يرقصن ويشربن ويـتبادلن الشـائعات والنكات البذيئـة وشرائط أفلام البـورنو.. وأحيانا يمـارسن نشاطا اجتـماعيـاً بدعوة شخص مهم على الغداء فى فندق خمس نجوم، يتحـدثن معه عن موضوعات الساعة مع شرائح السيمون فيميه.

وجدته أمامها على المنصة يتحدث.. لم تسـتطع أن تحتمل نفسها.. تركت القاعة.. وخرجت.. لقد اسـترد جسدها حمـاسه للجنس عندما رأته.. اسـترد أسنانه وأحلامه وأوهــامـــه.. وأحســت أنهـا عارية.. وأنها مبلولة.. وأنها مكشـوفة.. فلم تستطع أن تبقى.. كـأنها لو بقيت سـتمارس معه الجنس على المنصـة.. وستتفرج علـيها كل نســاء الزمالك.

إنهـا تعرفـه من مـقالاته.. تحس به بـين السطور.. تحدث عـينيـه المطبـوعتـين على الورق.. تتغلغل فى حروفه.. وتطير كلماته كالنجمات والفراشات فى حجرتها.

أحست بالنشوة وهى تأخـذ حمامها فى ذلك اليـوم.. كأنه كان معهـا فى الحمام.. إنها لم تصدق أنها مارست الجنس مع خيال.. وأنها استمتعت بهذا الخيال.. لقد كان معـها رجل.. مـع أنه عن بعد.. ولا يعـرفهـا.. ولكنها تعـرفه.. وتحلم به.. ويسـيطر عليها.. ويتحكم فى جسدها.. ويديره.. ولو بالريموت كنترول.

وأمسكت بالتليـفون.. وطلبته فى مكتـبه.. إنها ليست المرة الأولى التى تحـب كاتبا

من بعيد.. لقد أحبت أحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس وكامل زهيرى وموسى صبرى.. إنهم سلطة بغض النظر عن مواقفهم السياسية.. لكن.. معظمهم تعامل معها كما يتعامل مع مئات القراء المعجبين.. كلمات من المجاملة العابرة، المتعجلة التى تشبه ابتسامة المضيفة والجرسون.. إنهم وغيرهم من الكتاب والصحفيين مجانين سرعة.. فهم فى سباق مع الأحداث والزمن ويعيشون فى دوامة يصعب الخروج منها إلا بالموت.. أو بالجنون.

جاء صوته هادئا.. شيء ما فى صوتها جعله يستريح لها.. إنه يعشق الجنس.. ويقيس المرأة من صوتها.. أو أنفها.. أو شفتيها.. أو مؤخرتها.. لكنه يؤمن بأن الجنس جسد وعقل.. جسر من العرق والتفاهم.. وأن المرأة تقنعه بجسدها مرة.. وبعقلها ألف مرة.. إن العقل يجعل خياله عن المرأة متحركاً.. متغيراً.. ويجعله يشعر بأن المرأة مغطاة بغموض ما، لا يعرفه حتى لو كانت عارية تماماً.

ولم يكن من الصعب أن تولد مغامرة.

من أين أمسك بك!

لا النهد يملأ راحتى

ولا الزند

وفخذاك، فخذا الغزالة هل تعرفان غير الجرى؟

حين أطوق خصرك

ترتسم أضلاع على أناملى

لكنك حين نفعل الحب، ترفرفين

تطيرين

وتهبطين

ممسكة جيداً بالعود..

سعدى يوسف - ناحلة

لكن.. المتعة محرمة على هذا الطراز من الرجال أحيانا.. إن السلطة فى معظم الأحيان تفضل التعامل مع المنحرفين.. اللصوص.. المستغلين لنفوذهم.. الذين يثرون من التقلب على كل لون وعلى كل عهد.. فإذا لم يكن الكتاب منحرفين على هذا النحو.. بحثت لهم عن نقطة ضعف لتهديدهم.. وإسكاتهم.. وغالبا ما تكون النساء هى نقطة الضعف.

إن الكاتب المشدود طوال اليوم مثل الرمح والوتر يشعرأن من حقه الاسترخاء والاستمتاع لتعود لعقله ليونته، ولأعصابه هدوؤها، ولدنياه بريقها.. وهو يجد ذلك فى موسيقى يسمعها.. أو سيجارة يدخنها.. أو امرأة تلخص له الحياة التى نسيها.

لكنه.. لا يقدر على ذلك.. فالعيون ترصده.. والآذان تسمعه.. وأجهزة التسجيل تلتقط أنفاسه.. وأضواء سيارات الشرطة الملونة، الدوارة، تجعله يلف حول نفسه.. فى ديسكوتيك صاخب من نوع خاص.

قبل عشرين دقيقة

غادرت حمامها التركى..

.. ملساء.. كأن الزغب استقطر لون الزبدة..

الكوثر رطب، ناعم..

منفرجا كان

وبين الضفة الملساء والأخرى

سماء سلسبيل

هكذا يبرق فى الليل السلسبيل

سعدى يوسف - عانة

كانت تنتظره.. فوجدت أمامها رجلا يشبه زوجها.. يتحدث مثله.. يتصرف مثله.. يلبس الكاكى تحت جلده مثله.. مدجج بالسلطة والكراهية.. لا شىء أمامه يدور.. الشمس لا تدور.. الوقت لا يدور.. الهواء لايدور.. ويشعر الإنسان مهما كان بأنه مجرد قشور.

طلب منها أن تضع فى فراشها جهاز تسجيل وكاميرات تصوير وأن تصوره فى كافة الأوضاع واللحظات.. استحلفوها بأيام زوجها القديمة.. قالوا لها أنها جزء من عائلتهم.. وأنهم لن ينسوها.. وأن اللعبة التى يلعبونها لابد لها من ضحايا.. وكان زوجها ضحية.. والرجل الذى تهواه أيضاً.

إنها صفقة مغرية.. ستغير سيارتها.. وثيابها.. وبيتها.. ولن تخسر شيئاً.. فالرجال على قفا من يشيل.. وهى ستجد بدلا منه ألفاً.. ثم إنها ليست المرأة الوحيدة فى حياته.. إنه يلعب بك.. يتسلى.. ارميه قبل أن يرميك.. اكسريه قبل أن يحطمك.. ودارت الدنيا بها.. وكادت أن تعجز عن استنشاق الهواء.. ولكنها.. رفضت.. إنها تعرف بالغريزة أن الرجل الذى تشتهيه هو رجل يستحق الحياة بقوة.. أو الموت بشرف.

لقد دخلوا بيتها واستباحوا حرماتها وبعثروا أغطيتها وشمشموا ملابسها الداخلية.. لكنها أصرت على الرفض.. بل وأصرت على أن تتحدث فى التليفون وتطلب منه ألا يأتى.. وألا يعرفها.. وشرحت له كل شىء.

ولم يعرف القراء لماذا كتب فى اليوم التالى عن العصر المعدنى الذى يفزع من

صوت القبلات ويطلق النار على الحب ويرمى جثث الكتاب فى قعر صفحات الحوادث.

أما هى فقد أحست بأن حياتها مثل باب دوار وبأنها تلف حول نفسها وتعود إلى نفس المكان الذى كانت فيه.. ولكن فى كل مرة كان الزمن يأكل منها الكثير من جمالها وحيويتها.. وبعد سنوات طوال لا تزال عضوة نشطة فى جمعية المرأة الوحيدة.. تسهر.. ترقص.. تنكت.. وتمارس الجنس وحدها مع نفسها.

مرج أسود

سهب مترامى الأطراف

النبع به خاف

والدلو يخاف

مرج أسود

والدنيا بيضاء..

السرة خافية، زر أرهف

والمرمر ملتمع

ووسادتها تحت الردفين ضفاف..

سعدى يوسف - عانة

فمن سيحاول فى العتمة أن يتلمس بيت الأصداف؟

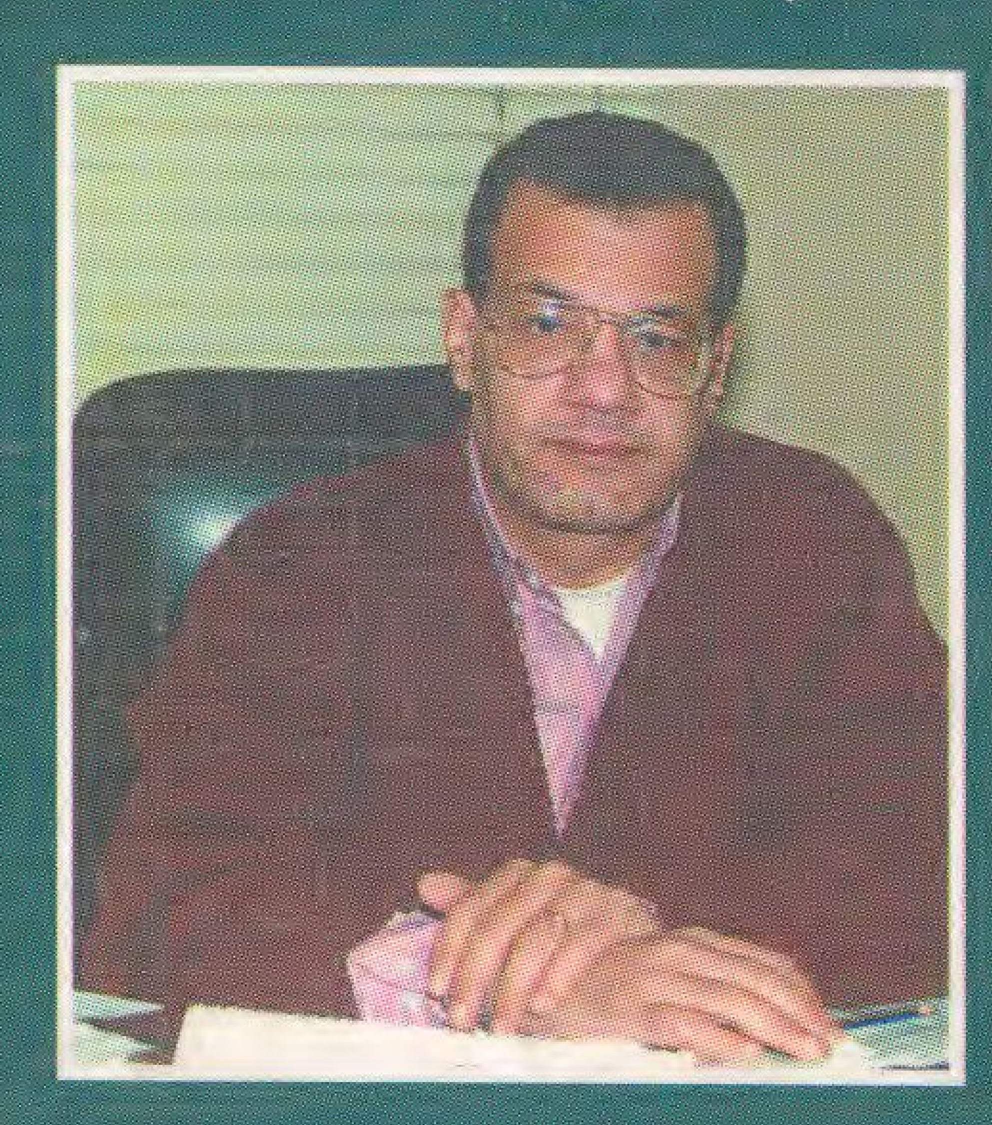
عادل حمودة

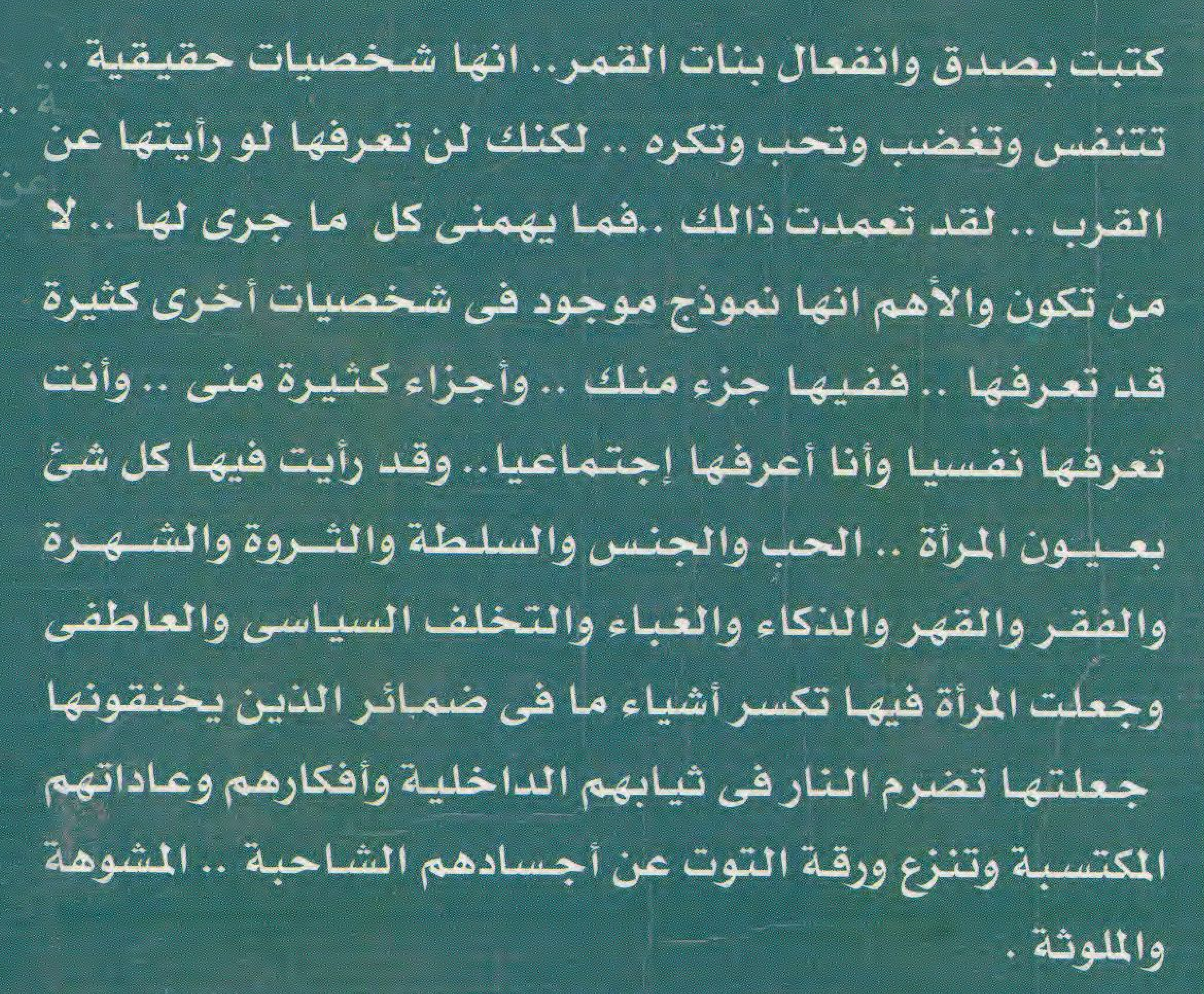
بنات القمر

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

بنات القمر

تجارب الحب فى بلاط السلطة

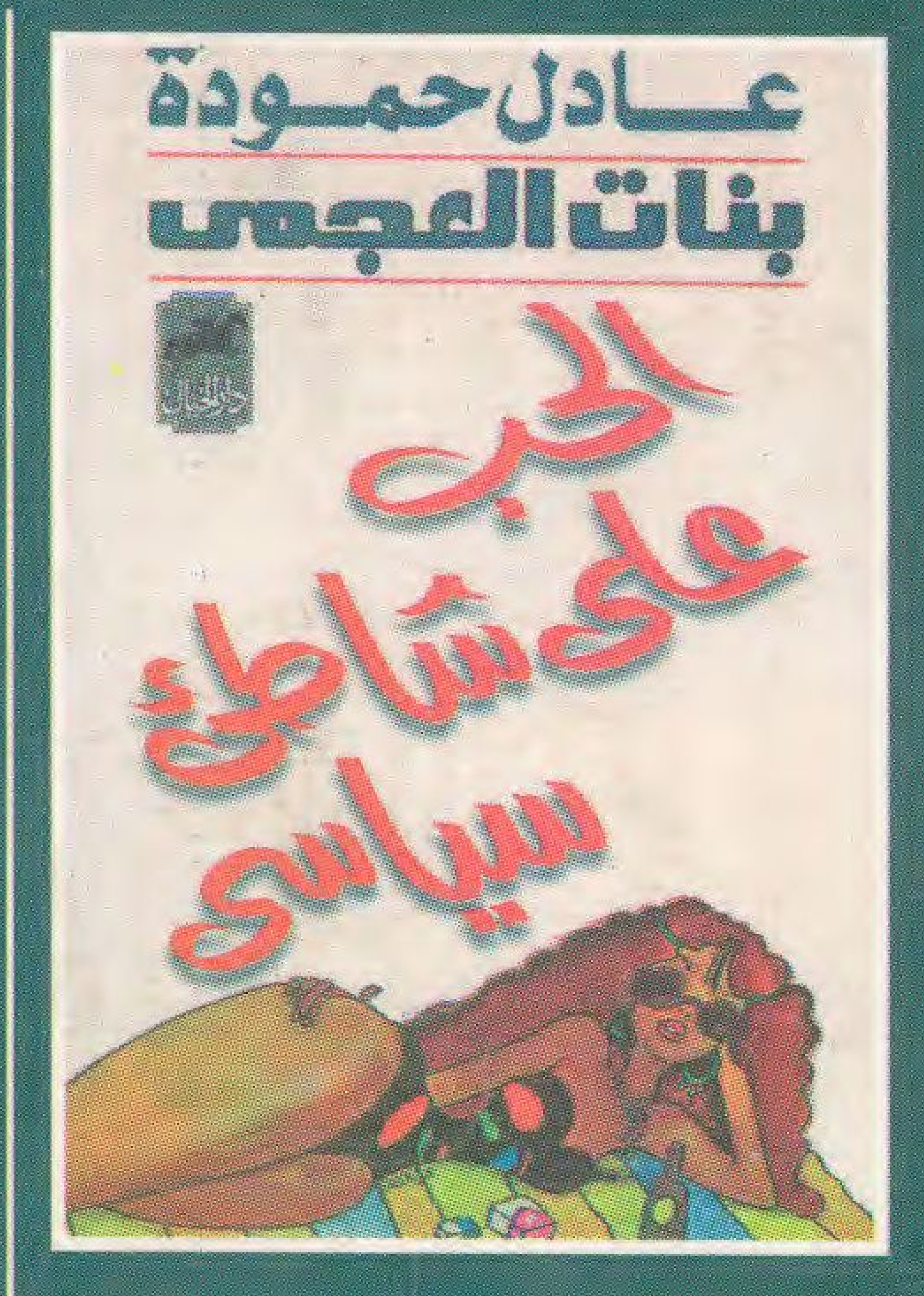


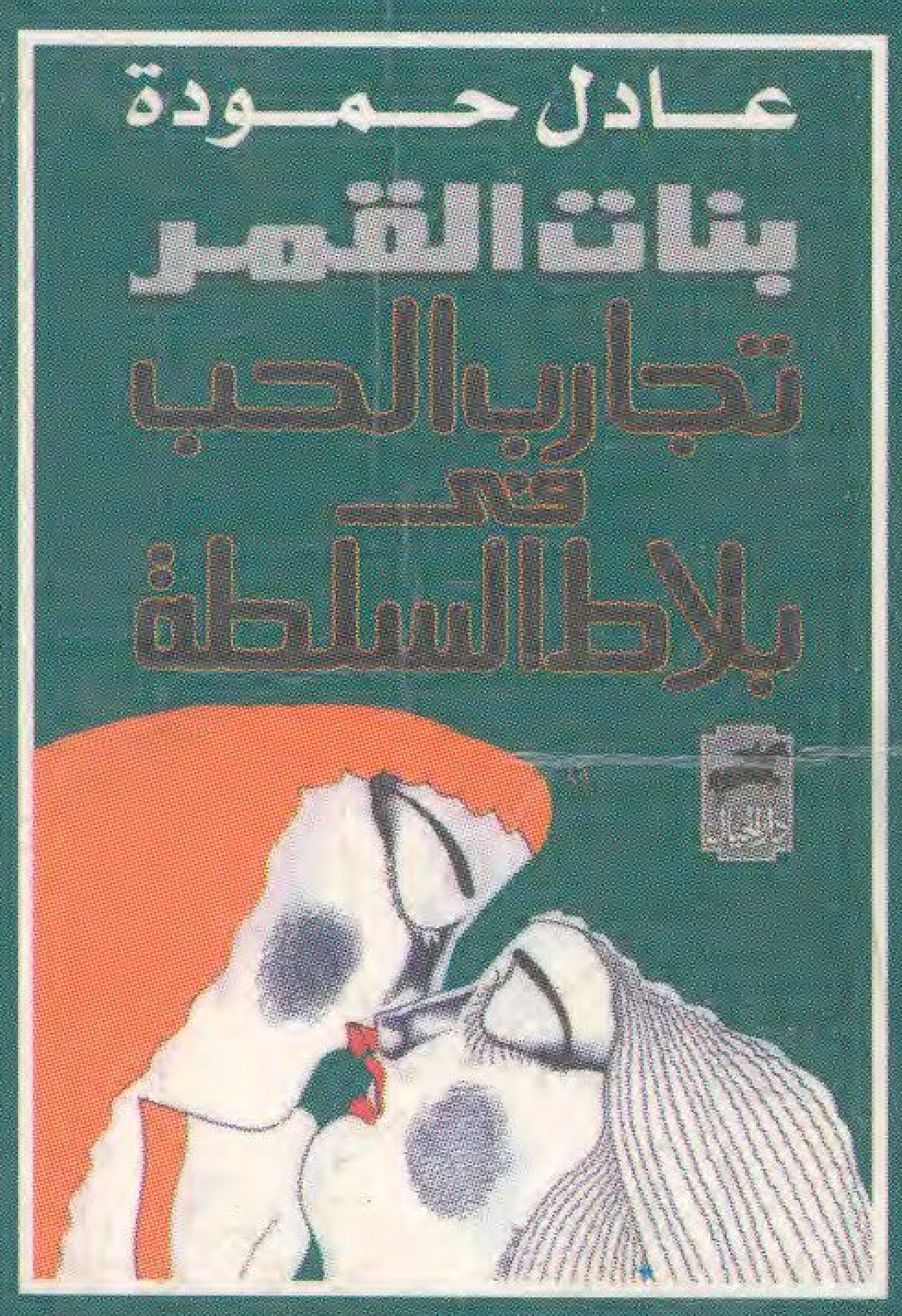


كتبت بصدق وانفعال بنات القمر.. انها شخصيات حقيقية .. تتنفس وتغضب وتحب وتكره .. لكنك لن تعرفها لو رأيتها عن القرب .. لقد تعمدت ذالك ..فما يهمنى كل ما جرى لها .. لا من تكون والأهم انها نموذج موجود فى شخصيات أخرى كثيرة قد تعرفها .. ففيها جزء منك .. وأجزاء كثيرة منى .. وأنت تعرفها نفسيا وأنا أعرفها إجتماعيا.. وقد رأيت فيها كل شئ بعيون المرأة .. الحب والجنس والسلطة والثروة والشهرة والفقر والقهر والذكاء والغباء والتخلف السياسى والعاطفى وجعلت المرأة فيها تكسر أشياء ما فى ضمائر الذين يخنقونها جعلتها تضرم النار فى ثيابهم الداخلية وأفكارهم وعاداتهم المكتسبة وتنزع ورقة التوت عن أجسادهم الشاحبة .. المشوهة والملوثة .

وهذا هو السبب فى أن رجالا كثيرين أشبعونى هجوما وتشهيراً عندما قرأوا بنات القمر فقد رأوا صورا قبيحة لأنفسهم فى المرآة أو فى المرأة فصرخوا وهاجوا وغضبوا فقد أضأت شمعة فى ليل جاهليتهم .. وحين فاجأهم النور خافوا لأن نور الحقيقة .. وضاح .. فضاح .

عادل حمودة





دار الخيال - القاهرة